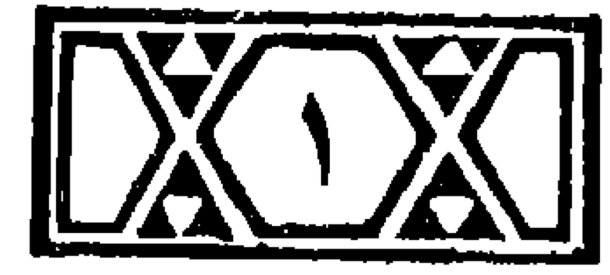
المجموعة التاريخية للصغار

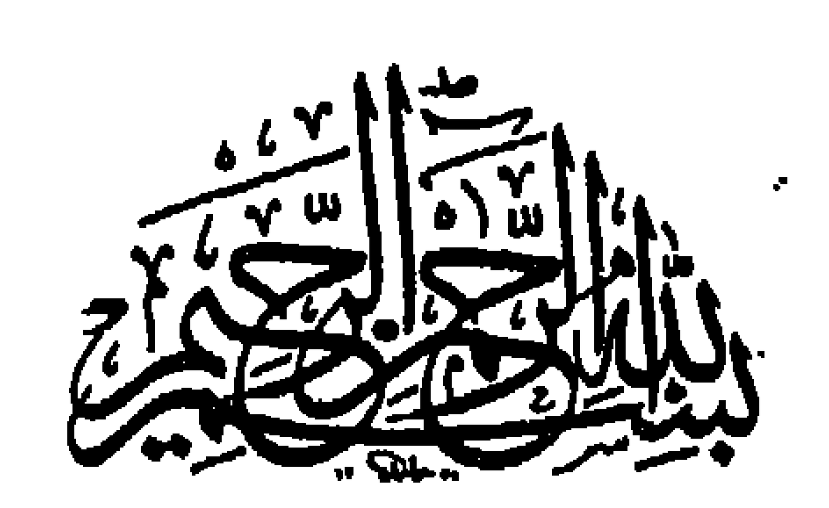
عجائب رحلة ابن بطوطة

الرمّال والعمْود



إعداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

رِحْلَةُ ابْنِ بَطُّوطَةَ

الشَّخْصِيَّاتُ التَّارِيخِيَّةُ الثَّابِتَةُ :

١ـ الرَّحَّالَةُ : مُحَمَّدُ أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ .

٢ـ السُّلْطَانُ : فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ الفَارِسِيُّ .

٣ـ كَاتِبُ السُّلْطَانِ : مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَلْبِيُّ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

العَجَائِبُ ١

الرَّمَّالُ وَالعَمُودُ

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ لِضَيْفِهِ أَبِي عَبْدِ الله مُحَمَّدِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ الطَّنْجِيِّ ، شَمْسِ الدِّينِ المَعْرُوفِ بِابْنِ بَطوطَةَ : هَاتِ حَدِّثْنَا بِأَخْبَارِ رِحْلَتِكَ العَجِيبَةِ مِنْ طَنْجَةَ إِلَىٰ الصِّينِ ، حَتَّىٰ عُدْتَ إِلَىٰ بِلَادِ المَغْرِبِ وَجِئْتَنِي فِي مَدِينَتِي (فَاسْ) ، وَخُصَّنِي بِالتُّحَفِ وَالغَرَائِبِ وَالعَجَائِبِ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَمْعاً وَطَاعَةً يَا مَوْلَايَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ الكَلْبِيِّ :

وَأَنْتَ دَوِّنْ فِي سِجِلِّكَ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ تَدْوِينَهُ مِنْ كَلامِ هَذَا الرَّجُلِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

أَمْرُكَ مُطَاعٌ يَا سَيِّدِي .

وَتَقَدَّمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ قَائِلاً :

كَانَ خُرُوجِي مِنْ مَسْقَطِ رَأْسِي طَنْجَةَ فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ رَجَبَ عَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مُفَارِقاً وَطَنِي مُفَارَقَةَ الطُّيُورِ لأَعْشَاشِهَا . وَكَانَ وَالِدَايَ عَلَىٰ قَيْدِ الحَيَاةِ ، لَقِيَا مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ مَا لَقِيتُ ، وَسِنِّي لَمْ تُجَاوِزْ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

وَصَلْتُ إِلَىٰ تِلْمسَانَ مُنْفَرِداً ، وَرَافَقْتُ بَعْضَهُمْ إِلَىٰ مَدِينَةِ الجَزَائِرِ ، ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ بِجَايةَ . وَفِي بِجَايَةَ أَصَابَتْنِي الحُمَّىٰ ، وَأَصْرَرْتُ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الرِّحْلَةِ عَلَىٰ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ وَهِيَ : إِنْ قَضَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ بِالمَوْتِ فَلْيُتِمَّ قَضَاءَهُ وَأَنَا قَاصِدٌ أَرْضَ الحِجَازِ وَذَلِكَ أَجْزَلُ ثَوَاباً ، لأَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ .

وَسِرْنَا إِلَىٰ أَنْ وَصَلْنَا مَدِينَةَ قَسنْطِينَةَ ، وَوَافَقَ وُصُولَنَا نُزُولُ مَطَرٍ غَزِيرٍ

وَفِي الغَدِ تَلَقَّانَا حَاكِمُ المَدِينَةِ فَأَهْدَانِي ملْبَساً وَنَفَحَنِي بِدِينَارَيْنِ مِنْ الذَّهَبِ .

بَلَغْنَا تُونُسَ وَقَدْ أَظَلَّنَا عِيدُ الفِطْرِ فَحَضَرْتُ صَلاَةَ العِيدِ ، وَقَد احْتَفَلَ النَّاسُ وَبَرَزُوا فِي أَجْمَلِ هَيْئَةٍ .

وَبَعْدَ مُدَّةٍ تَعَيَّنَ لِرَكْبِ الحِجَازِ شَيْخٌ يُعْرَفُ بِأَبِي يَعْقُوبَ السُّوسِيِّ وَقَدَّمَنِي فِي المَوْكِبِ قَاضِياً .

وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ صَفَاقِسَ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَدِينَةِ قَابُسَ وَفِي قَابُسَ ، حَجَزَنَا المَطَرُ عَشْرَ لَيَالٍ ،وَقَدْ تَوَالَىٰ دُونَ انْقِطَاعٍ .

ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ مَدِينَةِ قَابُسَ قَاصِدِينَ طَرَابُلُسَ .وَكُنَّا نَخْشَىٰ قُطَّاعَ الطُّرُقِ مِنَ الأَعْرَابِ ، فَاسْتَصْحَبْنَا فِي بَعْضِ المَرَاحِلِ مِائَةَ فَارِسٍ فِيهِمْ عَدَدٌ مِنَ الرُّمَاةِ . وَبَدَا أَنَّ قُطَّاعَ الطَّرِقِ قَد اسْتَهَابُوا مَوْكِبَنَا وَحَذِرُوا الخُرُوجَ فِي وَجْهِنَا ، وَعَصَمَنَا الله مِنْهُمْ .

كُنَّا نُغِذُّ السَّيْرَ مُسْرِعِينَ ، وَنَحْنُ فِي أَوَائِلِ ذِي الحِجَّةِ مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِئَةٍ . وَكَانَ أَمَلُنَا بُلُوغَ طَرَابُلُسَ فَجْرَ عِيدِ الأَضْحَىٰ فِي العَشْرِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ . وَلَكِنَّ العِيدَ أَظَلَّنَا فِي بَعْضِ مَرَاحِلِ الطَّرِيقِ وَلَمْ نَبْلُغْ طَرَابُلُسَ ، إِلاَّ فِي رَابِعِ أَيَّامِ العِيدِ .

بَعْدَ أَنْ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ ، أَقَمْنَا بِهَا مُدَّةً ، وَشَهِدْنَا مَدْخَلَ عَامٍ جَدِيدٍ ، هُوَ عَامُ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَفِي أَوَاخِرَ شَهْرِ المُحَرَّمِ ، خَرَجْتُ مِنْ طَرَابُلُسَ عَلَىٰ رَأْسِ جَمَاعَتِي وَقَدْ رَفَعْتُ العَلَمَ وَتَقَدَّمْتُ عَلَيهِمْ نَحِيدُ عَنْ طَرِيقِ العَرَبِ خَشْيَةَ الإِيقَاعِ بِنَا ، إِلَىٰ أَنْ صَرَفَتْهُمْ عَنَّا قُدْرَةُ الله جَلَّ جَلاَلُهُ ، وَتَجَاوَزْنَا مَسْرَاتَةَ وَقُصُورَ سَرْتَ إِلَىٰ قَصْرِ بَرْصِيصَا العَابِدِ . وَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ يَطْلُبُ مَدِينَةَ(فَاس) فِي المَغْرِبِ ، وَكَانَتْ مَعَهُ ابْنَتُهُ وَقَدْ رَأَىٰ مَا رَأَىٰ مِنْ وَجَاهَتِي فِي جَمَاعَتِي فَزَوَّجَنِي مِنْهَا ، وَدَخَلْتُ بِهَا بِقَصْرٍ يُعْرَفُ بِقَصْرِ الزَّعَافِيةِ ، وَاحْتَفَلْتُ بِذَلِكَ فَأَقَمْتُ وَلِيمةً لِلْقَوْمِ وَأَطْعَمْتُهُمْ جَمِيعاً ، وَبَاتُوا لَيْلَةَ الفَرَحِ مِنْ حَوْلِنَا .

وَأَخَذْنَا وِجْهَتَنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَتَّىٰ وَصَلْنَاهَا بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ فِي أَوَّلِ جُمَادَىٰ الأُولَىٰ .

أَمَّا عَنِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبَا عِنَانٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا الثَّغْرُ المَحْرُوسُ ، والقُطْرُ المَأْنُوسُ ، عَجِيبَةُ الشَّأْنِ فِي البُنْيَانِ ، ذَاتُ تُحْسِينٍ وَتَحْصِينٍ وَإِحْصَانٍ . جَمَعَتْ مَبَانِيهَا بَيْنَ الضَّخَامَةِ وَالإِحْكَامِ ، وَتَحَدَّثَ فِي عَجَائِبِهَا الأَنَامُ . وَهِيَ مَرْسَىً عَظِيمٌ لِلسُّفُنِ ، لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ هِيَ : بَابُ السِّدْرَةِ المُؤَدِّي إِلَىٰ المَغْرِبِ ، وَبَابُ رَشِيدٍ فِي مُقَابَلَتِهِ ، وَبَابُ البَحْرِ ، وَالبَابُ الأَخْضَرِ وَلَيْسَ يُفْتَحُ إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَة ، لِيَخْرُجَ النَّاسُ مِنْهُ لِزِيَارَةِ القُبُورِ . وَلَمَّا كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ بِمَنَارِهَا العَظِيمِ ، خَرَجْتُ لِزِيَارَتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ فِي بَرٍّ مُسْتَطِيلٍ يُحِيطُ بِهِ البَحْرُ مِنْ ثَلاَثِ جِهَاتٍ .

أَمَّا قِوَامُهُ فَبِنَاءٌ مُرَبَّعٌ ذَاهِبٌ فِي الهَوَاءِ ، وَبَابُهُ مُرْتَفِعٌ عَلَىٰ الأَرْضِ بِعَرْضِ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ شِبْراً ، وَدَاخِلَهُ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ ، وَدَاخِلَ البَابِ مَوْضِعٌ لِجُلُوسِ حَارِسٍ لَهُ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ .

وَبِمُرُورِ الأَعْوَامِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ الخَرَابُ فَلَمَّا قَصَدْتُهُ عِنْدَ عَوْدَتِي إِلَىٰ بِلَادِ المَغْرِبِ ، عَامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَجَدْتُهُ لاَ يُمْكِنُ دُخُولُهُ وَلاَ الصُّعُودُ إِلَىٰ بَابِهِ . وَقِيلَ لِي إِنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ ـ رَحِمَهُ الله ـ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَاءِ مَنَارٍ مِثْلِهِ ، وَحَالَ المَوْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَأْرَبِهِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

وَاعْلَمْ يَا سَيِّدِي أَنَّ مِنْ عَجَائِبِ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ عَمُودُ الرُّخَامِ الهَائِلُ الَّذِي يَقَعُ خَارِجَ أَسْوَارِهَا ، وَأَهْلُهَا يَعْرِفُونَهُ بِعَمُودِ السَّوَارِي لأَنَّهُ يَفُوقُ السَّوَارِيَ ارْتِفَاعاً ، كَمَا يَسْمُو عَلَىٰ الأَشْجَارِ ، وَمَعَالِمِ البُنْيَانِ الأُخْرَىٰ ، وَيَقَعُ مُتَوَسِّطاً لِغَابَةٍ مِنَ النَّخِيلِ وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ ضَارِبَةٌ فِي عُمْقِ الأَرْضِ عَلَىٰ قَوَاعِدَ مِنَ الحِجَارَةِ مُرَبَّعَةٍ ، تُشْبِهُ الدَّكَاكِينَ العَظِيمَةَ . وَلاَ يَعْرِفُ المُتَأَمِّلُ مِنَّا كَيْفَ وَضَعَتْهُ الأَيْدِي فِي هَذَا المَكَانِ كَمَا لاَ يَعْرِفُ أَهِيَ مِنَ الإِنْسِ أَمْ مِنَ الجِنِّ ! . .

اِنْعَقَدَتْ الدَّهْشَةُ عَلَىٰ وَجْهِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَلِسَانِهِ ، وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ

شَيْئاً وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ رِوَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ عَنْ إِحْدَىٰ عَجَائِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَتَدَخَّلَ كَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ قَائِلاً :

ـ أَعْرِفُ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَان عَنْ عَمُودِ السَّوَارِي الذِي ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَة خَبَراً هُوَ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ ، فَإِذَا شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِمَا عَرَفْتُ . . . .

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو عِنَانٍ صَاحِبُ فَاسَ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِي أَنَّ أَحَدَ الرِّجَالِ الدُّهَاةِ ، كَانَ قَدْ احْتَرَفَ الشَّعْوَذَةَ وَالضَّرْبَ بِالرَّمْلِ ، قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ الصُّعُودِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ ذَلِكَ العَمُودِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَكِنَانَتُهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِي أَعْلاَهُ ، حَتَّىٰ شَاعَ خَبَرُهُ ، وَاجْتَمَعَ جُمْهُورٌ جَمٌّ غَفِيرٌ لِمُشَاهَدَتِهِ ، وَقَدْ طَالَ بِهِمُ العَجَبُ ، وَطَارَ بِأَلْبَابِهِمْ فَتَأَوَّلُوا فِيهِ ، وَتَقَوَّلُوا فِيهِ الأَقَاوِيلَ ، وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ احْتِيَالِهِ .

قَالَ الأَمِيرُ أَبُو عِنَانَ الفَاسِيُّ وَقَدْ جَذَبَهُ حَدِيثُ كَاتِبِهِ ابْنُ جُزَيٍّ عَنِ الرَّمَّالِ صَاحِبِ العَمُودِ .

ـ حقاً ، مَا وَجْهُ احْتِيَالِهِ ، وَهَلْ أَطْلَعَكَ أَشْيَاخُكَ عَلَىٰ مَآلِهِ . . ؟

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ :

مَهْلاً عَلَيَّ يَا مَوْلاَيَ ، وَسَأَقُصُّ عَلَيْكَ جَمِيعَ خَبَرِهِ وَأَضَافَ :

أَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ احْتِيَالِهِ فِي صُعُودِهِ إِلَىٰ ذِرْوَةِ العَمُودِ فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ رَمَىٰ رَأْسَ العَمُودِ بِنَشَّابَةٍ قَدْ عَقَدَ فَوْقَهَا خَيْطاً طَوِيلاً ، وَعَقَدَ بِطَرَفِ الخَيْطِ حَبْلاً وَثِيقاً ، فَلَمَّا تَجَاوَزَتِ النَّشَّابَةُ أَعْلَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ جِهَةٍ مُعْتَرِضَةٍ وَقَعَتْ إِلَىٰ الجِهَةِ المُوَازِيَةِ لِلرَّامِي ، فَصَارَ الخَيْطُ مُعْتَرِضاً عَلَىٰ أَعْلَىٰ العَمُودِ ، فَجَذَبَهُ رَامِيهِ حَتَّىٰ تَوَسَّطَ الحَبْلُ رَأْسَ العَمُودِ مَكَانَ الخَيْطِ فَأَوْسَطَهُ مِنْ إِحْدَىٰ الجِهَتَيْنِ فِي الأَرْضِ ، وَتَعَلَّقَ بِهِ بِتَمَكُّنٍ وَتَشَبُّثٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ، وَمَا زَالَ يَصْعَدُ وَيَرْتَقِي حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ بِهِ جُهْدُهُ الجَهِيدُ فِي ذِرْوَةِ العَمُودِ ، وَجَذَبَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حِيلَتِهِ . وَقَعَدَ عَلَيْهِ ، وَخَبَّأَهُ بِمِقْعَدَتِهِ ، حَتَّىٰ خَفِيَ أَمْرُهُ وَتَدْبِيرُهُ عَلَىٰ النَّاسِ ، وَازْدَادُوا فِي أَمْرِهِ عَجَباً .

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُتَسَائِلاً بِأَقْصَىٰ اهْتِمَامٍ :

وَمَاذَا عَنْ مَآلِ ذَلِكَ الرَّمَّالِ المُحْتَالِ ؟

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ عَاجِلاً ، بِمَا آلَ إِلَيْهِ الرَّمَّالُ المُحْتَالُ المُسْتَقِرُّ عَلَىٰ عَمُودِ السَّوَارِي .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَيْتَكَ تَفْعَلُ ، جَزَاكَ الله خَيْراً . .

قَالَ مَحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَلْبِيُّ رَاوِي الخَبَرِ الأُعْجُوبَةِ عَنْ أَشْيَاخِهِ :

اِعْلَمْ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَان . . أَنَّ الرِّمَالَةَ وَالشَّعْوَذَةَ ضَلاَلٌ فِي ضَلاَلٍ ، إِذْ لاَ يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلاَّ الله ، وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ هَذَا الرَّمَّالُ المُشَعْوِذُ أَنَّهُ سَيَبْلُغُ كَرَامَةَ الأَوْلِيَاءِ المَرْضِيِّينَ بِمَا صَنَعَ ، وَقَدْ غَابَ عَنْ حُسْبَانِهِ أَنَّهُ مُشَعْوِذٌ دَجَّالٌ هَمُّهُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَجَمْعُ المَالِ ، إِذْ كَانَ يَأْمُرُ مَنْ يَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرٍ لَهُ خَطِيرٍ ، أَنْ يُودِعَ فِي حُفْرَةٍ حَوْلَ

العَمُودِ صُرَّةً مِنْ الدَّنَانِيرِ . وَكَانَ يَتَحَمَّلُ الجُوعَ وَالعَطَشَ وَالمَحْصَرَ كَمَا لاَ تَتَحَمَّلُ الجِمَالُ وَالحَمِيرُ .

وَكَانَ يَتَسَلَّلُ إِلَىٰ مَخْدَعِهِ تَسَلُّلاً ، لاَ يَجْرُؤُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ خُلُوِّ المَكَانِ حَوْلَهُ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ وَرَاجِلٍ وَعَابِرِ سَبِيلٍ ، وَكَانَ يَجْمَعُ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ لِيَطْمُرَهَا تَحْتَ الأَرْضِ بِجِوَارِ مَأْوَاهُ الحَقِيرِ . وَقَدْ سَاقَتْ إِلَيْهِ الشُّهْرَةُ ، وَالاعْتِقَادُ الخَاطِىءُ بِصَوَابِ تَنَبُّؤَاتِهِ إِلَىٰ حِينٍ لَمَ يَطُلْ ، سَاقَتْ إِلَيْهِ ثَرْوَةً عَنْ طَرِيقِ البُسَطَاءِ المَخْدُوعِينَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَضَاعَهَا بِغَبَائِهِ وَتَفْرِيطِهِ وَشِدَّةِ طَمَعِهِ . .

قَالَ السُلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ يَا بْنَ جُزِّيٍّ ، دَعْ ذَا وَخَبِّرْنَا بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الرَّمَّالُ صَاحِبُ العَمُودِ . .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ كَمَا يَشَاءُ مَوْلاَيَ السُّلطانُ وَاسْتَرْسَلَ ابْنُ جُزِّيٍّ فِي حَدِيثِهِ قَائِلاً :

بَلَغَنِي أَيُّهَا السُّلْطَانُ المُطَاعُ أَنَّ الرَّمَّالَ المُحْتَالَ صَاحِبَ العَمُودِ بَعْدَ أَنْ بَهَرَ الأَنْظَارَ وَشَغَلَ الأَفْكَارَ وَصَارَ حَدِيثاً لِلْقَاصِي وَالدَّانِي مِنْ أَهَالِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، اسْتَبَدَّ بِهِ الغُرُورُ وَالطَّمَعُ وَصَارَ يَبِيعُ الرُّقَىٰ وَالرُّقَعَ يُلْقِيهَا لِمُشْتَرِيهَا مِنْ أَعْلَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ أَسْفَلِهِ مُقَابِلَ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ مِقْدَارٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ فِي كِيسٍ لِلرَّجُلِ المَكَّارِ ، دُونَ أَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ عَلَىٰ الطَّمَعِ فِيهِ خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ أَو أَنْ تَحِلَّ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ تَطَاوَلَ الرَّمَّالُ المَشْعُوذُ يَسْتَقْصِي النَّظَرَ إِلَىٰ مَا جَمَعَ مِنَ المَالِ مِنْ أَقْصَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ أَدْنَاهُ وَانْحَنَىٰ يَسْتَطْلِعُ الحَقِيقَةَ بِعَيْنَيْهِ وَعُنُقِهِ فَإِذَا بِهِ يَهْوِي إِلَىٰ الأَرْضِ مِنْ عَلٍ .

شُوهِدَتْ جُثَّةُ الرَّمَّالِ مَرْمِيَّةً فِي أَسْفَلِ عَمُودِ السَّوَارِي ، وَهُوَ يُعَانِقُ مَيْتاً كِيساً مِنَ الذَّهَبِ .

اكْتَشَفَ النَّاسُ بُطْلَانَ ادِّعَاءَاتِهِ بِالكَرَامَاتِ وَسَخِرُوا مِنَ المُحَلِّقِ ، فِي الأَعْلَىٰ كَيْفَ لَمْ يُنْقِذْ نَفْسَهُ مِنَ المَصْرَعِ الهَائِلِ . وَخَفِيَ عَلَىٰ النَّاسِ

وَالحُكَّامِ أَمْرُ ثَرْوَتِهِ المَخْبُوءَةِ تَحْتَ الأَرْضِ، فِي جَرَّةٍ كَبِيرَةٍ حَتَّىٰ قَيَّضَ القَضَاءُ وَالقَدَرُ لَهُ حَيَّةً تَسْعَىٰ ، جَعَلَتْ تُسَرِّبُ الدَّنَانِيرَ بِفَمِهَا مِنْ سِرْدَابٍ عَمِيقٍ إِلَىٰ ظَاهِرِ الأَرْضِ ، فَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ خَبْئِهَا المَكْنُونِ وَأَخْبَرَ بِهِ السُّلْطَانَ فَجَاءَ بِحَاشِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ لِلْفُرْجَةِ ولالْتِقَاطِ المُكْتَنَزِ مِنَ الدَّنَانِيرِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِمُقْتَنِيهَا وَالحَرِيصِ عَلَيْهَا أَقَلُّ نَصِيبٍ فِيهَا .

قِيلَ : وَرَدَّهَا السُّلْطَانُ إِلَىٰ بَيْتِ المَالِ . وَظَلَّ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِسِيرَةِ الرَّمَّالِ الهَاوِي مِنْ فَوْقِ العَمُودِ أَسَابِيعَ وَشُهُوراً وَسِنِينَ وَبَقِيَتْ سِيرَتُهُ العَجِيبَةُ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَهَكَذَا كَانَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانَ :

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ ، يَا مُحَمَّدُ ، يَابْنَ جُزِّيٍّ . . وَرَغْبَتِي إِلَيْكَ أَنْ تُضِيفَ جَمِيعَ مَا قُلْتَهُ مَكْتُوباً إِلَىٰ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الله شَمْسِ الدِّينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، لِيَكُونَ حَدِيثُهُ أَجْمَعَ وَأَشَدَّ إِحَاطَةً ، وَتَزْدَادَ بِهِ لِقُرَّائِهِ المُتْعَةُ وَالفَائِدَةُ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ أَنْتَ يَا مَوْلَايَ خَيْرُ مَنْ سَمِعَ الحَدِيثَ ، وَوَعَىٰ الخَبَرَ وَاعْتَبَرَ ، وَنُزُولاً عِنْدَ أَمْرِكَ لأَفْعَلَنَّ وَلأُضِيفَنَّ حِكَايَةَ الرَّمَّالِ الدَّجَّالِ إِلَىٰ صَمِيمِ حِكَايَاتِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَعَجَائِبِهِ المُعْجِبَةِ الطَّرِيفَةِ .

قَالَ الرَحَّالَةُ ابْنُ بطُّوطَةَ :

ـ نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُ مَوْلَايَ السُّلْطَانِ ، وَنَحْنُ كِلَانَا فِي خِدْمَتِهِ وَطَاعَةِ أَوَامِرِهِ ، فَعَسَىٰ أَنْ نَحُوزَ مِنْهُ الرِّضَىٰ ، وَنَكُونَ لَدَيْهِ مِنَ المُقَرَّبِينَ .

هُنَا انْتَهَتْ حِكَايَةُ الرَّمَّالِ وَالعَمُودِ وَتَلِيهَا حِكَايَةُ التَّقِيِّ المُلْتَحِي مِنْ عَجَائِبِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .



☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

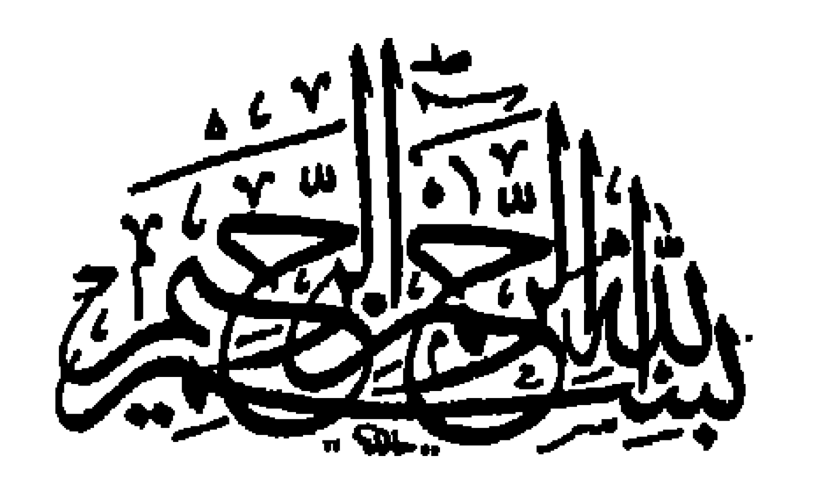
عجائب رحلة ابن بطوطة

التقيُّ الملْتَحي



إعداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي س.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

التَّقِيُّ المُلْتَحِي

انْتَصَبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ فِي صَدْرِ المَجْلِسِ وَقَالَ لِنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ تَعَالَ يَا أَبَاعَبْدِ الله ، أُدْنُ مِنْ مَجْلِسِي لِتُحَدِّثَنِي بِعَجَائِبِ رِحْلَتِكَ ، وَقَدْ كُنْتَ انْتَهَيْتَ بِنَا إِلَىٰ عَمُودِ السَّوَارِي بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَكُنَّا عَلَىٰ اسْتِعْدَادٍ لِنَسْمَعَ مِنْكَ المَزِيدَ لَوْلاَ تَدَخُّلُ كَاتِبِنَا ابْنِ جُزِّيٍّ وَاسْتَفَاضَتُهُ بِالحَدِيثِ عَنِ الرَّمَّالِ الذِي احْتَلَّ ذِرْوَةَ العَمُودِ تَظَاهُراً بِأَنَّهُ مِنْ أَرْبَابِ الكَرَامَاتِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَامَوْلاَيَ فِي جَلْسَتِنَا هَذِهِ عَنْ بَعْضِ أَرْبَابِ الكَرَامَاتِ الحَقِيقِيَّةِ مِنْ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ ، وَكُنْتُ قَدْ صَادَفْتُهُمْ أَو سَمِعْتُ

بِأَخْبَارِهِمْ ، وَأَنَافِي اجْتِيَازِي لِلْمُدُنِ المِصْرِيَّةِ مِنْ الشَّمَالِ إِلَىٰ الجَنُوبِ ، وَمِنْ دُمْيَاطَ إِلَىٰ قِنَا وَالأُقْصُرَ وَأَسْنَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُخَاطِباً كَاتِبَهُ :

ـ أُدْنُ يَابْنَ جُزَيٍّ ، وَدَوِّنْ كُلَّ مَا يَأْتِي عَلَىٰ لِسَانِ الرَّحَّالَةِ الأَمِينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

ـ قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلاَيَ .

وَشَرَعَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي الحَدِيثِ فَقَالَ :

ـ خَرَجْتُ مِنْ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِنْ هَمِّي أَنْ أَزُورَ شَيْخاً صَالِحاً يُدْعَىٰ بِأَبِي عَبْدِ الله المُرْشِدِيِّ ، وَقَطَعْتُ إِلَيْهِ مُدُناً وَقُرىً حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ صَلاَةِ العَصْرِ ، وَلَمَّا دَخَلْتُ زَاوِيَتَهُ الخَاصَّةَ قَامَ فَعَانَقَنِي ، وَمَا لَبِثَ أَنْ قَدَّمَنِي لِصَلاَةِ العَصْرِ إِمَاماً ، وَفِي اللَّيْلِ دَلَّنِي إِلَىٰ سَطْحِ الزَّاوِيَةِ فَصَعَدْتُ السَّطْحَ فِي أَوَانِ الحَرِّ ، فَوَجَدْتُ بِهِ حَصِيراً ، وَآنِيَةً لِلْوُضُوءِ ، وَجَرَّةَ مَاءٍ ، وَقَدَحاً لِلشُّرْبِ ، فَنِمْتُ هُنَالِكَ . وَلَيْلَتَهَا رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ

كَأَنِّي عَلَىٰ جَنَاحِ طَائِرٍ عَظِيمٍ يَطِيرُ بِي بِاتِّجَاهِ القِبْلَةِ حَتَّىٰ نَزَلَ فِي أَرْضٍ مُظْلِمَةٍ خَضْرَاءَ فَعَجِبْتُ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ كَاشَفَنِي الشَّيْخُ المُرْشِدِيُّ بِرُؤْيَايَ فَهُوَ كَما يُحْكَىٰ عَنْهُ مِنْ أَرْبَابِ التُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ وَالكَرَامَاتِ .

وَلَمَّا غَدَوْتُ لِصَلاةِ الصُّبْحِ عَادَ وَقَدَّمَنِي إِمَاماً ، وَبَعْدَ أَنْ انْفَضَّ المُصَلُّونَ ، كَاشَفَنِي بِرُؤْيَايَ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ مَعِي فِي الحُلُمِ ،

فَلَمَّا اسْتَفْسَرْتُهُ الرُّؤْيَا قَالَ لِي : سَوْفَ تَحُجُّ وَتَزُورُ النَّبِيَّ وَتَجُولُ فِي بِلَادِ اليَمَنِ وَالعِرَاقِ وَالتُّرْكِ ، وَتَبْقَىٰ بِهَا مَدَّةً طَوِيلَةً ثُمَّ زَوَّدَنِي كُعَيْكَاتٍ وَدَرَاهِمَ وَانْصَرَفْتُ ، وَمُنْذُ فَارَقْتُهُ لَمْ أَلْقَ فِي أَسْفَارِي إِلاَّ خَيْراً :

تَجَاوَزْتُ مِنَ البُلْدَانِ المَحَلَّةَ الكَبِيرَةَ وَالبَرُلُّسَ وَتَنِّيسَ .

وَقَدْ حَدَّثُونِي فِي البَرُلُّسِ وَهُوَ مِينَاءٌ كَبِيرٌ يَقَعُ عَلَىٰ البَحْرِ ، عَنْ كَرَامَةِ رَجُلٍ صَالِحٍ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْرِقاً فِي صَلَاتِهِ بَعْدَ أَنْ أَسْبَغَ الوُضُوءَ وَالطَّهَارَةَ فَسَمِعَ مِنْ خَلْفِهِ قَائِلاً يَقُولُ شِعْراً يُثْنِي فِيهِ عَلَىٰ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ وَيُشِيدُ بِفَضْلِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ عَلَىٰ شَكْلِ أَوْرَادٍ يَلْتَزِمُهَا القَارِئُ التَّقِيُّ ،

وَيُحَذِّرُ مِنْ مَغَبَّةِ المَعْصِيَةِ ، وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِ الله ، عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ رَاوِي الحَدِيثِ : فَلَمَّا التَفَتَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَعْدَ التَّسْلِيمِ يَمِيناً وَيَسَاراً ، لَمْ يَجِدْ أَحَداً وَرَاءَهُ فَعَلِمَ أَنَّ الصَّوْتَ صَوْتٌ زَاجِرٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العَالَمِينَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُعْتَذِراً إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِيِّ الفَاسِيِّ :

ـ لَعَلِّيَ يَا مَوْلَايَ قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ فَأَمْلَلْتُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَمَنْ قَالَ لَكَ هَذَا ؟ زِدْنِي مِنْ أَخْبَارِ الصَّالِحِينَ التُّقَاةِ ، وَعَجَائِبِهِم وَكَرَامَاتِهِمُ التِي أَسْبَغَهَا عَلَيْهِم رَبُّ العَالَمِينَ مِنْ فَضْلِهِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنِّي مُسْمِعُكَ حِكَايَةً هِيَ مِنْ عَجَائِبِ الكَرَامَاتِ التِي وَرَدَتْ عَنِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ ، وَقَدْ سَمِعْتُهَا فِي زَاوِيَتِهِ بِمَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، حَيْثُ الطَّائِفَةُ المُقْتَدِيَةُ بِهِ فِي حَلْقِ اللِّحَىٰ وَالحَوَاجِبِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ الفَاسِيُّ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ بِلاَ ضَنٍّ وَلاَ تَحَرُّجٍ ، وَعَلَىٰ ابْنِ جُزَيٍّ أَنْ يُدَوِّنَ مَا تَقُولُهُ لِيَبْقَىٰ الخَطُّ مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ دَرْساً مِنْ دُرُوسِ الفَضِيلَةِ لِلأَجْيَالِ الوَارِثَةِ . .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ :

أَنَا لَنْ أُقَصِّرَ فِي تَدْوِينِ مَا أَسْمَعُ بِإِذْنِ الله ، وَإِنْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْ أَخِي ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَتَرَوَّىٰ قَلِيلاً حَتَّىٰ أَعِيَ مَا أَكْتُبُ ، وَيَنْزِلَ مِنْ نَفْسِي ، مَنْزِلَتَهُ مِنْ نَفْسِ السَّامِعِ المُسْتَمِتعِ المُسْتَفِيدِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

سَافَرْتُ فِي أَرْضٍ رَمِلَةٍ إِلَىٰ مَدِينَةِ دُمْيَاطَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ فَسِيحَةُ الأَقْطَارِ ، مُتَنَوِّعَةُ الثِّمَارِ ، عَجِيبَةُ التَّرْتِيبِ ، آخِذَةٌ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ بِنَصِيبٍ . وَقَدْ بَدَتْ غَضَّةَ الإِهَابِ مُجَدَّدَةَ الشَّبَابِ ، فَبُنِيَتْ بِنَاءً حَدِيثاً بَعْدَ أَنْ خَرَّبَهَا الإِفْرَنْجُ فِي زَمَنِ المَلِكِ الصَّالِحِ ، فِي حَمْلَةٍ ظَالِمَةٍ غَاشِمَةٍ ، وَبِعُدْوَانِهَا آثِمَةٍ .

وَقَدْ قَصَدْتُ مُنْذُ وُصُولِي إِلَىٰ دُمْيَاطَ إِلَىٰ زَاوِيَةِ الشَّيْخِ التَّقِيِّ النَّقِيِّ

جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ رَحِمَهُ الله ، وَقَدْ أَقَامَ فِيهَا الشَّيْخُ فَتْحٌ التَّكْرُورِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ تَلَامِذَتِهِ وَمُرِيدِيهِ وَقَدْ دَأَبُو عَلَىٰ حَلْقِ لِحَاهِمْ وَحَوَاجِبِهِمْ أُسْوَةً بِشَيْخِهِمُ العَفِيفِ جَمَالِ الدِّينِ . وَاقْتِدَاءً بِهِ فِي طَلَبِ العِصْمَةِ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ وَمَعَاصِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا المُذِلَّةِ .

وَحِينَ اسْتَخْبَرْتُ خَبَرَ أُسْتَاذِهِمُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ حَدَّثُونِي بِالسَّبَبِ الدَّاعِي لَهُ إِلَىٰ حَلْقِ لِحْيَتِهِ وَحَاجِبَيْهِ ، فَوَقَفْتُ مِنْ خَبَرِهِ عَلَىٰ أَمْرٍ عَجَبٍ ، لَمْ أَشْهَدْ لَهُ نَظِيراً إِلاَّ عِنْدَ الأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ وَالتُّقَاةِ المُقَرَّبِينَ إِلَىٰ مَوْلاَهُمْ رَبِّ العَالَمِينَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ .

قَالُوا عَنِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِي الدُّمْيَاطِيِّ :

إِنَّهُ كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ ، حَسَنَ الوَجْهِ ، مُعْتَدِلَ القَوَامِ وَقَدْ عَلِقتْ بِهِ امْرَأَةٌ مِنْ مَعَارِفِهِ ، أَصْلُهَا مِنْ أَهْلِ سَاوَةَ وَسَاوَةُ بَلْدَةٌ كَانَتْ مَسْقطَ رَأْسِ الشَّيْخِ وَمُنْتَمَاهُ ، وَإِلَيْهَا نُسِبَ فَدُعِيَ بِالسَّاوِيِّ .

حَدَّثُوا عَنْ تِلْكَ المَرْأَةِ التِي أَصَابَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ مَسٌّ وَنَزْغٌ نَزَغَهُ فِي

رأْسِهَا فَإِذَا بِهَا مُطِيعَةٌ لِهَوَاهَا فِي المَعْصِيَةِ وَرُكُوبِ المُحَرَّمِ . . حَدَّثُوا بِأَنَّهَا كَانَتْ تُرْسِلُ مَرَاسِيلَهَا إِلَىٰ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ وَتَعْتَرِضُ سَبِيلَهُ فِي الطُّرُقَاتِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَىٰ نَفْسِهَا لِيُصِيبَ مِنْهَا لَذَّتَهُ ، فَتُحَقِّقَ مُرَادَهَا مِنْهُ وَلَذَّاتِهَا عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي ، وَكَمَا زَيَّنَتْ لَهَا نَفْسُهَا الأَمَّارَةُ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ حَدِيثَ ابْنِ بَطُّوطَةَ مُعَلِّقاً عَلَىٰ مَا سَمِعَ ، نَاظِراً فِي وَجْهِ كَاتِبِهِ بْنِ جُزِّيٍّ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ صَدَقَتْ شَهَادَةُ رَبِّ العَالَمِينَ فِي نِسَاءِ البَشَرِ مِنْ بَنَاتِ حَوّاءَ حِينَ قَالَ عَنْهُنَّ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وَمَا أَشْبَهَ صَاحِبَةَ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ ، بِصَاحِبَةِ يُوسُفَ ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، حِينَ أَطْلَقَتْ لِغِوَايَتِهَا عِنَانَهَا ، وَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ وَقَدْ وَضَعَ رِيشَةَ الكِتَابَةِ إِلَىٰ جَانِبِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ :

ـ حَقاً . . إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ . .

والتَفَتَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ إِلَىٰ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً بِنَفَاذِ صَبْرٍ وَتَشَوُّقٍ مَلْهُوفٍ :

ـ وَافِنَا يَا أَبَا عَبْدِ الله بِبَقِيَّةِ الحَدِيثِ وَعَجِّلْ عَلَيْنَابِهِ .

قَالَ ابْنُ بَطّوطَةَ شَمْسُ الدِّينِ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ :

ـ بَلَغَنِي أَيُّهَا السُّلْطَانُ الجَلِيلُ أَنَّ المَرْأَةَ المَاكِرَةَ التِي رَاوَدَتِ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ عَنْ نَفْسِهِ ، حِينَ أَشْجَاهَا تَمَنُّعُهُ وَأَعْيَاهَا أَمْرُهُ ، زَادَتْ عَلَىٰ إِيقَاعِهِ فِي جَبَائِلِهَا إِصْرَاراً ، وَفَكَّرَتْ لِلْخُرُوجِ مِنْ مِحْنَتِهَا لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَأَطْلَعَتْ عَلَىٰ مَأْرَبِهَا الخَفِيِّ عَجُوزاً شَمْطَاءَ كَانَتْ دَاهِيَةً فِي النِّسَاءِ ، فَقَالَتْ لَهَا : هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا مَوْلاَتِي ، أَنَا لَكِ بِهِ ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهَا بِخِطَّةٍ زَعَمَتْ أَنَّهَا سَتُفْقِدُ الشَّيْخَ عِصْمَتَهُ ، وَتُضِلُّهُ عَنْ رَشَادِهِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ : بَلَغَنِي يَا مَوْلاَيَ أَنَّ المَرْأَةَ العَجُوزَ تَصَدَّتْ لِلشَّيْخِ بَعْدَ كُمُونِهَا إِلَىٰ جَانِبِ دَارِهِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ اعْتَرَضَتْ سَبِيلَهُ وَبِيَدِهَا كِتَابٌ مَخْتُومٌ وَقَالَتْ لَهُ مُتَمَلِّسَةً مُسْتَأْنِسَةً .

ـ السَّلاَمُ عَلَيْك أَيُّهَا الشَّيْخُ الفَاضِلُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ . . وَمَا كَادَ الشَّيْخُ يَرُدُّ عَلَىٰ سَلاَمِهَا بِسَلاَمٍ مِثْلِهِ حَتَّىٰ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ مُتَضَرِّعَةً مُسْتَرْحِمَةً وَهِيَ تَقُولُ :

ـ لاَ شَكَّ يَا سَيِّدِي أَنَّكَ تُحْسِنُ القِرَاءَةَ . .

قَالَ الشَّيْخُ :

ـ بَلَىٰ ، فَمَا خَطْبُكِ ؟

قَالَت العَجُوزُ :

ـ نَجَّاكَ الله مِنْ كُلِّ خَطْبٍ . اعْلَمْ يَا سَيِّدِي أَنَّ وَلَدِي مُسَافِرٌ وَقَدْ وَجَّهَ إِلَيَّ هَذَا الكِتَابَ ، وَرَجَائِي إِلَيْكَ أَنْ تَقْرَأَهُ عَلَيَّ عَسَىٰ لِلأُمِّ أَنْ تَسْتَرْوِحَ رَائِحَةَ الوَلَدِ . .

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ :

ـ لَكِ ذَلِكَ يَا أُخْتَاهُ ، حُبّاً وَكَرَامَةً .

فَلَمَّا فَتَحَ الكِتَابَ وَهَمَّ بِقِرَاءَتِهِ ، قَالَتِ العَجُوزُ المُحْتَالَةُ :

ـ يَا سَيِّدِي الكَرِيمَ الفَاضِلَ ، إِنَّ لِوَلَدِي صَاحِبِ الكِتَابِ امْرَأَةً خَشِيْتُ عَلَيْهَا الخُرُوجَ إِلَىٰ الزُّقَاقِ ، وَأَلْزَمْتُهَا حِجَالَهَا ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُسْمِعَهَا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ زَوْجِهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ !

تَقَدَّمَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ وَبِيَدِهِ الكِتَابُ إِلَىٰ أَنْ وَلَجَ مَعَ العَجُوزِ بَابَ

الدّارِ . وَكَانَ خَلْفَ البَابِ بَابٌ آخَرُ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَ بَيْنَ البَابَيْنِ أَغْلَقَتِ العَجُوزُ أَوَّلَ البَابَيْنِ بِإِحْكَامٍ ، وَخَرَجَتْ مِنَ البَابِ الدَّاخِلِيِّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الجَوَارِي الشَّابَّاتِ البَادِيَاتِ العَافِيَةَ ، وَمَا لَبِثْنَ أَنْ تَعَلَّقْنَ بِالشَّيْخِ وَأَدْخَلْنَهُ إِلَىٰ دَاخِلِ الدَّارِ ، وَخَرَجَتْ سَيِّدَتُهُنَّ المَرْأَةُ العَاشِقَةُ المُسْتَهَامَةُ تَقُولُ مَقُولَةَ زَلِيخَةَ لِيُوسُفَ : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ وَقَدْ غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ مِنْ دُونِهِ .

وَرَاوَدَتْهُ المَرْأَةُ المَاكِرَةُ عَنْ نَفْسِهِ بِصَرِيحِ القَوْلِ وَالعِبَارَةِ . فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لاَ مَنَاصَ وَلاَ خَلاَصَ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ تَظَاهَرَ بِالمُوَافَقَةِ وَالرِّضَىٰ وَقَالَ لِصَائِدَتِهِ المَاثِلَةِ أَمَامَهُ :

ـ هَلْ لِي قَبْلَ أَنْ نَتَوَاصَلَ ، بِالدُّخُولِ إِلَىٰ الخَلاَءِ ؟ خَلَّتِ المَرْأَةُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَاجَتِهِ ، وَدَلَّتْهُ عَلَىٰ بَيْتِ الخَلاَءِ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ بَعْضُ المَاءِ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ مُوسٌ جَدِيدَةٌ ، فَحَلَقَ لِحْيَتَهُ وَحَاجِبَيْهِ ، وَخَرَجَ عَلَىٰ المَرْأَةِ المُرَاوِدَةِ ، فَصَعَقَهَا بِمَا تَغَيَّرَ مِنْ مَنْظَرِهِ وَاسْتَقْبَحَتْ هَيْئَتَهُ ، وَاسْتَنْكَرَتْ فِعْلَهُ ، وَسَارَعَتْ لأَمْرِ جَوَارِيهَا بِإِخْرَاجِهِ فَقَذَفْنَ بِهِ خَارِجَ الدَّارِ ، فِي مَوْجَةٍ مِنَ الضّحِكِ وَالشَّتَائِمِ القَبِيحَةِ . وَسُرَّ الشَّيْخُ جَمَالُ

الدِّينِ فِي دَاخِلِهِ ، لأَنَّ الله قَدْ عَصَمَهُ مِنَ المَعْصِيَةِ ، وَخَذَلَ بِهِ الشَّيْطَانَ وَحِزْبَهُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي شَهِدَ الله بِأَنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ . وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ مِنَ الإِنْشِرَاحِ لِطَرَافَةِ مَا سَمِعَ :

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ . . لاَ فُضَّ فُوكَ . . هَذِهِ قِصَّةٌ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ ، وَصَدِّقْ أَنَّنِي لَنْ أَحْرِمَكَ مِنَ المَكَافَأَةِ عَلَىٰ حِفْظِهَا وَرِوَايَتِهَا . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا فِي طَاعَةِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ وَخِدْمَتِهِ ، وَحَسْبِي مِنَ المُكَافَأَةِ مَا وَجَدْتُهُ مِنَ الإِصْغَاءِ فِي أَوَّلِهَا ، وَمِنَ الثَّنَاءِ فِي آخِرِهَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ . . وَلَكِنْ بِالله عَلَيْكَ ، أَعِنْدَكَ خَبَرٌ بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ مَصِيرُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ ؟

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ المُحَدِّثُ بِالعَجَائِبِ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ يُذْكَرُ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَان أَنَّ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ بَعْدَمَا جَرَىٰ لَهُ مَا جَرَىٰ مَعَ المَرْأَةِ الخَبِيثَةِ المَاكِرَة ، قَدْ تَرَكَ الإقَامَةَ فِي بَلَدِهِ سَاوَةَ ، وَجَاءَ إلَىٰ دِمْيَاطَ ، وَلَزِمَ فِيهَا المَقْبَرَةَ يَتَهَجَّدُ وَيَتَعَبَّدُ وَيَعْتَبِرُ بِالمَوْتِ وَالأَمْوَاتِ ، وَكَانَ يَتَقَوَّتُ بِالقَلِيلِ القَلِيل مِنَ الزَّادِ وَالمَاءِ . وَذَاتَ يَوْمٍ جِيءَ إلَىٰ المَقْبَرَةِ بِجَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَعْيَانِ وَكَانَ فِي المُشَيِّعِينَ قَاضِي المَدِينَةِ وَكَانَ فِي زَهْوٍ وَاعْتِدَادٍ بِالنَّفْسِ ، فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ السَاوِيَّ فِي ظَاهِرِ المَقْبَرَةِ ، لَمْ يُعْجِبْهُ مَنْظَرُهُ لَمَّا بَدَا فِيهِ مِنَ التَنَسُّكِ وَالثَّوْبِ الوَضِيعِ وَالوَجْهِ الذَّابِلِ وَاللِّحْيَةِ الحَلِيقَةِ . وَلَمْ يُخْفِ اسْتِخْفَافُهُ بِالشَّيْخِ صَاحِبِ العِفَّةِ وَالنَزَاهَةِ وَالنُّسُكِ ، فَقَالَ لَهُ مُتَجَاهِلاً قَدْرَهُ :

ـ أَنْتَ هُوَ الشَّيْخُ المُبْتَدِعُ ؟ !

فَرَدَّ الشَّيْخُ عَلَىٰ سَائِلِهِ المُسْتَخِفِّ بِاتِّهَامٍ هُوَ مِنَ الحَرَامِ المُسْتَنْكَرِ :

ـ وَأَنْتَ هُوَ القَاضِي الجَاهِلُ الذِي يَمُرُّ بِدَابَّتِهِ بَيْنَ القُبُورِ ، وَكَأَنَّهُ لاَ يَدْرِي أَنَّ حُرْمَةَ الإنْسَانِ مَيْتاً كَحُرْمَتِهِ حَيّاً ؟ !

فَقَالَ القَاضِي المُتَطَاوِلُ معَرِّضاً بِالكَلاَمِ مُتَهَكِّماً

ـ وَمَاذَا عَنْ حَلْقِكَ لِلِحْيَتِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ المُتَّقِي ؟ !

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ السَّاوِيُّ :

ـ إِيَّايَ تَعْنِي ؟ !

وَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ الزَّاهِدِ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ إِلاَّ أَنْ زَعَقَ زَعْقَةً ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا هُوَ ذُو لِحْيَةٍ سَوْدَاءَ عَظِيمَةٍ .

فَذُهِلَ القَاضِي الفُضُولِيُّ بِمَا رَأَىٰ ، وَتَعَجَّبَ غَايَةَ العَجَبِ وَتَرَجَّلَ عَنْ دَابَّتِهِ . وَزَعَقَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّين زَعْقَةً ثَانِيَةً ، فَإِذَا هُوَ ذُو لِحْيَةٍ بَيْضَاءَ مُشْرِقَةِ الحُسْنِ ، ثُمَّ زَعَقَ زَعْقَةً ثَالِثَةً فَإِذَا هُوَ بِلاَ لِحْيَةٍ كَهَيْئَتِهِ الأُولَىٰ .

انْحَنَىٰ القَاضِي عَلَىٰ يَدِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ فَقَبَّلَهَا مُعْتَرِفاً بِفَضْلِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ تِلْمِيذاً مُطِيعاً لِلشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ مَدَىٰ حَيَاتِهِ . .

وَجَهِدَ القَاضِي إِبَّانَ حَيَاتِهِ وَمَنْصِبِهِ فِي القَضَاءِ لِيَكُونَ عَادِلاً رَحِيماً مُتَوَاضِعاً لِلْحَقِّ وَالدِّينِ ، وَبَنَىٰ لأُسْتَاذِهِ النَّاسِكِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّاوِيِّ زَاوِيَةً حَسَنَةً .

وَقَدْ جَرَىٰ فِي عِلْمِي أَنَّ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ رَحِمَهُ الله قَدْ دُفِنَ لَدَىٰ

مَمَاتِهِ فِي تِلْكَ الزَّاوِيَةِ ، وَأَنَّ قَاضِيَ دِمْيَاطَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَدْأَوْصَىٰ أَنْ يُدْفَنَ بِبَابِ الزَّاوِيَةِ ، وَكَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ مَاضِيهِ بِوَطءِ القُبُورِ بِدَابَّتِهِ بِأَنْ يَسْمَحَ لِكُلِّ زَائِرٍ لِلزَّاوِيَةِ وَضَرِيحِهَا حَيْثُ يَرْقُدُ شَيْخُهُ الجَلِيلُ المُكَرَّمُ ، يَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يطَأَ قَبْرَهُ تَوَاضُعاً للهِ وَعِبَادِهِ أَجْمَعِينَ . .

وَلاَ يَزَالُ مَزَارُ الشَّيْخِ التَّقِيِّ المُلْتَحِي بِلِحْيَةٍ مِنَ النُّورِ وَالرِّضَىٰ الإِلَهِيِّ مَزَاراً ظَاهِرَ البَرَكَةِ يَقْصِدُهُ أَهْلُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَهُ أَيَّامٌ فِي السَّنَةِ مَعْلُومَةٌ لِذَلِكَ . .

أَمَّا نُزُولِي أَيَّامَ إِقَامَتِي بِدِمْيَاطَ فَقَدْ كَانَ بِمَدْرَسَةٍ عَلَىٰ شَاطِئِ النِّيلِ بَنَاهَا القَاضِي المُحْسِنِيُّ ، وَلَقِيتُهُ فِيهَا فَعَامَلَنِي بِالمَوَدَّةِ وَالإِحْسَانِ كَإِحْسَانِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ حَفِظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ . .

هَنَا انْتَهَتْ حِكَايَةُ التَّقِيُّ المُلْتَحِي ، وَتَلِيهَا حِكَايَةُ المِنْبَرِ الوَفِيِّ مِنْ عَجَائِبِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

المجموعة التاريخية للصغار

عجائب رحلة ابن بطوطة

المنبرُ الوفيُّ

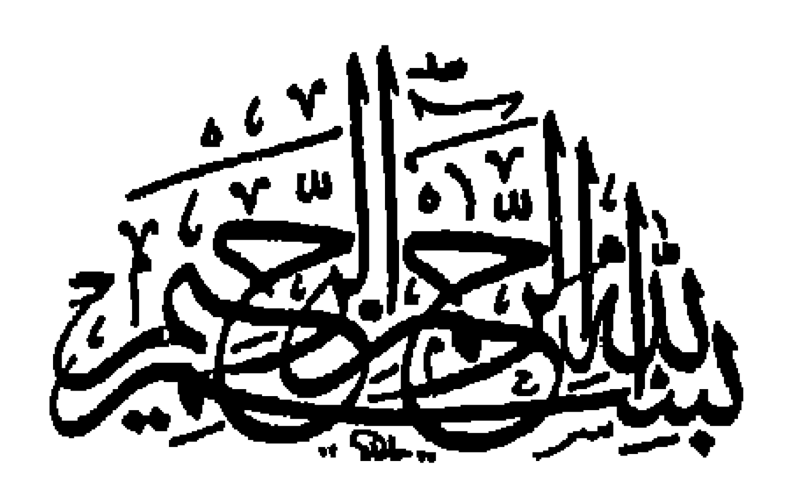


إعداد

عبد القادر محمد مايو

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المنبَرُ الوَفِيُّ

جَلَسَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ المَرِينِيُّ عَلَىٰ عَرْشِهِ المَتَمَكِّنِ فِي قَاعَةِ الحَوْشِ مِنْ قَصْرِهِ بِمَدِينَةِ فَاسٍ المَغْرِبِيَّةِ ، وَطَلَبَ إِلَىٰ صَاحِبِهِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ كُلاًّ مِنَ الرَّحَالَةِ أَبِي عَبْدِ الله مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ الطَّنْجِيِّ ، وَالكَاتِبِ الظَّرِيفِ البَارِعِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ الكَلْبِي وَقَدْ خَصَّهُمَا بِمَا تَبَقَّىٰ مِنْ لَيْلَتِهِ لِلمُنَادَمَةِ وَالسَّمَرِ ، وَاسْتِطْلَاعِ أَخْبَارِ رِحْلَةِ ابْنِ بَطّوطَةَ وَعَجَائِبِهَا لِتَدْوِينِهَا فِي سِجِلٍّ خَالِدٍ يَبْقَىٰ فِي ذَاكِرَةِ الأَجْيَالِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ بَطّوطَةَ أَلْقَىٰ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ الإِسْلَامِ ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ ، وَدَعَا لَهُ بِدَوَامِ العِزِّ وَالتَأْيِيدِ ، فَأَوْمَأَ لَهُ السُّلْطَانُ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ فِي القَاعَةِ الكَبِيرَةِ .

فَلَمَّا أُذِنَ لِلكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ أَدَّىٰ وَاجِبَ التَّحِيَّةِ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّعْظِيمِ لِلسُّلْطَانِ وَاتَّخَذَ مَجْلِسَهُ فِي مُقَابِلِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ بِالرِّيشَةِ

وَالمِحْبَرَةِ وَالقِرْطَاسِ لِيُدَوِّنَ جَمِيعَ مَا يَقُولُ بِسُرْعَةٍ وَبَرَاعَةٍ وَحِذْقٍ قَلَّ نَظِيرُهَا .

وَبِإِشَارَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بَدَأَ الرَّحَّالَةُ سَرْدَ عَجَائِبِهِ الطَّرِيفَةِ قَائِلاً :

ـ كَانَ سُلْطَانَ مِصْرَ عَلَىٰ عَهْدِ دُخُولِي إِلَيْهَا المَلِكُ النَّاصِرُ أَبُو الفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ المَلِكِ المَنْصُورِ سَيْفِ الدِّينِ قَلاَوُونَ الصَّالِحِيِّ . وَلِلمَلِكِ المَنْصُورِ ـ رَحِمَهُ الله ـ السِّيرَةُ الكَرِيمَةُ ، وَالفَضَائِلُ العَظِيمَةُ ، وَكَفَاهُ شَرَفاً اهْتِمَامُهُ بِخِدْمَةِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْن ، وَعَوْنُهُ الكَبِيرُ لِلحَجِيجِ فِي دَرْبَيْ مِصْرَ وَالشَّامِ ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ النَّاصِرَ رُغْمَ أَفْضَالِهِ السَّابِقَةِ هُوَ بَعْضٌ مِنْ كُلٍّ مِنْ مَكَارِمِ مَوْلاَيَ أَبِي عِنَانٍ وَفَضَائِلِهِ ، وَلاَبُدَّ لِلمُنْصِفِ أَنْ يَشْهَدَ بِالفَضْلِ لِصَاحِبِهِ وَلَنْ أَكُونَ مُبَالِغاً إِذَا سَمَّيْتُ مِصْرَ قَبْلَ المَلِكِ النَّاصِرِ وَبَعْدَهُ بِأُمِّ العَجَائِبِ ، بَلْ هِيَ أُمُّ الدُّنْيَا فَدَعْنِي بِإِذْنِكَ يَا مَوْلاَيَ أَتَعَرَّضُ بِالذِّكْرِ لِبَعْضِ مَا طَالَعْتُهُ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ البُنْيَانِ وَالخَيْرَاتِ الحِسَانِ .

فِي مِصْرَ المَحْرُوسَةِ مَسْجِدُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ، وَبِشَرْقِهِ زَاوِيَةٌ دَرَّسَ فِيهَا الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ . أَمَّا مَدَارِسُهَا فَلاَ يُحِيطُ أَحَدٌ بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا ، وَكَذَلِكَ الزَّوَايَا لِلفُقَرَاءِ المُتَعَبِّدِينَ وَيُسَمُّونَهَا الخَوانِقَ يَعْمُرُهَا أَهْلُ أَدَبٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ التَّصَوُّفِ .

وَلِمِصْرَ القَرَافَةُ العَظِيمَةُ الشَّأْنِ فِي التَبَرُّكِ بِهَا ، وَهِيَ مِنَ جُمْلَةِ جَبَلِ المُقَطَّمِ الذِي وَعَدَ اللهُ أَنْ يَكُونَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ ، وَفِيهَا قِبَابٌ وَمَزَارَاتٌ شَرِيفَةٌ ، أَحَدُهَا لِرَأْسِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السّلاَمُ ، وَمِنْهَا تُرْبَةُ الإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقَدْ شُيِّدَتْ فَوْقَهَا قُبَّةٌ بَدِيعَةُ الإِتْقَانِ مُفْرِطَةُ السُّمُوِّ ، سِعَتُهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلاَثِينَ ذِرَاعاً ، وَبِقَرَافَةِ مِصْرَ مِنْ قُبُورِ العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَا لاَ يَضْبِطُهُ الحَصْرُ .

وَنَهْرُ النِّيلِ فِي مِصْرَ يَفْضُلُ أَنْهَارَ الأَرْضِ عُذُوبَةً وَمَذَاقاً وَاتِّسَاعاً ، حَتَّىٰ سُمِّيَ بِالبَحْرِ ، وَلِفَيَضَانِهِ مَوْسِمٌ فِي حَزِيرَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ مِمَّا يَجْلِبُ الخَيْرَ وَالبَرَكَةَ لأَهْلِ مِصْرَ كُلِّهَا بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَهَّابُ المَنَّانُ سُبْحَانَهُ .

وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرَ المَذْكُورَةِ عَلَىٰ مَرِّ الدُّهُورِ الأَهْرَامُ وَالمَعَابِدُ الفِرْعَوْنِيَّةُ القَدِيمَةُ ، وَالأَهْرَامُ بِنَاءٌ بِالحَجَرِ الصَّلْدِ مُتَّسِعُ الأَسْفَلِ ضَيِّقُ الأَعْلَىٰ اتُّخِذَ مُسْتَوْدَعاً لِلعُلُومِ وَجُثَثِ المُلُوكِ ، وَعَزَّ نَقْضُ بُنْيَانِهِ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ حَتَّىٰ أَعْيَا ذَلِكَ جُهُودَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدِ الله المَأْمُونِ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ مُحَاوَلَتِهِ إِلاَّ بِالعَجَبِ مِنْ صَلاَدَتِهِ وَمِمَّاكَتَبَهُ الله لَهُ مِنَ البَقَاءِ عَلَىٰ وَجْهِ المَعْمُورَةِ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِيِّ الفَاسِيِّ :

ـ حِلْمَكَ يَا مَوْلاَيَ ، وَلاَ تُؤَاخِذْنِي عَلَىٰ الإِطَالَةِ وَالإِمْلاَلِ فَإِنِّي أَعِدُكَ بِأَنْ أُسْمِعَكَ بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ فِيمَا يَلِي مِنْ حَدِيثِي إِلَيْكَ لِيَكُونَ آخِرُ حَدِيثِي أَطْرَفَهُ وَأَكْثَرَهُ تَسْلِيَةً وَإِمْتَاعاً ، وَلَقَدْ ادَّخَرْتُ لَكَ قِصَّةً مِنْ أَعْجَبِ القِصَصِ أَطْلَعَنِي عَلَيْهَا بَعْضُ أَهْلِ مَنْفَلُوطَ وَهِيَ مِنْ مُدُنِ صَعِيدِ مِصْرَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ دُونَكَ وَمَا اعْتَزَمْتَ عَلَيْهِ ، فَأَنْتَ غَزِيرُ الإِلْمَامِ وَالاسْتِفَاضَةِ ، مُمْتِعُ الحَدِيثِ ، وَلَكِنْ رِفْقاً بِصَاحِبِكَ الكَاتِبِ ابْنِ جُزَّيٍّ فَهُوَ يَسُوقُ رِيشَتَهُ عَلَىٰ

القِرْطَاسِ سَوْقَ الحَرُونِ ، إلاَّ إِذَا رَحِمْتُهُ وَلَم تُعَجِّلْ فِي الرِّوَايَةِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ طَيِّبُ النَّفْسِ بِكَ وَبِأَخِي ابْنِ جُزِّيٍّ ، وَأَرْجُو أَنْ يَخُفَّ مَحْمَلِي عَلَىٰ سمَعَيْكُمَا ، وَعَلَىٰ الأَنَامِلِ القَابِضَةِ عَلَىٰ الرِّيشَةِ سَلَّمَهَا الله .

ابْتَسَمَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ ابْتِسَامَةً تَعْنِي الشُّكْرَ لِحَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ اللَّطِيفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَىٰ الرَّاوِيَةِ البَطُّوطِيِّ أَنِ اسْتَمِرَّ فِي حَدِيثِكَ ، وَأَنَا كَفِيلٌ بِاخْتِزَالِهِ وَتَدْوِينِهِ ، وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَاثِقاً مِنْ جَاذِبِيَّةِ حَدِيثِهِ :

ـ لَعَلَّ مِنْ أَجْمَلِ أَيَّامِ مِصْرَ ، وَأَخَصِّ مُنَاسَبَاتِهَا بِالاهْتِمَامِ يَوْمَ المَحْمَلِ ، وَهُوَاليَوْمُ الذِي يَتَوَجَّهُ فِيهِ مَوْكِبُ الحَجِّ إِلَىٰ الحِجَازِ . . وَيَدُورُ فِيهِ الجَمَلُ وَيَتْبَعُهُ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ القُضَاةُ الأَرْبَعَةُ ، المَالِكِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالحَنَفِيُّ وَالحَنْبَلِيُّ عَلَىٰ جِمَالِهِم ، وَيَتْبَعُهُم أَعْلاَمُ الفُقَهَاءِ ، وَأُمَنَاءُ الرُؤَسَاء وَأَرْبَابُ الدَّوْلَة ، وَيَقْصِدُونَ جَمِيعاً بَابَ القَلْعَةِ ، دَارِ المَلِكِ النَّاصِرِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمُ المَحْمَلُ عَلَىٰ جَمَلٍ وَأَمَامَهُ المُعَيَّنُ لِلسَّفَرِ

بِالمَحْمَلِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، وَمَعَهُ عَسْكَرُهُ وَالسَّقَّاؤُونَ عَلَىٰ جِمَالِهِم ، وَيَجْتَمِعُ حَوْلَ المَوْكِبِ أَصْنَافٌ مِنَ النَّاسِ ، رِجَالِهِم وَنِسَائِهِم ثُمَّ يَطُوفُونَ بِالمَحْمَلِ . وَهَذَا مَاتَشْهَدُهُ مَدِينَةُ القَاهِرَةِ وَمصْرَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ كُلِّ عَامٍ ، فَإِذَا بِعَزَائِمِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ تَنْشَطُ إِلَىٰ الحَجِّ ، وَيَأْخُذُ المُعْتَزِمُونَ فِي التَأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ .

كَانَ سَفَرِي مِنْ مِصْرَ عَلَىٰ طَرِيقِ الصَّعِيدِ ، قَاصِداً الحِجَازَ الشَّرِيفَ ، وَقَدْ طَالَعَتْنِي رُؤْيَةُ مُدُنٍ وَبُلْدَانَ عَلَىٰ سَاحِلِ النِّيلِ مِنْهَا مِنْيَةُ القَائِدِ ، وَبُوش ، وَدَلَاص ، وَببا . وَمِنْ ببا سَافَرْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ البَهْنَسَا ، وَهِي مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ كَثِيرَةُ البَسَاتِينِ ، تُصْنَعُ فِيهَا الثِّيَابُ الصُّوفِيَّةُ مِنْ أَجْوَدِ الأَنْوَاعِ . وَمِنْهَا سَافَرْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ مِنْيَةَ ابْنِ خَصِيبٍ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ مُتَّسِعَةُ المِسَاحَةِ تَقَعُ عَلَىٰ شَاطِىءِ النِّيلِ ، وَتَفْضُلُ غَيْرَهَا مِنْ مُدُنِ صَعِيدِ مِصْرَ ، وَهِي هِبَةُ الخَلِيفَةِ العَبّاسِيِّ لِوَالِي مِصْرَ فِي أيّامِهِ ، وَهُوَ الذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ أَبُو نُواسٍ مَادِحاً :

أَنْتَ الخصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكِلَاكُمَا بَحْرُ

وَسَافَرْتُ مِنْ مِنْيَةِ ابْنِ خَصِيبٍ هَذِهِ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنْلَوِي ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ مَسَافَةِ مِيلَيْنِ مِنَ النِّيلِ وَبِهَا مَعَاصِرُ لِلسُّكَّرِ يَقْصِدُهَا الفُقَرَاءُ وَيَلُتُّونَ أَرْغِفَتَهُم بِالسُّكَّرِ المَطْبُوخِ لِيَأْتَدِمُوا بِهَا ، صَدَقَةً عَلَىٰ حِسَابِ أَصْحَابِهَا .

وَسَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ مَعَاصِرِ السُّكَّرِ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنفَلُوطَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ أَنِيقَةُ البِنَاءِ ، عَلَىٰ ضِفَّةِ النِّيلِ ، شَهِيرَةٌ بِبَرَكَاتِهَا ، وَمِنْ أَخْبَارِهَا العَجِيبَةِ حِكَايَةُ المِنْبَرِ الوَفِيِّ ، وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ مَاسَمِعْتُ فِي مِصْرَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَقَدْ اسْتَأْسَرَهُ الفُضُولُ لِمَعْرِفَةِ حِكَايَةِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ :

ـ هَاتِ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ وَأَنْجِزْ وَعْدَكَ بِإِطْرَافِنَا بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَتَجِدُنِي عِنْدَ وَعْدِيَ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ ، وَلَيْسَتْ مَسَرَّتِي إِلاَّ فِي أَنْ أَسُرَّكَ وأُمْتِعَكَ بِعَجَائِبِ الأَمْصَارِ وَغَرَائِبِ الأَسْفَارِ ، وَعَلَىٰ اللهِ الاتِّكَالُ ، وَالتَّوْفِيقُ لِمَنْ حَسُنَ مَقْصِدُهُ ، وَصَدَقَ إِخْلَاصُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ أَنْتَ لَهَا يَا أَبَا عَبْدِ الله . . . أَنْتَ لَهَا . . بَارَكَ الله فِيكَ .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

ـ وَفِيَّ أَيْضاً . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُقَهْقِهاً :

ـ وَفِيكَ أَيْضاً يَا بْنَ جُزِّيٍّ . .

وَاسْتَرْسَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي الحَدِيثِ قَائِلاً :

حِينَ وَصَلْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ مَنْفَلُوطَ أَقَمْتُ فِيهَا أَيَّاماً ، وَقَدْ حَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا بِحَدِيثِ أُعْجُوبَةِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ الذَي أَدَّىٰ الأَمَانَةَ لِصَانِعِهِ الفَتَىٰ خَيْرَ أَدَاءٍ ، وَكَأَنَّهَا كَرَامَةٌ لِهَذَا الفَتَىٰ الصَّالِحِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ .

وَالحِكَايَةُ وَمَا فِيهَا أَنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ مَلِكَ قَاهِرَةِ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ ـ رَحِمَهُ الله ـ أَمَرَ بِعَمَلِ مِنْبَرٍ عَظِيمٍ ، مُحْكَمِ الصَّنْعَةِ بَدِيعِ الإِنْشَاءِ ، مُتَّجِهاً فِي نِيَّتِهِ إِلَىٰ إِهْدَائِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الحَرَامِ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، شَرَّفَهَا الله وَعَظَّمَهَا وَمَسْجِدَهَا تَعْظِيماً .

وَقَدْ تَمَّ إِنْجَازُهُ مِنْ خَشَبِ السِّنْدِيَانِ وَالعُودِ الهِنْدِيِّ عَلَىٰ يَدَيْ صَانِعٍ مَاهِرٍ شَابٍّ ، مُنْحَدِرُهُ فِي الأَصْلِ مِنْ مَدِينَةِ مَنْفَلُوط ،ذَاتِ الكَرَامَاتِ وَالبَشَائِرِ . قَالُوا : فَلَمَّا أَنْجَزَهُ صَانِعُهُ كَانَ آيَةً ضَخْمَةً مِنْ آيَاتِ التَّفَنُّن وَالإِبْدَاعِ الجَمِيلِ . وَأَمَرَ المَلِكُ النَّاصِرُ أَنْ يُصْعَدَ بِالمِنْبَرِ عَلَىٰ مَرْكَبٍ فِي بَحْرِ النِّيلِ ، وَمِنْهُ إِلَىٰ بَحْرِ جُدَّةَ ، وَمِنْهَا إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حَيْثُ يُودَعُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ خِدْمَةً لِلبَيْتِ العَتِيقِ الذَي بَارَكَ الله حَوْلَهُ ، وَتَقَرُّباً إِلَىٰ الله جَلَّ وَعَلاَ .

فَلَمَّا حُمِلَ المِنْبَرُ عَلَىٰ المَرْكَبِ المُسَافِرِ اسْتَأْذَنَ الفَتَىٰ الصَانِعُ رُبَّانَهُ فِي تَوْدِيعِ المِنْبَرِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ مَدِينَتِهِ وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ (مَنْفَلُوطَ) .

وَشَاهَدَهُ الرُبَّانُ قَائِدُ المَرْكَبِ ، وَالبَحَّارَةُ وَهُوَ يَدْنُو مِنْهُ وَيُقَبِّلُهُ ، وَهُوَ يَهْمِسُ فِي يُمْنَاهُ بِكَلِمَاتٍ خَفِيَتْ عَلَىٰ الجَمِيعِ . وَمَا إِنْ نَزَلَ الفَتَىٰ إِلَىٰ البَرِّ حَتَّىٰ تَحَرَّكَ المَرْكَبُ فِي بَحْرِ النِّيلِ جَنُوباً بِاتِّجَاهِ مَنْفَلُوطَ .

قَالُوا : فَلَمَّاوَصَلَ المَرْكَبُ بِمَا يُقِلُّ إِلَىٰ مَنْفَلُوطَ ، وَحَاذَىٰ مَسْجِدَهَا الجَامِعَ ، وَقَفَ وَامْتَنَعَ مِنَ الجَرْيِ عَلَىٰ وَجْهِ المَاءِ رُغْمَ مُسَاعَدَةِ الرِّيحِ .

فَعَجِبَ قَائِدُ المَرْكَبِ وَمُسَاعِدُوهُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ العَجَبِ ، وَاحْتَالُوا فِي أَمْرِهِ بِتَغْيِيرِ اتِّجَاهِ الأَشْرِعَةِ وَتَخْفِيفِ بَعْضِ الأَحْمَالِ مِمَّا يُثْقِلُ المَرْكَبَ ، فَلَمْ يُجْدِ ذَلِكَ نَفْعاً ، وَأَقَامُوا عَلَىٰ حَيْرَتِهِم أَيَّاماً لاَ يَنْهَضُ بِهِمُ المَرْكَبُ ، فَلَمْ يَجِدُوا سَبِيلاً لِلتَّصَرُّفِ أَجْدَىٰ مِنَ الكِتَابَةِ إِلَىٰ المَلِكِ النَّاصِرِ .

فَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ بِتَوَقُّفِ المَرْكَبِ عِنْدَ مَسْجِدِ مَنْفَلُوطَ دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ غَايَتَهُ فِي إِيصَالِ المِنْبَرِ البَدِيعِ إِلَىٰ المَسْجِدِ الحَرَامِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَاءَهُ أَنْ يَحُولَ حَائِلٌ دُونَ إِبْلاَغِ قُرْبَانِهِ إِلَىٰ مَوْلاَهُ تَعَالَىٰ وَمَسْجِدِهِ وَبَيْتِهِ الحَرَامِ .

وَارْتَأَىٰ المَلِكُ النَّاصِرُ بَعْدَ الاسْتِشَارَةِ أَنْ يَبْعَثَ فِي طَلَبِ قَائِدِ المَرْكَبِ يَسْتَطْلِعُ رَأْيَهُ ، وَهُوَ رُبَّانٌ مَاهِرٌ ، وَشَيْخٌ عَتِيقٌ مِنْ شُيُوخِ البَحْرِ .

خَفَّ قَائِدُ المَرْكَبِ فِي إِجَابَةِ دَعْوَةِ المَلِكِ النَّاصِرِ حَتَّىٰ أُدْخِلَ عَلَيْهِ فِي قَصْرِهِ بِالقَاهِرَةِ ، فَلَمَّا اسْتَطْلَعَ مِنْهُ الخَبَرَ العَجِيبَ سَأَلَهُ :

ـ أَلَمْ تَلْحَظْ أَيُّهَا الرُّبَّانُ الشَّيْخُ حَدَثاً قَدْ يَكُونُ لَهُ تَأْثِيرُهُ فِي جُمُودِ المَرْكَبِ عَنْ مَقْصِدِهِ وَتَوَقُّفِهِ بِالمِنْبَرِ فِي مَنْفَلُوطَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ البُلْدَانِ البَحْرِيَّةِ وَالمَرَاسِي ؟ !

أَجَابَ قَائِدُ المَرْكَبِ .

ـ وَحَقِّكَ يَا مَوْلَايَ المَلِكَ لَمْ أَلْحَظْ شَيْئاً غَرِيباً سِوَىٰ أَنَّ أَحَدَ الفِتْيَانِ ، جَاءَنِي مُسْتَأْذِناً فِي وَدَاعِ المِنْبَرِ مُدَّعِياً أَنَّهُ صَانِعُهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ وَجَمَاعَةٌ مِمَّنْ مَعِي يَدْنُو مِنَ المِنْبَرِ وَيُقَبِّلُهُ وَيَهْمِسُ فِي عَضَادَتِهِ اليُمْنَىٰ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ لَمْ نَتَبَيَّنْهَا فِي حِينِهَا .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ :

ـ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي عَدَمِ إِقْلَاعِ المَرْكَبِ عِنْدَ بُلُوغِهِ مَنْفَلُوطَ . عَلَيَّ بِالفَتَىٰ النَّجّارِ صَانِعِ المِنْبَرِ .

اسْتَحْضَرَ الجُنْدُ الفَتَىٰ النَّجّارَ صَانِعَ المَرْكِبِ بِأَمْرِ المَلِكِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ ، فَدَخَلَ القَصْرَ المَلَكِيَّ وَهُوَ يَرْتَجِفُ ذُعْراً مِنْ سُوءِ المَصِيرِ ،

وَوَدَّ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعِ المِنْبَرَ وَلَمْ يَقْبِضْ مُكَافَأَتَهُ السَنِيَّةَ ، مِنَ الدَّنَانِيرِ الذَّهَبِيَّةِ .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ لِلفَتَىٰ الصَّانِعِ لَدَىٰ مُثُولِهِ بَيْن يَدَيْهِ :

ـ عَلَيْكَ الأَمَانُ إِنْ أَخْبَرْتَنِي بِالحَقِيقَةِ وَبِسَرِّ الهَمْسَةِ التِي هَمَسْتَهَا إِلَىٰ عَضَادَةِ المِنْبَرِ الذِي صَنَعْتَهُ . .

قَالَ الفَتَىٰ الصَّانِعُ :

ـ كُنْتُ ـ يَا مَوْلَايَ المَلِكَ ـ قَدْ وَدَّعْتُ أَبِي العَجُوزَ عَلَىٰ أَحَدِ المَرَاكِبِ مِنْ مَنْفَلُوطَ إِلَىٰ مِصْرَ ، وَقَدْ فَجَعْتُهُ بِفِرَاقِي بَعْدَ أَنْ فُجِعْنَا مَعاً بِفِرَاقِ أُمِّي بِالمَوْتِ ، وَكُنَّا ذَوِي فَقْرٍ وَحَاجَةٍ فَلَمَّا شَهِدَ وَالِدِي احْتِرَافِي لِلنِّجَارَةِ وَبَرَاعَتِي فِيهَا أَذِنَ لِي بِالسَّفَرِ إِلَىٰ حَيْثُ أَرْتَزِقُ فِي عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ العَامِرَةِ ، زَادَهَا الله بِكُمْ عِزّاً وَعَمْرَاناً ، وَتَعَهَّدَنِي شَيْخُ الكَارِ مِنَ النَّجَّارِينَ حَتَّىٰ قُمْتُ بِصِنَاعَةِ المِنْبَرِ بِإِشَارَتِكُمْ . . وَكَانَتْ عِبَارَةُ الوَدَاعِ التِي هَمَسْتُ بِهَا لِعَضَادَةِ المِنْبَرِ اليُمْنَىٰ :

ـ أَسْتَوْدِعُكَ الله أَيُّهَا المِنْبَرُ . . سَلِّمْ لِي عَلَىٰ أَبِي هُنَاكَ ، أَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرَاكَ فِي مَسْجِدِ مَنْفَلُوط فَكَأَنَّهُ يَرَانِي . . هَذَا كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ . . صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ المَلِكَ . .

قَالَ المَلِكُ النَّاصِرُ :

ـ صَدَقْتَ ، صَدَقْتَ أَيُّهَا الفَتَىٰ ، وَيَبْدُو أَنَّكَ وَأَبَاكَ مِنْ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلاَحِ وَالكَرَامَاتِ ، وَإِلاَّ لَمَا اسْتَجَابَ المِنْبَرُ لِهَمْسَتِكَ وَأُمْنِيَتِكَ وَهُوَ جَمَادٌ مَحْضٌ ، وَإِكْرَاماً لَكَ وَلأَبِيكَ ، سَأُصْدِرُ أَمْراً بِأَنْ يُجْعَلَ المِنْبَرُ بِجَامِعِ مَدِينَةِ مَنْفَلُوطَ ، وَأُعْطِيك مِنَ المَالِ مَا يَكْفِي لِتَقَرَّ عَيْنُكَ وَتَجْتَمِعَ بِأَبِيكَ ، فِي القَاهِرَةِ أَوْ مَنْفَلُوطَ بِحَسَبِ مَا تَخْتَارُ .

وَبَرّ المَلِكُ الصَّالِحُ بِوَعْدِهِ ، وَكَانَ وَجْهُهُ وَجْهَ سَعَادَةٍ وَإِقْبَالٍ عَلَىٰ الفَتَىٰ الصَّالِحِ الصَّادِقِ فِي حُبِّهِ لأَبِيهِ ، وَقَدْ وَفَّىٰ لَهُ المِنْبَرُ الخَشَبِيُّ وَفَاءَهُ لِمَنْ رَبَّاهُ . .

انْتَشَىٰ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِحِكَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ عَنِ المِنْبَرِ الوَفِيِّ ، وَأَمَرَ بِإِكْرَامِهِ فِي الحَالِ بِبَدْرَةٍ مِنَ المَالِ . . وَنَوَىٰ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ أَنْ يَزْدَادَ

حِرْصاً عَلَىٰ اسْتِبْقَاءِ الرَّحَّالَةِ الأَمِينِ فِي حِاشِيَتِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ مُسْتَوْدَعٌ لاَ يَنْفَدُ مِنَ الحِكْمَة وَالأَخْبَارِ وَالعَجَائِبِ وَالطَّرَائِفِ ، وَحَمِدَ اللهُ رَبَّ العَالَمِين عَلَىٰ مَا أَوْلاَهُ مِن الفَضْلِ بِوُجُودِ أَمْثَالِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَابْنِ جُزِّيٍّ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُمَا وَيُخَلِّفَ دُرُوساً فِي الاعْتِبَارِ ، فَسُبْحَانَ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

المجموعة التاريخية للصغار

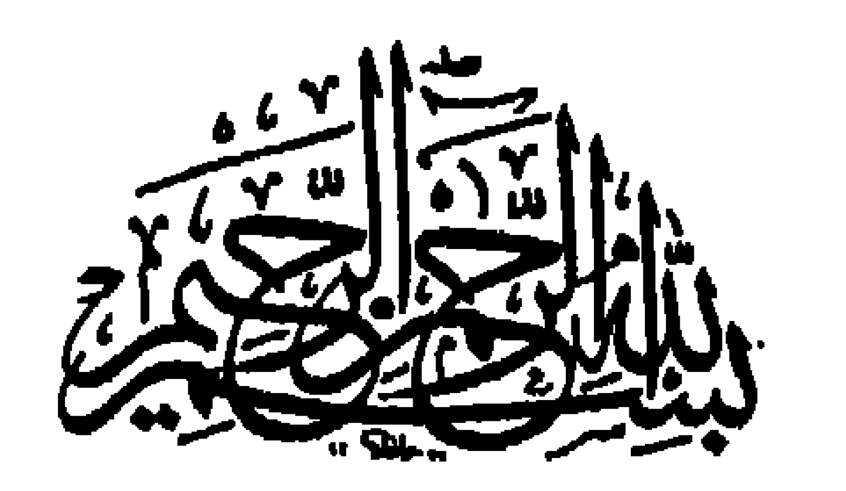
عجائب رحلة ابن بطوطة

لقاءٌ في القُدْس



إعداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

لِقَاءٌ فِي القُدْسِ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي خِطَابِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِي بِمَدِينَةِ فَاسَ المَغْرِبِيَّةِ ، وَكَانَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَلْبِيُّ مُسْتَعِدّاً لِيَكْتُبَ مَايَقُولُ :

ـ لَمْ أَكُنْ أَضَعُ فِي حِسَابِي يَوْمَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةَ فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَجَبَ مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَأَنَا أَقْصِدُ الحَجَّ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، أَنَّنِي سَأَشْهَدُ المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ وَقُبَّةَ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ ، قَبْلَ أَنْ أَشْهَدَ الكَعْبَةَ المَقْصُودَةَ مِنْ حَجِيجِ بَيْتِ اللهِ العَتِيقِ . وَقَدْ عَلِمْتُ يَا مَوْلَايَ أَنَّنِي أَخَذْتُ طَرِيقِي مِنْ طَنْجَةَ إِلَىٰ بُلْدَانِ تِلِمْسَانَ وَقَسنْطِينَةَ وَتُونُسَ وَطَرَابُلُسَ فَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُم قَصَدْتُ الحَجَّ عَنْ طَرِيقِ الإِبْحَارِ فِي النِّيلِ مِنْ قَاهِرَةِ المُعِزِّ بِمِصْرَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ الصَّعِيدِ عَنْ طَرِيقِ جُدَّةَ . .

فَلَمّا بَلَغْتُ مِنْ رِحْلَتِي عَلَىٰ مَرْكَبٍ فِي النِّيلِ مَدِينَةَ إِخْمِيمَ ، ثُمَّ مَدْيَنَ

هُوَ بِسَاحِلِ النِّيلِ ، نَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ تَقِيِّ الدِّينِ المُكْنَّىٰ بِابْنِ السَّرَّاجِ ، وَعَقِبَ الأَوْرَادِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ بَعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ ، دَخَلْتُ إِلَىٰ حَضْرَةِ الوَلِيِّ ذِي الكَرَامَاتِ عَبْدِ الله الحُسْنِي ، وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الصَّالِحِينَ وَكَانَ قَصْدِي التَّبَرُّكُ بِرُؤْيَتِهِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْهِ .

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِيَ المَقَرُّ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّىٰ سَأَلَنِي عَنْ وِجْهَتِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ حَجَّ البَيْتِ الحَرَامِ عَلَىٰ طَرِيقِ جُدَّةَ ، فَسَكَتَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ لِي :

ـ العِلْمُ عِنْدَ الله ، لاَ يَحْصُلُ حَجُّكَ فِي هَذَا الوَقْتِ ، وَإِنَّمَا تَحُجُّ أَوَّلَ حَجَّةٍ لَكَ عَلَىٰ الدَّرْبِ الشَّامِيِّ .

وَالحَقُّ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ أَنَّنِي لَمْ أُبَالِ بِكَلاَمِ الشَّيْخِ عَبْدِ الله الحُسْنِي وَأَخَذْتُهُ عَلَىٰ مَحْمَلِ تَثْبِيطِ الهِمّةِ وَمَضَيْتُ فِي طَرِيقِي حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ عَيْذَابَ ، فَلَمَّا وَصَلْتُهَا وَجَدْتُ الفِتْنَةَ قَائِمَةً بَيْنَ قَوْمٍ وَقَوْمٍ ، وَقَدْ خُرِقَتِ المَرَاكِبُ وَاحْتَرَقَتْ ، فَتَعَذَّرَ سَفَرُنَا فِي البَحْرِ ، فَبِعْنَا مَا كُنَّا أَعْدَدْنَاهُ مِنَ الزَّادِ ، وَاسْتَخْفَفْنَا مِنَ المَتَاعِ ، وَاكْتَرَيْنَا مِنْ عَرَبِ المَوْضِعِ عَدَداً مِنَ الجِمَالِ عَائِدِينَ إِلَىٰ صَعِيدِ مِصْرَ . فَلَمَّا بَلَغْنَا مِصْرَ بِتُّ فِيهَا لَيْلَةً وَاحِدَةً

وَقَصَدْتُ بِلاَدَ الشَّامِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِيمَا أَذْكُرُ فِي مُنْتَصَفِ شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِئَةٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ بِهَذَا طَالَ عَلَيْكَ طَرِيقُ الحَجِّ ، وَزَادَتْ عَلَيْكَ المَشَقَّةُ .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ إِذَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّنِي وَجَدْتُ فِي هَذَا البُعْدِ مَغْنَماً لاَ مَغْرَماً ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ الأُمُورِ التِي مَرَّتْ بِي فِي رِحْلَتِي ، وَفِي عِلْمِكَ يَا مَوْلاَيَ أَنَّ المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ بِالقُدْسِ الشَّرِيفِ هُوَ مُنْطَلَقُ مِعْرَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ حَيْثُ لَقِيَ رَبَّهُ ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ صَدَقْتَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ، فَهَاتِ حَدِّثْنَا بِمَا جَرَىٰ لَكَ مِنْ حِينِ دُخُولِكَ إِلَىٰ الدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ . .

ـ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٌ ، شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأَرْوِي لِمَوْلَايَ إِنْ شَاءَ الله خَبَرَ مَا أَكْرَمَنِي بِهِ الله بِرُؤْيَةِ مَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي حِسَابٍ وَلاَ تَقْدِيرٍ سِوَىٰ تَقْدِيرِ رَبِّ العَالَمِينَ جَلَّ وَعَلا . .

تَوَغَّلَ رَكْبُنَا فِي رِمَالِ سِينَاءَ حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَدَداً مِنَ البُلْدَانِ مِنْهَا العَرِيشُ ، وَكَانَ بِكُلِّ مَنْزِلٍ مِنْهَا فُنْدُقٌ ، يُسَمُّونَهُ الخَانَ ، يَنْزِلُهُ المُسَافِرُونَ بِدَوَابِّهِمْ ، وَبِخَارِجِ كُلِّ خَانٍ سَاقِيَةٌ أَوْ سَبِيلُ مَاءٍ وَدُكَّانٌ أَوْ حَانُوتٌ يَشْتَرِي مِنْهَا المُسَافِرُ مَا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ وَلِدَابَّتِهِ .

ثُم سِرْنَا حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ غَزَّةَ ، وَهِيَ أَوَّلُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي مِصْرَ . وَوَجَدْنَا غَزَّةَ مَدِينَةً مُتَّسِعَةَ الأَقْطَارِ ، كَثِيرَةَ العِمَارَةِ حَسَنَةَ الأَسْوَاقِ ، لَهَا أَسَوارٌ قَائِمَةٌ ، وَبِهَا مَسَاجِدُ عَدِيدَةٌ .

وَسَأَلْتُ عَنْ المَسْجِدِ الذِي تُقَامُ بِهِ صَلاَةُ الجُمُعَةِ فَدَلُّونِي عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ بِنَاءٌ أَنِيقٌ مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ ، وَمِنْبَرُهُ مِنَ الرُّخَامِ الأَبْيَضِ ، وَمَا إِنْ فَرَغْتُ مِنْ أَدَاءِ الصَّلاَةِ مَعَ المُصَلِّينَ وَخَرَجْتُ أُرِيدُ الفُنْدُقَ الذِي أَنْزِلُ فِيهِ حَتَّىٰ جَرَىٰ لِي أَمْرٌ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَقَدْ جَحَظَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالعَجَبِ :

ـ وَمَا الأَمْرُ العَجِيبُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ عَجِّلْ لَنَا بِهِ :

ـ وَجَدْتُ فِي انْتِظَارِي عَلَىٰ بَابِ المَسْجِدِ الشَّيْخَ المِصْرِيَّ صَاحِبَ الكَرَامَةِ الذِي أَخْبَرَنِي أَنْ لاَ حَجَّ لِي إِلاَّ عَنْ طَرِيقِ الشَّامِ ، وَصَافَحَنِي بِحَرَارَةٍ وَصِدْقٍ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ كَيْفَ وَجَدْتَ كَلاَمَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله الحُسْنِيِّ ؟

هَا أَنْتَ فِي قَصْدِ الحَجِّ عَنْ طَرِيق الشَّامِ ، وَمَدْخلُكَ إِلَيْهَا مِنْ غَزَّةَ . .

أُوَدِّعُكَ الآنَ وَمُلْتَقَانَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ تَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ فِي القُدْسِ الشَّرِيفِ .

وَخَلَّىٰ يَدِي وَشَرَعَ يَغُذُّ السَّيْرَ مُبْتَعِداً حَتَّىٰ اخْتَفَىٰ عَنْ نَظَرِي كَنَجْمٍ آفِلٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَبَعْدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، مَاذَا جَرَىٰ ؟ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأَرْوِي لَكَ حِكَايَةَ لِقَائِنَا العَجِيبِ فِي مَدِينَةِ القُدْسِ وَتَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ بِشَهَادَةِ شَاهِدٍ عَجِيبٍ وَلَكِنْ مَهْلاً عَلَىٰ عَبْدِكَ يَا مَوْلاَيَ ، فَهُمْ يَقُولُونَ : كُلُّ شَيءٍ حَسَنٌ فِي أَوَانِهِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ تَمَهَّلْ كَمَا تَشَاءُ . عَسَىٰ أَنْ تُعْطِي كَاتِبَنَا ابْنَ جُزَيٍّ فُرْصةً يَسْتَرِيحُ فِيهَا مِنْ عَنَاءِ الكِتَابَةِ المُتَوَاصِلَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَرْسِلاً فِي رِوَايَتِهِ :

ـ ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ غَزَّةَ إِلَىٰ مَدِينَةِ الخَلِيلِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، خَيْرِ الأَنَامِ ، وَالخَلِيلُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةُ السَّاحَةِ ، مُشْرِقَةُ الأَنْوَارِ ، عَزِيزَةُ المِقْدَارِ ، مَوْقِعُهَا فِي بَطْنِ وَادٍ ، وَمَسْجِدُهَا أَنِيقُ الصَّنْعَةِ ، بَدِيعُ الحُسْنِ ، مَبْنِيٌّ مِنَ الصَّخْرِ المَنْحُوتِ بِارْتِفَاعٍ شَامِخٍ . وَيُقَالُ : إِنَّ النَّبِيَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، قَدْ أَوْكَلَ بِنَاءَهُ إِلَىٰ الجِنِّ . . وَفِي دَاخِلِ المَسْجِدِ غَارٌ يُهْبَطُ إِلَيْهِ عَنْ يَمِينِ المِنْبَرِ عَلَىٰ دَرَجٍ مِنَ الرُّخَامِ يُفْضِي إِلَىٰ سَاحَةٍ مَفْرُوشَةٍ بِالرُّخَام ، فِيهَا ثَلاَثَةُ قُبُورٍ قِيلَ هِيَ : قُبُورُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله ، تِجَاهَهَا قُبُورُ زَوْجَاتِهِم .

وَبِدَاخِلِ هَذَا المَسْجِدِ أَيْضاً قَبْرُ يُوسَفَ بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، وَمِنْ جِهَةِ المَشْرِقِ تُرْبَةُ النَّبِيِّ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَهِيَ عَلَىٰ تَلَّ مُرْتَفِعٍ يُشْرَفُ مِنْهُ عَلَىٰ غَوْرِ الشَّامِ .

وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ بِبُحَيْرَةِ لُوطٍ ، وَهِيَ بِمَائِهَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، بَالِغَةُ المُلُوحَةِ وَالمَرَارَةِ بِأَفْعَالِ قَوْمِهَا وَبِغَضَبٍ مِنَ الله ، فَرَأَيْتُهَا وَقِيلَ لِي إِنَّهَا مَوْضِعُ دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ .

فَاسْتَعَذْتُ بِالله مِنْ شَرِّ غَضَبِ الله ، وَلِلْمَوْعِظَةِ وَالاعْتِبَارِ قَامَ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مَسْجِدٌ يُعْرَفُ بِمَسْجِدِ اليَقِينِ ، وَهُوَ عَلَىٰ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ لَهُ نُورٌ وَإِشْرَاقٌ لَيْسَ لِسِوَاهُ ، وَلاَ يُجَاوِرُهُ إِلاَّ دَارٌ وَاحِدَةٌ يَسْكُنُهَا القَائِمُ عَلَىٰ خِدْمَتِهِ .

وَمِنْ عَجِيبِ مَا رَأَيْتُ بِقُرْبِ مَسْجِدِ اليَقِينِ مَوْضِعٌ مُنْخَفِضٌ فِي حَجَرٍ صَلْدٍ ، فَلَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ قِيلَ لِي : إِنَّ هَذَا مَوْضِعُ سُجُودِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عِنْدَمَا سَمِعَ بِهَلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ ، فَسَجَدَ للّهِ شُكْراً ، فَتَحَرَّكَ مَوْضِعُ سُجُودِهِ حَتَّىٰ سَاخَ فِي الأَرْضِ ، مِقْدَارَ مَا احْتَوَىٰ شَخْصَ إِبْرَاهِيمَ الشَّاكِرِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَبَقِيَ أَثَرُهُ دَلاَلَةً عَلَيْهِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، وَهُوَ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ مُخَاطِباً مَوْلَاهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ المَرِينِيَّ مَلِكَ فَاسَ وَمَا حَوْلَهَا :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلَايَ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ مَدِينَةَ الخَلِيلِ أَرْضٌ مُبَارَكَةٌ مَغْرُوسَةٌ بِخُطَا الأَنْبِيَاءِ وَآثَارِهِمْ ، وَفِيهَا مِنَ المَشَاهِدِ وَالأَضْرِحَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا مِنَ الأَرَاضِي وَالبُلْدَانَ . . وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَغَارَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ مَسْجِدِ اليَقِينِ ، فِيهَا قَبْرُ فَاطِمَةَ بِنْتِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . . نَزَلْتُهَا وَشَهِدْتُ القَبْرَ بِأُمِّ عَيْنِي وَقَرَأْتُ مَا جَاءَ عَلَىٰ شَاهِدَةِ القَبْرِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ وَهِيَ صَنْعَةُ خَطَّاطٍ مِنْ مِصْرَ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي سَهْلٍ النَّقَّاشُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ : مَا يَزَالُ فِي خَاطِرِي خَبَرُ لِقَائِكَ العَجِيبِ بِصَاحِبِكَ الشَّيْخِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ ، أَبِي مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ كُنْتَ سَمَّيْتَهُ عَبْدَ الله الحُسْنِي وَعَرَّفْتَنِي أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ الصَّالِحِينَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الرَّحَّالَةُ :

ـ صَدَقْتَ يَامَوْلَايَ ، هُوَ مَاذَكَرْتَ ، وَأَنَا فِي سَبِيلِ تَحْدِيثِكَ بِخَبَرِهِ مَعِي ، فِي الحَالِ . .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله :

تَجَاوَزْتُ حَرَمَ الخَلِيلِ مُسَافِراً إِلَىٰ القُدْسِ الشَّرِيفِ ، وَفِي طَرِيقِي ، زُرْتُ تُرْبَةَ النَّبِيِّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ شُيِّدَ فِيهَا بِنَاءٌ كَبِيرٌ وَمَسْجِدٌ . . وَزُرْتُ أَيْضاً بَيْتَ لَحْمَ ، مَوْضِعَ مِيلَادِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا يَزَالُ بِهِ أَثَرُ جِذْعِ النَّخْلَةِ التِي شَهِدَتْ مَخَاضَ مَرْيَمَ العَذْرَاءِ وَسَاقَطَتْ عَلَيْهَا رُطَباً جَنِيّاً . وَالمَكَانُ مَعْمُورٌ فِيهِ عِمَارَةٌ كَثِيرَةٌ وَالنَّصَارَىٰ يُعَظِّمُونَهُ أَشَدَّ التَّعْظِيمِ ، وَيُضِيفُونَ مَنْ نَزَلَ بِهِ وَكَانَ لِي مِنْ ضِيَافَتِهِمْ نَصِيبٌ .

وَصَلْنَا إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ شَرَّفَهُ الله ، وَهُوَ ثَالِثُ مَسَاجِدِ الله فِي رُتْبَةِ الفَضْلِ عَلَىٰ وَجْهِ المَعْمُورَةِ ، وَقَدْ عُرِفَ أَنَّهُ مَصْعَدُ رَسُولِ الله مُحَمَّدٌ ﷺ فِي مِعْرَاجِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ بَعْدَ عَامِ الحُزْنِ ، وَقُبَيْلَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ . وَبَلْدَةُ القُدْسِ كَبِيرَةٌ مُنِيفَةٌ بِالصَّخْرِ المَنْحُوتِ ، وَكَانَتْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِدَّهَا صَلَاحُ الدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ مِنْ سَطْوَةِ الفِرَنْجَةِ مَدِينَةً مُسَوَّرَةً فَقَامَ - جَزَاهُ الله عَنِ الإِسْلَامِ خَيْراً - بِهَدْمِ بَعْضٍ مِنْ هَذَا السُّورِ ، تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ المَلِكُ الظَّاهِرُ خَشْيَةَ أَنْ يُعَاوِدَهَا الغُزَاةُ مِنَ الرُّومِ وَالأَعَاجِمِ فَيَسْتَحْصِنُوا وَرَاءَهُ .

وَمَسْجِدُهَا الأَقْصَىٰ مِنَ المَسَاجِدِ العَجِيبَةِ الرَائِقَةِ الفَائِقَةِ وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مَسْجِدٌ أَكْبَرَ مِنْهُ .

لَقَدْ خَبَرْتُ اتِّسَاعَ المَسْجِدِ طُولاً وَعَرْضاً بِمِئَاتِ الأَذْرُعِ وَعَدَدْتُ لَهُ أَبْوَاباً كَثِيرَةً فِي جِهَاتِهِ الثَّلَاثِ ، وَأَمَّا الجِهَةُ القِبْلِيَّةُ فَكَانَ لَهَا بَابٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الذِي يَدْخُلُ مِنْهُ الإِمَامُ ، وَالمَسْجِدُ كُلُّهُ فَضَاءٌ رَحْبٌ غَيْرُ مَسْقُوفٍ ، إِلاَّ مَا عُرِفَ بِالأَقْصَىٰ ، فَهُوَ مَسْقُوفٌ بِأَقْصَىٰ عِنَايَةٍ مِنْ إِحْكَامِ العَمَلِ وَإِتْقَانِ الصَّنْعَةِ ، وَسَقْفُهُ ذَاكَ مُمَوَّهٌ بِالذَّهَبِ وَالأَصْبِغَةِ الرَّائِقَةِ الجَمِيلَةِ ، عَلَىٰ أَنَّ فِي المَسْجِدِ مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مَسْقُوفَةً لِزُومَ الوُضُوءِ وَالمَشْرَبِ وَالعُبُورِ .

عَلَىٰ دَرَجٍ مِنَ الرُّخَامِ صَعِدْتُ إِلَىٰ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ المَبَانِي وَأَكْثَرِهَا إِتْقَاناً وَأَغْرَبِهَا شَكْلاً ، وَقَدْ أَخَذَتْ فِي شَكْلِهَا مِنْ كُلِّ بَدِيعَةٍ بِطَرْفٍ . وَلِلقُبَّةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، دَائِرُهَا مَفْرُوشٌ بِالرُّخَامِ ، وَهُوَ أَيْضاً مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ كَدَاخِلِهَا . وَفِي ظَاهِرِ القُبَّةِ وَبَاطِنِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَالتَزْوِيقِ مَا يَعْجَزُ الإِنْسَانُ عَنْ وَصْفِهِ .

عِنْدَمَا وَصَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ مِنَ الحَدِيثِ وَالوَصْفِ اعْتَرَضَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِقَوْلِهِ :

ـ أَرَاكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ قَدْ شَغَلْتَنَا بِالوَصْفِ المُعْجِبِ عَنِ الحَدَثِ العَجِيبِ الذِي وَقَعَ لَكَ مَعَ الشَّيْخِ الحُسْنِيِّ وَهُوَ ، كَمَا أَسلَفْتَ مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ وَالمُتَحَدِّثُ وَنَدِيمُ السُّلْطَان ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حِلْمَكَ عَلَيَّ يَا مَوْلَايَ فَأَنَا قَادِمٌ إِلَيْكَ بِخَبَرِهِ لِتَوِّي ، وَهَذَا مَاجَرَىٰ لِي فِي وَسَطِ القُبَّةِ المُشَرَّفَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ ضَرْبٌ مِنْ نَفَادِ الصَّبْرِ :

ـ دُونَكَ وَمَا تُرِيدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ دَلَفْتُ يَا مَوْلَايَ إِلَىٰ وَسَطِ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ الكَرِيمَةِ ، وَهِيَ التِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي المَأْثُورِ وَالآثَارِ ، وَهِيَ مَعْرَجُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ . وَجَدْتُ أَمَامِي صَخْرَةً صَمَّاءَ ، ارْتِفَاعُهَا نَحْوَ قَامَةٍ أَوْ تَزِيدُ قَلِيلاً تَحْتَهَا

مَغَارَةٌ مَسَاحَتُهَا مَسَاحَةُ بَيْتٍ صَغِيرٍ أَوْ حُجْرَةٍ وَارْتِفَاعُ سَقْفِهَا نَحْوُ قَامَةٍ أَيْضاً يُنْزَلُ إِلَيْهَا عَلَىٰ دَرَجٍ وَهُنَاكَ شَكْلُ مِحْرَابٍ ، وَعَلَىٰ الصَّخْرَةِ شُبَّاكَانِ فِي صَنْعَتِهِمَا إِحْكَامٌ وَإِتْقَانٌ . وَالشُّبَّاكَانِ يُغْلَقَانِ عَلَىٰ القُبَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ بَدِيعِ الصَّنْعَةِ ، وَالثَّانِي مِنْ خَشَبٍ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُحَدِّثُهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ مُتَمَلْملاً :

ـ وَمَاذَا بَعْدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ :

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَاجِلاً :

ـ هُنَا بَيْتُ القَصِيدِ يَا مَوْلاَيَ . . وَهُنَا تَحَقَّقَتِ الكَرَامَةُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ : وَكَيْفَ كَانَ . . كَيْفَ كَانَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عِنْدَمَا نَزَلْتُ عَلَىٰ الدَّرَجِ المُؤَدِّي إِلَىٰ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ ، وَفِيهَا مِحْرَابٌ وَجَدْتُ رَجُلاً قَائِماً يُصَلِّي وَهُوَ وَحِيدٌ مُنْفَرِدٌ بِصَلاَتِهِ ، وَكُنْتُ قَدْ بُهِرْتُ عَيْناً وَنَفْساً بِرَوْعَةِ مَا أَرَاهُ ، وَكَادَ يَغِيبُ عَنْ بَالِي ذِكْرُ صَاحِبِي الصَّالِحِ ذِي الكَرَامَاتِ ، الشَّيْخِ عَبْدِ الله الحُسْنيّ الذِي وَجَّهَنِي إِلَىٰ الحَجِّ

الشَّامِيِّ ، وَهُوَ مُقِيمٌ فِي صَعِيدِ مِصْرَ . وَمَا لَبِثَ الرَّجلُ المُصَلِّي أَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ الجِهَتَيْنِ ، وَقَامَ إِلَيَّ مُصَافِحاً وَمُعَانِقاً بِكُلِّ مَوَدَّةِ الأَصْحَابِ وَهُوَ يُخَاطِبُنِي بِجَمِيعِ مَا اشْتَهَرْتُ بِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالكُنَىٰ وَالأَلْقَابِ :

ـ أَهْلاً يَا مُحَمَّدُ . . . أَهْلاً يَا أَبَا عَبْدِ الله يَا بْنَ إِبْرَاهِيمَ ، أَهْلاً يَا شَمْسَ الدِّينِ اللوَاتِيِّ الطَّنْجِيِّ ، أَهْلاً يَا قَاصِدَ الحَجِّ . .

أَجَبْتُهُ : أَهْلاً يَا شَيْخِي وَيَا سَيِّدِي وَمَوْلاَيَ . . وَأَنَا فِي ذِرْوَةِ الارْتِيَاعِ وَالدَّهْشَةِ وَالنَّشْوَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي آنٍ وَاحِدٍ . .

قَالَ لِي الشَّيْخُ عَبْدُ الله الحُسْنِي :

ـ اسْمَعْنِي يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، تَحُجُّ بِإِذْنِ الله إِلَىٰ حَرَمِ مَكَّةَ الشَّرِيفِ ، وَتَرَحَلُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ البِلاَدِ مِنْ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ الصِّينِ ، وَيُلَقِّبُكَ مَنْ يَعْرِفُكَ وَمَنْ لاَ يَعْرِفُكَ بِالرَّحَّالَةِ الأَمِينِ . وَدُونَكَ الشَّاهِدُ عَلَىٰ مَا أَقُولُ . أَشَارَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ عَبْدُ الله الحُسْنِي بِسَبَّابَةِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ إِلَىٰ سَقْفِ القُبَّةِ . فَإِذَا بِعَيْنَيْنِ تَلْتَمِعَانِ رُسِمَتَا فِي دُرْقَةٍ أَوْ تُرْسٍ مِنَ الجِلْدِ . عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ تُرْسُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، سَيِّدَ

الشُّهَدَاءِ ، وَعَمَّ رَسُولِ الله مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ قَالَ الرَّحَّالَة الأَمِينُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَمَا لَبِثَ الشَّيْخُ الحُسْنِيّ أَنْ اخْتَفَىٰ مِنْ أَمَامِ نَاظِرِي بَعْدَ أَنْ أَلْقَىٰ عَلَىٰ مَسْمَعِي كَلِمَاتِهِ المُؤَثِّرَةِ ، وَبُشْرَاهُ العَجِيبَةَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ سُلْطَانُ فَاسَ المَغْرِبِيُّ :

ـ قُمْ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ فَأَنْتَ حَقاً حَاجٌّ وَرَحَّالَةٌ أَمِينٌ . . وَطَوَىٰ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ سِجِلَّهُ عَنْ أُعْجُوبَةِ اللقَاءِ فِي القُدْسِ ، وَتَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

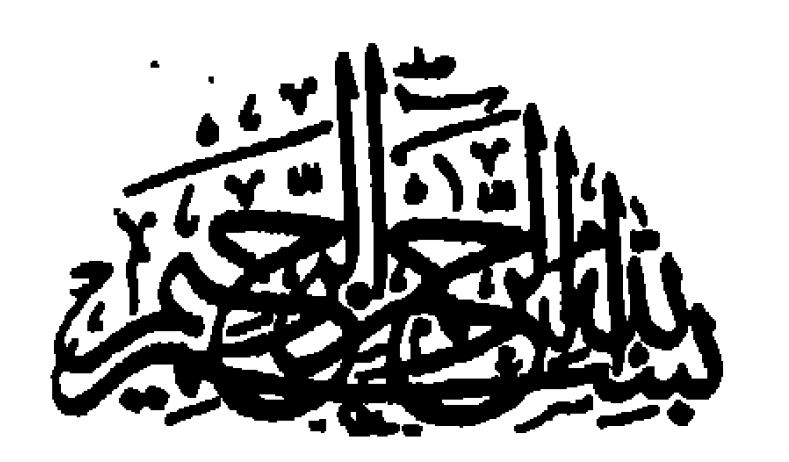
عجائب رحلة ابن بطوطة

ذاكرةُ القلْعةِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ ـ 2003 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

ذَاكِرَةُ القَلْعَةِ

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ اللهِ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلَاهُ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَبِي عِنَانٍ بِحُضُورِ كَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ الكَلْبِيِّ :

ـ أَمَّا الآنَ يَا مَوْلَايَ فَقَدْ آنَ الأَوَانُ لأَنْ أَجْلُوكَ إِلَىٰ عَرُوسِ البُلْدَانِ ، وَعَاصِمَةِ بَنِي حَمْدَانَ ، أَلَا وَهِيَ مَدِينَةُ حَلَبَ ذَاتُ القَلْعَةِ الشَّهْبَاءِ ، وَذَاتُ البَهْجَةِ وَالصَّفَاءِ ، المُعْجِبَةُ لِكُلِّ مَنْ زَارَهَا ، وَحَلَّ دِيَارَهَا .

وَالحَقِيقَةُ يَامَوْلَايَ : لَمْ تَكُنْ حَلَبُ آخِرَ مَازُرْتُهُ فِي بُلَادِ الشَّامِ ، وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَىٰ الحَجِّ ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ خَيْرِ الأَنَامِ ، النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَاانْتَهَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ تَجْوَالٍ ، وَحِلٍّ وَتَرْحَالٍ ، فَقَدْ زُرْتُ فِي جَنُوبِهَا مِنْ مُدُنِ فِلِسْطِينَ عَسْقَلَانَ وَالرَّمْلَةَ وَنَابُلْسَ ، وَمِنْ مَوَانِىءِ بَحْرِ الرُّومِ عَكَّةَ وَصُورَ وَبَيْرُوتَ وَطَرَابُلُسَ الشَّامِ واللاذِقِيَّةَ ، وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ المَعَرَّةِ وَسَرْمِينَ ، بَعْدَ المُرُورِ بِحِمْصَ وَحَمَاةَ بِتَوْفِيقٍ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ذِي العِزَّةِ المَكِينِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ الكَثِيرِ الكَثِيرِ مِمَّا يُثِيرُ الدَّهْشَةَ وَالعَجَبَ ، لَمَا لَنَا بِالتَّعْرِيجِ بِهَا مِنْ غَايَةٍ وَلاَ مُكْتَسَب .

وَحَسْبُ هَذِهِ المَدِينَةِ الجَمِيلَةِ مَا وَصَفَهَا بِهِ سَابِقِي الرَّحَّالَةُ أَبُو الحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ عِنْدَمَا قَالَ فِيهَا : (قَدْرُهَا خَطِيرٌ ، وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ يَطِيرُ ، خُطَّابُهَا مِنَ المُلُوكِ كَثِيرٌ ، وَمَحَلُّهَا مِنَ النُّفُوسِ أَثِيرٌ . فَكَمْ هَاجَتْ مِنْ كِفَاحٍ ، وَسُلَّ عَلَيْهَا مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ . لَهَا قَلْعَةٌ شَهِيرَةُ الامْتِنَاعِ ، بَالِغَةُ الارْتِفَاعِ ، طَاوَلَتِ الأَيَّامَ وَالأَعْوَامَ ، وَوَسِعَتِ الخَوَاصَّ وَالعَوَامّ . .) .

وَصَلْتُ إِلَىٰ حَلَبَ ، وَكَانَ عَلَيْهَا أَمِيرُ الأُمَرَاءِ الكِبَارِ وَاسْمُهُ أَرْغُونُ الدَّوَادَارُ ، وَهُوَ فَقِيهٌ حَصِيفٌ ، مَوْصُوفٌ بِالعَدْلِ وَلاَّهُ المَلِكُ النَّاصِرُ إِمَارَتَهَا ، فَأَخْلَصَ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِهَا مَا اسْتَطَاعَ ، إِلاَّ أَنَّهُ بَخِيلٌ مَنَّاعٌ .

وَيُقَالُ عَنْ مَدِينَةِ حَلَبَ : إِنَّهَا كَانَتْ مَدِينَةَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ حَلَبَ عَلَىٰ عَهْدِهِ ، لأَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُهَا ، وَكَانَتْ لَهُ فِي مَرَاعِيهَا أَغْنَامٌ كَثِيرَةٌ يَحْلِبُهَا وَيَسْقِي الفُقَرَاءَ وَالمَسَاكِينَ فَإِذَا اجْتَمَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ تَسَاءَلُوا : هَلْ حَلَبَ إِبْرَاهِيمُ ؟ .

فَسُمِّيَتْ مَدِينَةَ الحَلْبِ بِحَلَبَ ، بِنَاءً عَلَىٰ تَرْدَادِ هَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَتَكْرَارِهَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الفُقَرَاءِ .

أَمَّا أُعْجُوبَةُ الأَعَاجِيبِ ، وَالشَّكْلُ المُهِيبُ فَهُوَ لِقَلْعَتِهَا التِي تُسَمَّىٰ الشَّهْبَاءَ ، وَهِي مُبْتَنَاةٌ مِنْ قَدِيمِ الأَزْمَانِ ، إِلَىٰ أَنْ سَكَنَهَا وَاعْتَصَمَ بِهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ ، وَكَانَتْ مَصَدّاً لِغَزَوَاتِ الرُّومِ وَحَمَلاَتِهِمْ ، فَرَجَعُوا مِنْهَا خَائِبِينَ غَيْرَ مَرَّةٍ .

يَقُومُ بِنَاءُ القَلْعَةِ الحَصِينُ عَلَىٰ جَبَلٍ مُرْتَفِعٍ ، وَبِدَاخِلِهَا جَبَلاَنِ أَصْغَرُ مِنْهُ ، يَنْبُعُ مِنْهُمَا المَاءُ ، فَلاَ تَخَافُ الظَمَأَ ، وَيُحِيطُ بِهَا سُورَانِ ، وَعَلَيْهَا خَنْدَقٌ عَظِيمٌ يَزِيدُ عُمْقُهُ عَنْ عِشْرِينَ ذِرَاعاً ، يُضَخُّ فِيهِ المَاءُ ، أَوْ يَمْتَلِئُ بِإِمْرَةِ آمِرٍ عِنْدَ كُلِّ حِصَارٍ تَتَعَرَّضُ لَهُ المَدِينَةُ وَقَلْعَتُهَا . وَعَلَىٰ دَائِرَةِ السُّورِ أَبْرَاجٌ عَالِيَةٌ مُنْتَظِمَةٌ ، فِيهَا فَتَحَاتٌ وَطَاقَاتٌ لِلرَّمْيِ . وَيُقَالُ : إِنَّ الطَّعَامَ لاَ يَتَغَيَّرُ بِهَذِهِ القَلْعَةِ ، مَهْمَا طَالَ عَهْدُهُ بِبَرَكَةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، حَيْثُ مَشْهَدُهُ وَمَعْبَدُهُ فِي دَاخِلِهَا .

عِنْدَمَا وَصَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ مِنَ القَوْلِ ، وَالإِشَادَةِ بِحَلَبَ وَبِقَلْعَتِهَا ، لَمْ يَمْلِكِ ابْنُ جُزَيٍّ نَفْسَهُ مِنَ الفُضُولِ وَالتَّدَخُّلِ ، فَوَضَعَ رِيشَةَ الكِتَابَةِ جَانِباً وَقَالَ :

ـ الذِي أَعْلَمُهُ أَنَّ عَدِيداً مِنَ الشُّعَرَاءِ الذِينَ عَاشُوا فِي حَلَبَ قَدْ أَطْنَبُوا فِي وَصْفِ مَحَاسِنِهَا وَبِذِكْرِ دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا ، وَيَحْضُرُنِي الآنَ ذِكْرُ بَعْضِ أَقْوَالِهِمْ فِيهَا فَهَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ ؟ !

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ يَا ابْنَ جُزَيٍّ وَاخْتَصِرْ ، وَلاَتَطْغَ بِحَدِيثِكَ عَلَىٰ حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ الشَّائِقِ الرَّائِقِ :

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ سَمْعاً وَطَاعَةً يَامَوْلاَيَ . .

وَرَاحَ يَرْوِي مَا عِنْدَهُ ، قَالَ : قَالَ أَبُو عُبَادَةَ البُحْتُرِيُّ فِي إِينَاسِ حَلَبَ وَاسْتِئْنَاسِهِ بِهَا :

أَرْضٌ إِذَا مَا اسْتَوْحَشَتْ بِتَذَكُّرٍ ... حَشَدَتْ عَلَيَّ فَأَكْثَرَتْ إِينَاسِي

وَقَالَ شَاعِرُهَا المُجِيدُ أَبُو بَكْرٍ الصَّنَوْبَرِيُّ :

سَقَىٰ حَلَبُ المُزْنِ مَغْنَىٰ حَلَبْ ... فَكَمْ وَصَلَتْ طَرَباً بِالطَّرَبْ

وَقَالَ فِيهَا أَبُو العَلاَءِ المَعَرِّي :

حَلَبٌ لِلْوُرَّادِ جَنَّةُ عَدْنٍ ... وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ سَعِيرِ

وَقَالَ غَيْرُهُ :

يَا صَاحِبَيَّ إِذَا أَعْيَاكُمَا سَقَمِي فَلَقِّيَانِي نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ حَلَبِ

وَقَالَ فِيهَا أَبُو الفَتْحِ المَدْعُوُّ كُشَاجِمْ :

وَمَا أَمْتَعَتْ جَارَهَا بَلْدَةٌ كَمَا أَمْتَعَتْ حَلَبُ جَارَهَا

بِهَا قَدْ تَجَمَّعَ مَا تَشْتَهِي فَزُرْهَا ، فَطُوبَىٰ لِمَنْ زَارَهَا

وَقَالَ فِيهَا غَيْرُهُ :

حَلَبٌ إِنَّهَا مَقَرُّ غَرَامِي وَمَرَامِي وَقِبْلَةُ الأَشْوَاقِ

وَعُلُوُّ الشَّهْبَاءِ حَيْثُ اسْتَدَارَتْ أَنْجُمُ الأُفْقِ حَوْلَهَا كَالنِّطَاقِ

هُنَا دَبَّ الحَمَاسُ فِي صَدْرِ السُّلْطَان أَبِي عنَان ، وَقَالَ مُخَاطِباً جَلِيسَيْهِ ابْنَ بَطُّوطَةَ وَابْنَ جُزِّيٍّ :

ـ وَأَيْنَ أَنْتُمَا مِمَّا قَالَهُ فِيهَا وَفِي أَمِيرِهَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ القَائِدِ المُقَاتِلِ البَاسِلِ رَحِمَهُ الله أَعْنِي بِهِ الشَّاعِرَ الأَكْبَرَ أَبَا الطَّيِّبِ المَتَنَبِّي عِنْدَمَا قَالَ :

كُلَّمَا رَحَّبَتْ بِنَا الرَّوْضُ قُلْنَا حَلَبٌ قَصْدُنَا وَأَنْتِ السَّبِيلُ

فِيكَ مَرْعَىٰ جِيَادِنَا وَالمَطَايَا　　　وَإِلَيْهَا وَجِيفُنَا وَالذَّمِيلُ

وَهُوَ يَعْنِي بِالوَجِيفِ وَالذَّمِيلِ ضُرُوباً مِنَ السَّيْرِ ، جَادَّةَ المَقْصِدِ وَغَيْرَ هَازِلَةٍ فِي سَعْيِهَا نَحْوَ حَلَبَ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

وَكَأَنِّي بِالشَّاعِرِ الفَذِّ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي ، قَدْ قَصَدَكَ فِي القَصِيدَةِ عَيْنِهَا بِقَوْلِهِ :

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ　　　سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

وَهُوَ لَمْ يَعْدُ الحَقِيقَةَ فِي التَّسْمِيَةِ ، فَذَاكَ المَمْدُوحُ المُسْتَحِقُّ عَلِيٌّ ، وَأَنْتَ المَمْدُوحُ المُسْتَحِقُّ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ طَالَ عُمُرُكَ وَأَيَّدَكَ اللهُ بِالنَّصْرِ ، وَزَيَّنَكَ بِتَاجِ العِزِّ وَالرِّفْعَةِ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ وَهُوَ كَالمُحْرَجِ :

ـ كَفَىٰ . . كَفَىٰ يَا مُحَمَّدُ يَا بْنَ جُزِّيٍّ ، دَعْ صَاحِبَكَ ابْنَ بَطُّوطَةَ يُوَافِينَا بِمَا عِنْدَهُ مِنْ سِيرَةِ حَلَبَ وَقَلْعَتِهَا وَرِجَالِهَا الأَفْذَاذِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ تَمَثُّلاً لأَمْرِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلاَيَ . .

تَقَدَّمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي مَقْعَدِهِ مِقْدَارَ خُطْوَةٍ وَتَنَحْنَحَ اسْتِعْدَاداً لاسْتِئْنَافِ الحَدِيثِ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ تِلْكَ هِيَ حَلَبُ يَا مَوْلاَيَ ، وَهِيَ مِنْ أَعَزِّ البِلاَدِ التِي لاَ نَظِيرَ لَهَا فِي حُسْنِ المَوْضِعِ ، وَإِتْقَانِ التَّرْتِيبِ ، وَاتِّسَاعِ الأَسْوَاقِ ، وَمُعْظَمُ أَسْوَاقِهَا مَسْقُوْفَةٌ بِالخَشَبِ ، وَمَسْجِدُهَا الجَامِعُ مِنْ أَجْمَلِ المَسَاجِدِ ، فِي صَحْنِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ ، وَيُحِيطُ بِهِ رُوَاقٌ عَظِيمُ الاتِّسَاعِ ، وَمِنْبَرُهَا بَدِيعُ العَمَلِ مُرَصَّعٌ بِالعَاجِ وَالأَبْنُوسِ ، وَبِقُرْبِ جَامِعِهَا مَدْرَسَةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ فِي حُسْنِ الوَضْعِ وَإِتْقَانِ الصَّنْعَةِ ، وَبِهَا مَا رِسْتَانٌ يُدَاوَىٰ فِيهِ المَرْضَىٰ . وَخَارِجَهَا مَزَارِعُ وَبَسَاتِينُ عَلَىٰ شَاطِئِ نَهْرِهَا . وَالنَّفْسُ تَجِدُ فِي مُتَنَزَّهَاتِهَا انْشِرَاحاً وسُرُوراً وَنَشَاطاً لاَ يَكُونُ فِي سِوَاهَا . وَهِيَ مِنَ المُدُنِ التِي تَصْلُحُ لِلخِلاَفَةِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِرَاوِيَتِهِ وَمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدِّثْنِي عَنْ قَلْعَةِ حَلَبَ حَدِيثاً مُسْتَفِيضاً فَوْقَ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ ، فَلَقَدْ

عَمَّتْ شُهْرَتُهَا الآفَاقَ وَالبُلْدَانَ ، وَأَخْبِرْنِي هَلْ حَظِيتَ بِزِيَارَتِهَا فِي دَاخِلِهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا زُرْتَهُ مِنَ المَعَالِمِ وَآيَاتِ العُمْرَانِ البَشَرِيِّ ؟

ـ لاَ أُخْفِي عَلَيْكَ يَا مَوْلاَيَ أَنَّنِي تَوَسَّطْتُ لَدَىٰ قَاضِيهَا كَمَالِ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ المَذْهَبِ فَوَجَدَ لِي طَرِيقاً إِلَىٰ زِيَارَتِهَا بِاصْطِحَابِهِ ذَاتَ مَرَّةٍ لِلِقَاءِ الأَمِيرِ الدَّوَادَارِ أَرَغُونَ . وَلَكِنَّنِي يَا مَوْلاَيَ لَمْ أَعْدُ المَجْلِسَ الذِي كَانَ فِيهِ الأَمِيرُ ، وَلَمْ أَتَجَوَّلْ فِي أَنْحَائِهَا . وَقَدْ حَصَلَ لِي أَثْنَاءَ إِقَامَتِي فِي حَلَبَ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنَ العَجَبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَاتِ حَدِّثْنِي بِمَا زَعَمْتَ أَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ . فَلَيْسَ شَيءٌ يُغْنِي عَنِ الطَّرَائِفِ وَاللطَائِفِ فِي أَسْمَارِ اللَيَالِي . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ هَذَا حَقٌّ يَا مَوْلاَيَ ، وَمَا حَصَلَ لِي مِنَ الأَعَاجِيبِ كَانَ أَعْجَبُهُ لِقَائِي بِمَنْ سَمَّىٰ نَفْسَهُ ذَاكِرَةَ القَلْعَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَ قَدْ شَغَلَهُ الاهْتِمَامُ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

خَرَجْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَقْصِدُ قَلْعَةَ حَلَبَ لأَطُوفَ حَوْلَ خَنْدَقِهَا الوَاسِعِ العَجِيبِ ، وَأَسْتَشْرِفَ مِئْذَنَةَ جَامِعِهَا الكَبِيرِ فِي أَعْلاَهَا ، وَلَمَّا كُنْتُ بِبَابِهَا شَعَرْتُ بِخُطُوَاتِ مَنْ يُلاَحِقُنِي كَظِلِّي ، وَكَانَ ظَنِّي أَنَّهُ أَحَدُ العَسَسِ أَوْ الحَرَسِ اللَيْلِيِّينَ حَوْلَ القَلْعَةِ ، وَمَا لَبِثَ هَذَا الشَّبَحُ أَنْ اسْتَوْقَفَنِي وَنَادَانِي .

ـ أَيُّهَا الغَرِيبُ ! . . أَيُّهَا الغَرِيبُ ! . .

تَوَقَّفتُ حَيْثُ كُنْتُ مِنْ دَائِرَةِ الخَنْدَقِ ، وَقُلْتُ لِلمُنَادِي :

ـ مَاذَا تُرِيدُ ؟ قَالَ المُنَادِي :

ـ أَلَسْتَ بِرَحَّالَةٍ غَرِيبٍ عَنْ هَذِهِ المَدِينَةِ ؟

قُلْتُ : بَلَىٰ ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ ؟ قَالَ :

ـ عَرَفْتُ مِنْ خُرُوجِكَ فِي اللَيْلِ وَمِنْ نَظَرَاتِكَ الفُضُولِيَّةِ المُسْتَطْلِعَةِ لِمَعَالِمِ القَلْعَةِ . .

تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ فِي أَوَائِلِ لَيَالِيهِ ، وَكَانَ الضَّوْءُ شَحِيحاً تَأَمَّلْتُ فِي وَجْهِ مُكَلِّمِي ، فَبَدَا شَابّاً حَسَنَ الخِلْقَةِ وَهُوَ شِبْهُ أَمْرَدَ لَمَّا يَنْبُتْ شَعْرُ لِحْيَتِهِ وَشَارِبَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ حَسَنُ الهِنْدَامِ كَالأُمَرَاءِ .

قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّابُّ ؟ وَلِمَاذَا اسْتَوْقَفْتَنِي ؟ قَالَ : لَنْ أُجِيبَكَ قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنِيَ : مَنْ أَنْتَ وَمَا حِكَايَةُ خُرُوجِكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ . .

قُلْتُ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ . شَمْسُ الدِّينِ ، بْنُ بَطُّوطَةَ ، أَصْلِي مِنْ طَنْجَةَ فِي بِلَادِ المَغْرِبِ خَرَجْتُ بِقَصْدِ الحَجِّ ، وَقَادَنِي قَدَرِي إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ فِي حِكَايَةٍ . طَوِيلَةٍ . . فَهَلْ تُخْبِرُنِي مَنْ أَنْتَ ؟

قَالَ الرَّجُلُ الشَّابُّ : قَدْ يُدْهِشُكَ تَعَدُّدُ أَسْمَائِي وَلاَ أَوَدُّكَ أَنْ تَعْرِفَنِي بِأَكْثَرَ مِنْ تَسْمِيَتِي لِنَفْسِي بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ ، أُحَدِّثُكَ مِنْ أَخْبَارِهَا بِمَا تَشَاءُ . .

قُلْتُ لِمُحَدِّثِي الشَّابِّ : وَلَكِنْ يَبْدُو لِي أَنَّكَ فِي زَهْوَةِ الشَّبَابِ فَكَمْ عُمُرُكَ ؟ قَالَ عُمُرِي الدَّهْرُ كُلُّهُ ، وَلَكِنَّ شَبَابِي قَدْ تَجَدَّدَ فَأَنَا اليَوْمَ فِي السَّابِعَةِ والثَّلَاثِينَ مُذْ تَمَّتْ عِمَارَتِي فِي أَيَّامِ المَلِكِ الأَشْرَفِ .

وَكَانَ خَرَابِي عَلَىٰ أَيْدِي المَغُولِ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَىٰ المَدِينَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ

وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ المُتَسَلِّطُ البَطَّاشُ هُولاَكُو . .

قُلْتُ لِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ مُبْتَهِجاً وَمُنْتَشِياً بِهَذِهِ الفُرْصَةِ العَجِيبَةِ :

ـ يَا مَنْ دَعَوْتَ نَفْسَكَ بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ ، هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْ أَعْظَمِ مَنْ مَرَّ بِكَ مِنَ المُلُوكِ وَالسَّلاطِينِ الفَاتِحِينَ ، مِمَّنْ تَرَكُوا فِي عُمُرِكَ المَدِيدِ أَثَراً لاَ يُمْحَىٰ وَلاَ يُنَسَىٰ ؟

قَالَ الشَّابُّ : إِنَّهُ ـ وَلاَ شَكَّ ـ مِنْ بَعْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الحَمَدَانِيِّ ، صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ، فَأَوَّلُهُمَا قَاهِرُ الرُّومِ وَرَادِعُهَا عَنْ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ ، وَثَانِيهِمَا هَازِمِ جَحَافِلِ الفِرَنْجَةِ وَمُسْتَرْجِعُ بَيْتِ المَقْدِسِ

قُلْتُ : هَاتِ حَدِّثْنِي بِمَا تَيَسَّرَلَكَ عَنِ البَطَلِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ . .

قَالَ الشَّابُّ : سَيَطُولُ بِنَا الحَدِيثُ فَدَعْنَا نَقْتَعِدْ هَذَا الحَجَرَ العَرِيضَ أَمَامَ الخَنْدَقِ . .

وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، وَكَانَ مِمَّا حَدَّثَنِي بِهِ الشَّابُّ تَحْتَ إِشْرَافِ مِئْذَنَةِ القَلْعَةِ وَأَبْرَاجِهَا ، وَقَمْرِ السَّمَاءِ وَنُجُومِهَا .

قَالَ المُتَحَدِّثُ بِلِسَانِ القَلْعَةِ :

ـ دَخَلَ صَلاحُ الدِّينِ بَيْنَ أَسْوارِي فِي شَهْرِ صَفَرَ مِن عَامِ تِسْعَةٍ وَسَبْعِينَ وَتِسْعِمائَةٍ ، مُجْلِياً عَنْهَا بِالتَّفَاهُمِ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي ، وَقَدْ تَشَرَّفَ بِصَلاحِ الدِّينِ مِقْدَارِي ، وَكَمْ سَمِعَهُ سَامِعٌ وَهُوَ صَاعِدٌ أَدْرَاجِي يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : وَاللهِ مَا سُرِرْتُ بِفَتْحِ مَدِينَةٍ كَسُرُورِي بِفَتْحِ هَذِهِ المَدِينَةِ ثُمَّ صَارَ إِلَىٰ المَقَامِ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَتَجَوَّلَ فِي رِحَابِي ، وَجَلَسَ يَتَلَقَّىٰ التَّهَانِي بِفَتْحِ حَلَبَ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ الوُجَهَاءُ وَالأَعْيَانُ وَالشُّعَرَاءُ . وَأَنْشَدَهُ القَاضِي مُحْيِي الدِّينِ فِي حَضْرَتِي قَصِيدَةَ البُشْرَىٰ العَجِيبَةِ مُتَنَبِّئاً بِأَنْ يَتُمَّ لَهُ فَتْحُ القُدْسِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ عَامٍ قَادِمٍ ، قَالَ :

وَفَتْحُكَ القَلْعَةَ الشَّهْبَاءَ فِي صَفَرٍ   مُبَشِّرٌ بِفُتُوحِ القُدْسِ فِي رَجَبِ

لَمْ يَطُلِ الأَمَدُ عَلَىٰ هَذِهِ البُشْرَىٰ العَجِيبَةِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَوَاتٍ أَرْبَعٍ ، وَكَانَتْ هَزِيمَةُ حُشُودِ الفِرَنْجَةِ فِي حِطِّينَ ، وَتَمَّ فَتْحُ القُدْسِ الشَّرِيفِ عَامَ ثَلاثَةٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ ، وَعَادَتْ إِلَىٰ المُسْلِمِينَ قِبْلَتُهُم الأُولَىٰ بَعْدَ أَنْ سُلِبَتْ مِنْهُمْ مُدَّةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ سَنَةً . وَصَلَّىٰ صَلاحُ الدِّينِ فِي قُبَّةِ

الصَّخْرَةِ ، وَحَمَلَ أَهْلِي فِي حَلَبَ إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ هَدِيَّتَهُمْ النَّفِيسَةِ مِنْبَراً فَخْماً اسْتَغْرَقَ صُنْعُهُ عِشْرِيْنَ سَنَةً بِوَصِيَّةٍ مِنَ الأَمِيرِ الصَّالِحِ نُورِ الدِّينِ .

شَاقَتْنِي رُؤْيَةُ صَلاحِ الدِّينِ البَطَلِ التَّقِيِّ الوَرِعِ المُجَاهِدِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ صَلَّيْتُ عَلَىٰ أَذْيَالِهِ مَحَبَّةً وَإِعْجَاباً بِإِرَادَتِهِ وَتَصْمِيمِهِ عَلَىٰ رَفْعِ رَايَةِ الأُمَّةِ وَجِبَاهِهَا بِتَحْقِيقِ النَّصْرِ المُبِينِ .

كُنْتُ أَسْتَطْلِعُهُ فِي وَجْهِ المَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي وَفِيمَا خَلَّفَهُ مِنْ آثَارٍ وَصَنَائِعَ مِنْهَا المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ وَمِنْهَا مَسْجِدِي الكَبِيرُ بِالقُرْبِ مِنَ المَنَارَةِ .

كَانَ صَلاحُ الدِّين ثَابِتَ العَقِيدَةِ عَادِلاً رَؤُوفاً رَحِيماً نَاصِراً للضُّعَفَاءِ ، كَثِيرَ العَطَاءِ ، وَهُوَ مِنْ عُظَمَاءِ الشُّجْعَانِ المُوَاظِبِينَ عَلَىٰ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله ، وَلَنْ يَتَّسِعْ مَجْلِسُنَا لِتَعْدَادِ شِيَمِهِ النَّبِيلَةِ وَلاَ لِتَعْدَادِ بَعْضِهَا . .

وَلَقَدْ وَعَيْتُ فِي ذَاكِرَتِي مَا لاَ أَنْسَاهُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِوَلَدِهِ المَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي ، عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَىٰ حَلَبَ بَعْدَ عَقْدِ الهُدْنَةِ مَعَ الفِرَنْجَةِ ، وَأَهَمُّ مَا

فِيهَا تَقْوَىٰ الله وَرِعَايَةُ حُقُوقِ النَّاسِ .

وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَرَضِهِ ، وَهُو مُقِيمٌ فِي دِمَشْقَ ، إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ فِيهَا بِعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ صَفَر سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ . . رَحِمَهُ الله . .

فَجْأَةً نَشَجَ مُحَدِّثِي بِالبُكَاءِ وَهُوَ يُرَدِّدُ : رَحِمَهُ الله . . رَحِمَهُ الله . . . وَقَالَ : (كَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ تُوَارِيَهِ تُرْبَتِي ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله العَلِيِّ العَظِيم) .

قَامَ الشَّابُّ المُتَسَمِّي بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ مِنْ جَانِبِي ، وَخَلَّفَنِي وَحِيداً مُتَأَلِّماً ، أَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِي وَبِوُدِّي أَنْ أَجْرِي خَلْفَ ذَاكِرَةِ القَلْعَةِ الحَلَبِيَّةِ عَسَىٰ أَنْ يُحَدِّثَنِي لِسَانُهَا بِالمَزِيدِ . .

هُنَا ، خَتَمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ بِدَمْعَتَيْنِ حَارَّتَيْنِ ، وَفَتَحَ كَفَّيْهِ لِقِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ عَلَىٰ رُوحِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَكَاتِبُهُ ابْنُ جُزَّيٍّ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

المجموعة التاريخية للصغار

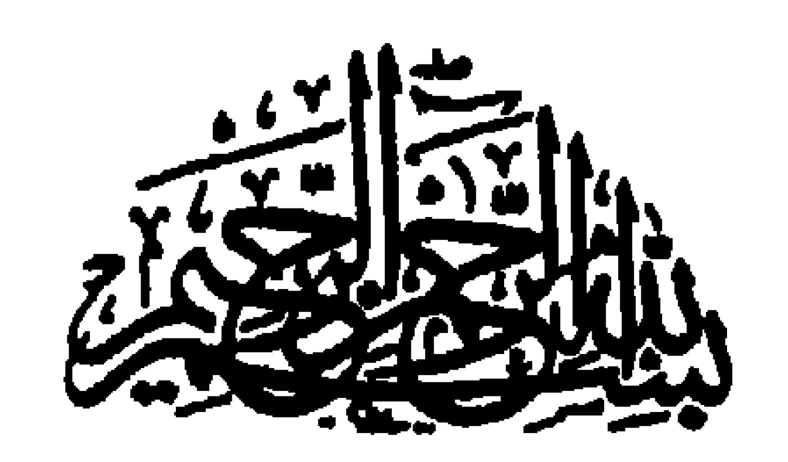
عجائب رحلة ابن بطوطة

المهديّ الدّجالُ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المَهْدِيُّ الدَّجَّالُ

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِلرَّحَّالَةِ الأَمِينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَاتِ حَدِّثْنَا عَمَّا جَرَىٰ لَكَ ، وَعَمَّا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ مِنَ العَجَائِبِ مُذْ كُنْتَ فِي حَلَبَ ، وَقَدْ خَصَصْتَ مُعْظَمَ حَدِيثِهَا وَأَطْرَافَهُ عَنْ قَلْعَتِهَا الشَّامِخَةِ الَتِي بَاتَ لَهَا ضَمِيرٌ وَذَاكِرَةٌ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ هَذِهِ المَرَّةَ عَنْ عَجَائِبِ مَا مَرَّ بِي وَمَا حَدَّثَنِي بِهِ النَّاسُ فِي سَوَاحِلِ بِلَادِ الشَّامِ المُبَارَكَةِ التِي بَارَكَ اللهُ فِيهَا بِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ اكْتُبْ يَا بْنَ جُزِّيٍّ ، بَارَكَ اللهُ فِي هِمَّتِكَ .

وَانْطَلَقَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ يَقُولُ :

سَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ حَلَبَ إِلَىٰ مَدِينَةِ تِبْزِينَ ، وَهِيَ عَلَىٰ طَرِيقِ قِنِّسْرِينَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ كَبِيرَةٌ جَرَّبَتْهَا الظُّرُوفُ وَالزُّحُوفُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ رُسُومٌ وَمَعَالِمُ تَشْهَدُ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ . . ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَىٰ مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَةَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ أَصِيلَةٌ ، وَكَانَ عَلَيْهَا سُورٌ مُحْكَمٌ لاَ نَظِيرَ لَهُ فِي أَسْوَارِ بِلاَدِ الشَّام فَلَمَّا فَتَحَهَا المَلِكُ الظَّاهِرُ أَمَرَ بِتَهْدِيمِهِ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلْكُفَّارِ مُعْتَصَماً وَحِمَايَةً . . وَقَدْ دُهِشْتُ بِمَا فِي انْطَاكِيَةِ مِنْ كَثْرَةِ العِمَارَةِ وَحُسْنِ البِنَاءِ ، وَكَثْرَةِ الأَشْجَارِ وَالمِيَاهِ ، وَبِخَارِجِهَا نَهْرُ العَاصِي . وَفِيهَا مِنْ خِيرَةِ الرِّجَالِ المُعَمِّرِينَ مَنْ نَوَّفَ عُمُرُهُ عَلَىٰ الثَّمَانِينَ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ فِي هِمَّةِ ابْنِ العِشْرِينَ .

وَسَافَرْتُ مِنْ أَنْطَاكِيَةَ إِلَىٰ حِصْنِ بَغْرَاسَ ، وَهُوَ حِصْنٌ مَنِيعٌ لاَ يُرَامُ تَحُفُّ بِهِ البَسَاتِينُ وَالمَزَارِعُ ، وَمِنْهُ يُدْخَلُ إِلَىٰ بِلاَدِ سِيسَ التِي يَسْكُنُهَا

الأَرْمَنُ ، وَقَدْ دَانُوا لِلمَلِكِ النَّاصِرِ يُؤَدُّونَ إِلَيْهِ الأَمْوَالَ وَالدَّرَاهِمَ مِنَ الفِضَّةِ الخَالِصَةِ المُمْتَازَةِ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَلاَ عَلَيْكَ يَا مَوْلاَيَ مِنْ كَثْرَةِ الحُصُونِ التِي مَرَرْتُ بِهَا فِي طَرِيقِي إِلَىٰ مَدِينَةِ جَبْلَة مِنْ سَواحِلِ بِلاَدِ الشَّامِ، وَأَذْكُرُ مِنْهَا حُصُونَ القُصَيْرِ وَالقَدْمُوْسِ وَالمَيْنَقَةَ وَمِصْيَافَ . . وَمُعْظَمُ هَذِهِ الحُصُونِ يَلُوذُ بِهَا أَهْلُ طَائِفَةٍ تُعْرَفُ بِالفِدَّاوِيَّةِ ، وَلاَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الحُصُونِ المَنِيعَةِ فِي رؤوسِ الجِبَالِ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ مِلَّتِهِمْ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُم يُسْتَأْجَرُونَ مِنْ قِبَلِ المُلُوكِ لاغْتِيَالِ مَنْ يُرِيدُونَ اغْتِيَالَهُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ لِقَاءَ مَالٍ جَزِيلٍ ، وَهَؤُلاءِ الفِدَّاوِيَّةُ لَهُمْ سَكَاكِينُ مَسْمُومَةٌ يَضْرِبُونَ بِهَا مَنْ بُعِثُوا إِلَىٰ قَتْلِهِ . .

هُنَا قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ لَعَلَّكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ قَدْ اخْتَصَرْتَ كَثِيراً مِنَ الأَعَاجِيبِ التِي تَسْتَحِقُّ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا بِحَدِيثٍ أَوْ قِصَّةٍ أَوْخَبَرٍ مِمَّا سَمِعْتَهُ أَوْ مِمَّا جَرَىٰ لَكَ فِي تِلْكَ البِلادِ ؟ .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لِيَعْلَمْ مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ أَنَّنِي مَا اخْتَصَرْتُ مَا اخْتَصَرْتُ إِلاَّ لأُحَدِّثَهُ بِعَجِيبَتَيْنِ مِنْ أَعْجَبِ القِصَصِ ، وَهُمَا حِكَايَتَا أَدْهَمَ الزَّاهِدِ ، وَالمَهْدِيِّ الدَّجَّالِ وَهِيَ أَعْجَبُ الحِكَايَاتِ التِي تَذْكُرُهَا جَبْلَةٌ . وَأَرْجُو مِنْ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَنْ يُسْبغَ عَلَيَّ مِنْ حِلْمِهِ قَلِيلاً ، حَتَّىٰ أُوَافِيَهُ بِمَا يُعْجِبُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لَكَ ذَلِكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ ، ودَعْ كَاتِبَنَا ابْنَ جُزَيٍّ لِيَسْتَرِيحَ قَلِيلاً مِنْ عَنَاءِ الكِتَابَةِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ أَنَا عِنْدَ أَمْرِ مَوْلاَيَ وَمَرْضَاتِهِ ، وَالحَقِيقَةُ أَنَّ التَّعَبَ فِي سَبِيلِ رِضَاكُمْ رَاحَةٌ وَرِزْقٌ مُكْتَسَبٌ لأَنَّهُ يَسِيلُ مِنْ يِدَيْ رَجُلٍ كَرِيمٍ . .

هُنَا ، تَنَحْنَحَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِيَمْنَعَ ابْنَ جُزِّيٍّ مِنَ الاسْتِرْسَالِ فِي المَدِيحِ ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ يِسْتَدْعِي الحَاجِبَ فَلَمَّا مَثَلَ بِيْنَ يِدَيْهِ أَمَرَهُ بِإِحْضَارِ بِعْضِ الفَاكِهَةِ وَالنُّقُولِ لِيَجْعَلَ اسْتِرَاحَتَهُمْ اسْتِرَاحةً مُسَلِّيَةً بِمَا يَشْغَلُ الفَمَ وَيَبُلُّ الرِّيقَ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَاتِ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ ، حَدِّثْنَا بِخَبَرِ . . بِخَبَرِ الرَّجُلِ الزَّاهِدِ أَوَّلاً . .

قَال ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ .

قَالَ :

ـ لَمَّا كُنْتُ يَا مَوْلَايَ عَلَىٰ بُعْدِ مِيلٍ مِنْ مَدِينَةِ جَبْلَةَ ، دَخَلْتُ مَنْطِقَةً ذَاتَ أَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ ، يَشُقُّهَا طَرِيقٌ حَافِلٌ بِالقَاصِدِينَ فَتَبِعْتُ خُطَاهُمْ ، فَإِذَا أَنَا أَمَامَ مَشْهَدٍ ضَخْمٍ بِهِ قَبْرُ وَلِيٍّ صَالِحٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ . وَكَانَ فِي خِدْمَةِ المَزَارِ حَاجِبٌ طَلْقُ المُحَيَّا وَالأَسَارِيرِ ، فَلَمَّا خَفَّ وُفُودُ النَّاسِ المُتَبَرِّكِينَ اجْتَمَعْتُ بِهِ فِي جَانِبٍ مِنَ المَكَانِ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُحَدِّثَنِي بِخَبَرِ صَاحِبِ القَبْرِ الذِي اتُّخِذَ مَزَاراً وَمَحَجّاً ، فَقَالَ لِي : إِنَّهُ قَبْرُ الوَلِيِّ الصَّالِحِ الشَّهِيرِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ أَدْهَمَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ . وَإِبْرَاهِيمُ هَذَا هُوَ الذِي وَرِثَ مُلْكاً وَلَكِنَّهُ نَبَذَهُ نَبْذاً وَآثَرَ أَنْ يَنْقَطِعَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ . عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ مُلْكٍ كَمَا يَظُنُّهُ النَّاسُ ، وَإِنَّمَا وَرِثَ المُلْكَ عَنْ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ عَلَىٰ إِثْرِ حَادِثَةٍ مِنْ أَعْجَبِ الحَوَادِثِ بَيْنَ البَشَرِ الأَتْقِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، وَهُمْ قِلَّةٌ ، خَصَّهُمُ اللهُ بِهُدَاهُ وَفَضْلِهِ فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا خَيْراً لِلنَّاسِ وَبَرَكَةً .

قُلْتُ لِمُحَدِّثِي خَادِمُ المَزَارِ : لَقَدْ شَوَّقْتَنِي لِسَمَاعِ حِكَايَةِ الدَّفِينِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ حِكَايَةِ أَبِيهِ أَدْهَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَدْهَمُ يَقْطُنُ فِي مَدِينَةِ بُخَارَىٰ مِنْ مُدُنِ خُرَاسَانَ ، فَمَرَّ يَوْماً بِأَحَدِ

البَسَاتِينِ حَوْلَ المَدِينَةِ وَتَوَضَّأَ مِنْ مَاءِ نَهْرٍ كَانَ يَعْبُرُ البَسْتَانَ ، وَلَمْ يَكَدْ يَفْرَغُ مِنْ وُضُوئِهِ حَتَّىٰ سَقَطَتْ تُفَّاحَةٌ مِنْ شَجَرَةِ تُفَّاحٍ كَانَتْ فَوْقَ النَّهْرِ فَاشْتَهَاهَا وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذِهِ التُّفَّاحَةُ مِنْ نَصِيبِي ، وَلاَ حَرَجَ مِنْ أَكْلِهَا ، فَأَكَلَهَا . وَلَمْ تَكَدِ التُّفَّاحَةُ المُتَاحَةُ تَسْتَقِرُّ فِي مَعِدَتِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ فِي خَاطِرِهِ مِنْ ذَلِكَ وَسْوَاسٌ عَظِيمٌ بِأَنَّ التُّفَّاحَةَ لَيْسَتْ مِنْ حَقِّهِ ، وَلاَ مِنْ حَلاَلِهِ ، وَلاَبُدَّ مِنِ اسْتِسْمَاحِ صَاحِبِ البُسْتَانِ لِيُحَلِّلَ لَهُ مَا أَكَلَ مِنْ مَالِهِ .

وَمَضَىٰ أَدْهَمُ الصَّالِحُ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِ البُسْتَانِ فَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ مَنْزِلٍ قَرِيبٍ ، فَقَرَعَ بَابَهُ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِي لِي صَاحِبَ المَنْزِلِ ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ لامْرَأَةٍ ، فَقَالَ اسْتَأْذِنِي لِي عَلَيْهَا ، فَفَعَلَتْ ، فَلَمَّا أَذِنَتْ لَهُ حَدَّثَهَا بِخَبَرِ التُّفَّاحَةِ التِي اسْتَجَازَ لِنَفْسِهِ أَكْلَهَا مِنْ دُونِ حَقٍّ ، وَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تُسَامِحَهُ أَوْ أَنْ تُقِيلَهُ مِنَ الحَرَامِ بِأَخْذِ ثَمَنِهَا مَهْمَا بَلَغَ . فَقَالَتْ لَهُ المَرْأَةُ : إِنَّ هَذَا البُسْتَانَ نِصْفُهُ لِي وَنِصْفُهُ الآخَرُ لِلسُّلْطَانِ ، وَكَانَ مَقَرُّ السَّلْطَنَةِ فِي مَدِينَةِ بَلْخٍ عَلَىٰ سَفَرِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ بُخَارَىٰ حَيْثُ البُسْتَانُ ، فَسَأَلَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ المَرْأَةَ أَنْ تُحِلَّهُ مِنْ أَكْلِ نِصْفِ التُّفَّاحَةِ فَأَحَلَّتْهُ . وَمَضَىٰ فِي سَبِيلِهِ إِلَىٰ بَلْخٍ فَلَمَّا دَخَلَهَا بَعْدَ جُهْدٍ وَمَشَقَّةٍ

تَصَادَفَ عُبُورُ مَوْكِبِ السُّلْطَانِ فَاعْتَرَضَهُ ، وَكَادَ حُرَّاسُ المَوْكِبِ يُؤْذُونَهُ لَوْلاَ أَنْ أَذِنَ لَهُ السُّلْطَانُ بِأَنْ يُفْضِيَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِهِ ، فَأَبْدَىٰ اسْتِعْدَادَهُ لِمُسَامَحَتِهِ فِي نِصْفِ التُّفَّاحَةِ ، وَلَكِنَّهُ طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِ فِي قَصْرِهِ مِنَ الغَدِ .

وَكَانَ لِلسُّلْطَانِ بِنْتٌ رَائِعَةُ الجَمَالِ تَكَاثَرَ مِنْ حَوْلِهَا الخُطَّابُ مِنْ أَبْنَاءِ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ وَلَكِنَّهَا تَمَنَّعَتْ وَأَبَتْ وَحُبِّبَتْ إِلَيْهَا العِبَادَةُ وَتَسَقُّطُ أَخْبَارِ الصَّالِحِينَ ، وَأَبْدَتْ أَنَّهَا لاَتُحِبُّ أَنْ تَتَزَوَّجَ إِلاَّ مِنْ رَجُلٍ صَالِحٍ وَرِعٍ زَاهِدٍ فِي الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا .

فَلَمَّا عَادَ السُّلْطَانُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ، أَخْبَرَ ابْنَتَهُ التَّقِيَّةَ النَّقِيَّةَ بِحَدِيثِ أَدْهَمَ الزَّاهِدِ ، وَقَالَ لَهَا : مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشَدَّ وَرَعاً مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، يَأْتِي مِنْ بُخَارَىٰ إِلَىٰ بَلْخٍ لأَجْلِ نِصْفِ تُفَّاحَةٍ ، فَأَبْدَتِ الفَتَاةُ رَغْبَتَهَا فِي أَنْ تَتَزَوَّجَهُ بِإِذْنِ أَبِيهَا السُّلْطَانِ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي الغَدِ قَالَ لَهُ : اعْلَمْ

أَنَّنِي لاَ أُحِلُّكَ مِنْ نِصْفِ التُّفَّاحَةِ إِلاَّ إِذَا تَزَوَّجْتَ ابْنَتِي ، وَهِيَ مِثْلُكَ ذَاتُ تَقْوَىٰ وَصَلاَحٍ .

انْصَاعَ أَدْهَمُ الصَّالِحُ إِلَىٰ رَغْبَةِ السُّلْطَانِ بَعْدَ اسْتِعْصَاءٍ وَتَمَنُّعٍ فَتَزَوَّجَ مِنْهَا ، وَخَلاَبِهَا لَيْلَةً وَاحِدَةً وَاخْتَارَهُ الله إِلَىٰ جِوَارِهِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَتْ مِنْهُ بِوَلَدِهَا إِبْرَاهِيمَ . وَلَمَّا كَانَ سُلْطَانُ بَلْخٍ بِلاَ عَقِبٍ مِنَ الذُّكُورِ اخْتَارَ سِبْطَهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ لِيَكُونَ وَلِيّاً لِعَهْدِهِ . وَلَمَّا شَبَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَىٰ مَنْهَجِ أَبِيهِ فِي التَّقْوَىٰ وَالزُّهْدِ تَخَلَّىٰ عَنِ المُلْكِ ، وَسَاحَ فِي البِلاَدِ إِلَىٰ أَنْ كَانَتْ نِهَايَتَهُ وَوَفَاتَهُ ، وَكَانَ مَدْفَنُهُ هَاهُنَا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ مَدِينَةِ جَبْلَةَ . . وَهَاهُنَا زَاوِيَةٌ يَقْصِدُهَا الكَثِيرُونَ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الشَّامِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَيُهْدِي كُلٌّ مِنْهُم إِلَىٰ المَزَارِ شَمْعَةً ، وَيَجُودُ بِمَا تَيَسَّرَ لَهُ فِي إِكْرَامِ الخَادِمِ المُسَخَّرِ لِوَلِيِّ الله .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ حَقّاً إِنَّهَا لَقِصَّةٌ عَجِيبَةٌ ، لَو كُتِبَتْ بِرُؤُوسِ الإِبَرِ عَلَىٰ آمَاقِ البَصَرِ

لَكَانَتْ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ . . اكْتُبْ يَا ابْنَ جُزَيٍّ ، اكْتُبْ ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ . . وَالآنَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ مَاذَا عَنِ المَهْدِيِّ الدَّجَّالِ الذِي وَعَدْتَنَا بِخَبَرِهِ العَجِيبِ ؟ !

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

أَمَّا عَنْ خَبَرِ المَهْدِيِّ الدَّجَّالِ فَقَدْ حَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ جَبْلَةَ ، وَذَكَرَ لِي أَنَّ رَجُلاً مَجْهُولاً حَلَّ فِي دِيَارِهِمْ فَاسْتَغَلَّ جَهْلَهُمْ وَطِيبَةَ قُلُوبِهِمْ وَبُعْدَهُمْ عَنِ الدِّينِ ، وَاعْتِزَالَهُم فِي وَعْرٍ مِنَ الأَرْضِ وَالجِبَالِ وَادَّعَى فِيهِم أَنَّهُ رَسُولٌ جَاءَ لِهِدَايَتِهِم وَإِنْصَافِهِمْ مِنْ مَظَالِمِ مَنْ حَوْلَهُمْ ، وَوَعَدَهُم بِتَمَلُّكِ البِلَادِ وَالتَّحَكُّمِ بِرِقَابِ العِبَادِ . وَبَلَغَ مِنْ دَهَائِهِ وَمَكْرِهِ أَنَّهُ قَرَنَ أَسْمَاءَ أَتْبَاعِهِ وَصُوَرَهُمْ بِوَرَقِ أَشْجَارِ الزَّيْتُونِ فَكَانَ يَقُولُ لأَحَدِهِمْ : اذْهَبْ وَأَحْضِرْ لِي وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَلَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهَا أَمْرُ تَكْلِيفِكَ وَتَشْرِيفِكَ . وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا ذَهَبَ وَجَاءَهُ بِوَرَقَةٍ مِنْ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ يَقُولُ المَهْدِيُّ المُدَّعِي : هَاتِ غَيْرَهَا وَغَيْرَهَا وَهُوَ يُوهِمُهُ بِقِرَاءَةٍ جَادَّةٍ وَتَطَلُّعٍ فِي وَجْهِهِ لاسْتِقْرَاءِ المَكْتُوبِ فِيهَا مُقْتَرِناً بِاسْمِ صَاحِبِهَا المَخْدُوعِ وَبِصُورَةِ وَجْهِهِ ، وَمَايَزَالُ الدَّجَّالُ يُجْهِدُ قَاصِدَهُ بَيْنَ

خُذْ وَهَاتِ حَتَّىٰ يَمْنَحَهُ وَرَقَةَ التَّكْلِيفِ قَائِلاً لَهُ : تَوَجَّهْ إِلَىٰ البَلَدِ الفُلاَنِيِّ ، فَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكَكَ وَغَدَوْتَ آمِراً عَلَيْهِ . وَكَانَ أَحَدُ مُصَدِّقِيهِ إِذَا تَوَجَّهَ بِوَرَقَةِ الزَّيْتُونِ إِلَىٰ البَلْدَةِ التِي ذَكَرَهَا لَهُ المَهْدِيُّ الدَّجَّالُ ، يَقُولُ لأَمِيرِهَا عَنْ ثِقَةٍ : إِنَّ الإِمَامَ المَهْدِيَّ قَدْ أَعْطَانِي هٰذِهِ البَلْدَةِ لِتَكُونَ تَحْتَ إِمْرَتِي فَيَقُولُ لَهُ : أَيْنَ الأَمْرُ ؟ فَيُخْرِجُ لَهُ وَرَقَةَ الزَّيْتُونِ ، فَمَايَكُونُ جَزَاؤُهُ إِلاَّ الضَّرْبُ وَالحَبْسُ .

وَلَمَّا اشْتَكَىٰ الكَثِيرُونَ إِلَىٰ المَهْدِيِّ الدَّجَّالِ مِمَّا يَجْرِي لَهُمْ مِنَ الحَبْسِ وَالإِهَانَةِ وَالتَّكْذِيبِ ، قَالَ لِمَجْمُوعِهِمْ خُذُوا سُيُوفَكُمْ وَانْتَصِرُوا لِلحَقِّ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَبْدَؤُوا بِمَدِينَةِ جَبْلَةَ ، فَغَدَرُوهَا وَدَخَلُوهَا وَقْتَ صَلاَةِ الجُمُعَةِ ، فَاقْتَحَمُوا الدُّورَ ، وَهَتَكُوا سِتْرَ الحَرِيمِ ، وَفَرِحُوا بِانْتِصَارَاتِهِمْ ، فَلَمَّا دَرَىٰ رِجَالُ المَدِينَةِ بِمَا جَرَىٰ خَرَجُوا لِلِقَائِهِمْ ، فَإِذَا بِهِمْ يَفِرُّون كَالجُرْذَانِ المَذْعُورَةِ ، وَمَازَالُوا يَتْبَعُونَهُمْ حَتَّىٰ قَتَلُوا مِنْهُمْ المِئَاتِ وَالأُلُوفَ وَانْدَحَرُوا شَرَّ انْدِحَارٍ ، أَمَّا مَهْدِيُّهُمُ الضَّالُّ الدَّجَّالُ فَقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الفِرَارِ . فَلَمَّا طَلَبَهُ أَمِيرُ اللاذِقِيَّةِ ، وَأَمِيرُ الأُمَرَاءِ بِطَرَابُلُسَ لَمْ يُعْثَرْ لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ ، وَتَحَصَّنَ بَقِيَّةُ الفَارِّينَ بِالجِبَالِ وَبَعَثُوا وُفُوداً مِنْهُم

يُعْلِنُون توْبَتَهُمْ ، وَيُكَفِّرُونَ المَهْدِيَّ الدَّجَّالَ وَيَعِدُونَ بِالبَحْثِ عَنْهُ لِتَسْلِيمِهِ لأَحَدِ الأَمِيرَيْنِ فِي اللاذِقِيَّةِ أَوْ طَرَابُلُسَ لِيَلْقَىٰ جَزَاءَهُ العَادِلَ بِالحُكْمِ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ .

وَكَانَ الخَبَرُ قَدْ طُيِّرَ بِهِ الحَمَامُ الزَّاجِلُ إِلَىٰ المَلِكِ النَّاصِرِ فِي مِصْرَ ، وَصَدَرَ جَوَابُهُ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِمْ بِالسُّيُوفِ حَتَّىٰ يُبَادُوا عَنْ آخِرِهِم ، لَكِنَّ أَمِيرَ الأُمَرَاءِ بِطَرَابُلُسَ رَاجَعَهُ فِي أَمْرِهِمْ ، وَقَالَ لَهُ : يَامَوْلاَيَ ، إِنَّهُم مِنَ المُضِلِّلِينَ الذِينَ عَادُوا تَائِبِينَ ، وَهُمْ عُمَّالُ المُسْلِمِينَ فِي حِرَاثَةِ الأَرْضِ ، وَإِذَا قُتِلُوا ضَعُفَ المُسْلِمُونَ لِشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ ثَمَرَاتِ أَرَاضِيهِمْ وَنَتَاجِ غَلاَّتِهِمْ ، فَرَجَعَ المَلِكُ النَّاصِرُ عَنْ قَرَارِهِ السَّابِقِ بِإِبَادَتِهِمْ وَأَمَرَ بِالإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَبِالإِكْثَارِ مِنْ بِنَاءِ المَسَاجِدِ فِي مَرَابِعِهِمْ .

أَمَّا المَهْدِيُّ الدَّجَّالُ فَقَدْ هَتَكَ اللهُ سَتْرَهُ وَمَسَخَ وَجْهَهُ رُوَيْداً رُوَيْداً إِلَىٰ وَجْهِ قِرْدٍ ، فَقُبِضَ عَلَيْهِ ، وَأُسْلِمَ إِلَىٰ صَاحِبِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي مَدِينَةِ جَبْلَةَ ، وَاجْتَمَعَ أَمْرُ الفُقَهَاءِ المُسْلِمِينَ وَالقُضَاةِ وَالوَالِي عَلَىٰ إِنْزَالِ عُقُوبَةِ

المَوْتِ بِهِ بِلاَ إِبْطَاءٍ ، فَأُعْدِمَ خَنْقاً أَمَامَ عُيُونِ المُحْتَشِدِينَ عَلَىٰ بَابِ جَامِعِ جَبْلَةَ ، وَتَمَّ أَمْرُ الله ، لِتَظَلَّ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فِي حَادِثٍ عَجِيبٍ لاَ يُنْسَىٰ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ الفَاسِيُّ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ الأَمِينِ أَبِي عَبْدِ الله شَمْسِ الدِّينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله . . حَقاً إِنَّهُ حَادِثٌ عَجِيبٌ لاَ يُنْسَىٰ ، وَفِيهِ كُلُّ مَوْعِظَةٍ وَعِبْرَةٍ . .

طَوَىٰ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَّيٍّ سِجِلَّ الكِتَابَةِ ، فَقَالَ لَهُ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لِمَاذَا طَوَيْتَ سِجِلَّ الكِتَابَةِ يَا ابْنَ جُزَّيٍّ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكَ ؟ !

أَجَابَ ابْنُ جُزَّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ لَيْسَ بَعْدَ حِكَايَةِ المَهْدِيِّ الدَّجَّالِ مَا يَرِيدُ عَنْهَا إِثَارَةً لِلعَجَبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ صَـدَقْـتَ يَـا بْـنَ جُـزِّيٍّ ، لَيْـسَ بَعْـدَهَـا قِصَّـةٌ تُثِـيرُ العَجَـبَ ، وَلا الإِعْجَابَ ، بَارَكَ الله فِيكُمَا مُحَدِّثاً وَكَاتِباً ، وَإِلَىٰ اللقَاءِ فِي لَيْلَةٍ قَادِمَةٍ لِيُحَدِّثُنَا ابْنُ بَطُّوطَةَ بِالمَزِيدِ مِنَ العَجِيبِ وَالمُعْجِبِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

عجائب رحلة ابن بطوطة

حارسُ البستان

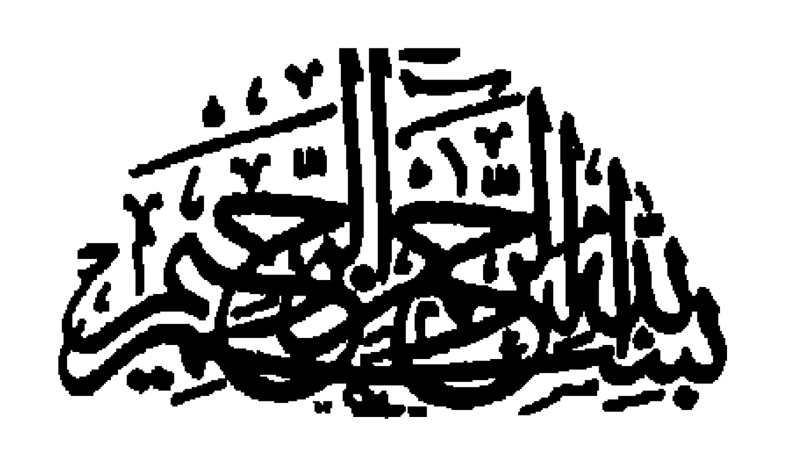


إعداد

عبد القادر محمد مايو

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس: 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

حارس البستان

ذَاتَ مَسَاءٍ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ سُلْطَانُ فَاسَ وَمَا حَوْلَهَا ، فَرَغَ مِنْ هُمُومِ النَّهَارِ ، وَمِنْ مَشَاغِلِ النَّاسِ ، وَمَا كَادَ حَتَّىٰ أَذَّنَ مُؤَذِّنُ القَصْرِ بِأَذَانِ العِشَاءِ فَطَلَبَ إِلَىٰ ضَيْفِهِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَؤُمَّهُ فِي الصَّلَاةِ وَقَدْ أَخَذَ الإِعْيَاءُ مِنْهُ مَأْخَذَهُ فَقَامَ الرَّحَالَةُ الأَمِينُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِمَاماً فِي مَوْلَاهُ السُّلْطَانِ وَرَفِيقِهِ وَنَدِيمِهِ الكَاتِبِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ . وَكَانَ أَنْ قَرَأَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي وُقُوفِهِ لِلرَّكْعَةِ الأُولَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ مِنْ سُورَةِ الطَّلَاقِ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ . وَقَرَأَ الإِمَامُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنَ السُّورَةِ نَفْسِهَا فِي قِيَامِهِ لِلرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

فَلَمَّا فَرَغَ الإِمَامُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ صَلاَتِهِ بِالسُّلْطَانِ وَكَاتِبِهِ إِمَاماً ، وَأَدَّىٰ مَا تَبَقَّىٰ مِنْ صَلاَةِ السُّنَّةِ وَوَاجِبِ الوِتْرِ ، جَلَسَ فِي جَانِبٍ مِنَ القَاعَةِ الوَسِيعَةِ فِي انْتِظَارِ أَنْ يَفْرَغَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ وَكَاتِبُهُ ابْنُ جُزَيٍّ مِنْ صَلاَتِهِمَا ، فَلَمَّا فَرَغَا دَعَا لَهُمَا بِالتَّقَبُّلِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي كَانَتِ الصَّلاَةُ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ .

اسْتَقَرَّ بِهِمُ المَجْلِسُ فِي صَمْتٍ خَيَّمَتْ فِي أَرْجَائِهِ هَيْبَةُ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ ، وَلَبِثَ السُّلْطَانُ بُرْهَةً يَحُكُّ عُثْنُونَهُ أَسْفَلَ لِحْيَتِهِ وَلاَ يَتَكَلَّمُ ثُمَّ تَنَحْنَحَ قَلِيلاً ، وَتَوَجَّهَ إِلَىٰ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِالسُّؤَالِ قَائِلاً :

ـ هَلْ كَانَ اخْتِيَارُكَ لِمَا قَرَأْتَ فِي صَلاَتِكَ مِنْ سُورَةِ الطَّلاَقِ عَنْ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ أَمْ قَرَأْتَ قِرَاءَتَكَ مِنْ دُونِ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ تُلْمِحُ إِلَيْهِ ؟ .

وَأَضَافَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ مُتَسَائِلاً وَهُوَ يُوَجِّهُ نَظَرَهُ إِلَىٰ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِابْتِسَامَةٍ غَامِضَةٍ يُخْشَىٰ مِنْهَا مَا يُخْشَىٰ ، وَيُؤَمَّلُ مَا يُؤَمَّلُ :

ـ هَلْ كَانَ نُكُوصُكَ فِي القِرَاءَةِ مِنْ آيَاتٍ بَعْدُ إِلَىٰ آيَاتٍ قَبْلُ فِي السُّورَةِ نَفْسِهَا ، ضِمْنَ قَصْدٍ تَقْصِدُهُ أَوْ مَأْرَبٍ تُلْمِحُ إِلَيْهِ ؟ .

اضْطَرَبَ ابْنُ بَطُّوطَةَ اضْطِرَاباً فِي دَاخِلِهِ ، وَانْعَكَسَ فِي اكْفِهْرَارِ وَجْهِهِ ، لِهَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ المُفَاجِئَةِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتَرْجَعَ فِي نَفْسِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَقَالَ : (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وَاحْتَسَبَ مُرَدِّداً : (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) ، وَتَرَحَّمَ عَلَىٰ رُوحِ وَالِدِهِ فِي سِرِّهِ ، وَهُوَ يَذْكُرُ نَصِيحَتَهُ لَهُ قَائِلاً : إِيَّاكَ وَصُحْبَةَ السُّلْطَانِ ، فَإِنَّ غَدَرَاتِهِ أَمَرُّ وَأَدْهَىٰ مِنْ غَدَرَاتِ الزَّمَانِ . .

كَانَ هَذَا مَا جَالَ فِي خَاطِرِ ابْنِ بَطُّوطَةَ المُسْتَهْدَفِ بِرِيبَةِ السُّلْطَانِ ، قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ فَمَهُ بِالإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تُخْفِي وَرَاءَهَا إِشَارَةً بِإِصْبَعِ الاتِّهَامِ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُجِيباً :

ـ عَفْوُ مَوْلَايَ مِنْ كُلِّ ظَنٍّ وَشُبْهَةٍ ، وَصَدِّقْنِي لَمْ أَقْصِدْ بِقَرَاءَتِي إِلَىٰ غَايَةٍ وَلَمْ أُلْمِحْ إِلَىٰ مَأْرَبٍ . وَكَيْفَ أَقْصِدُ مَا أَقْصِدُ وَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ مَنْ قَدَّمْتَنِي بِالصَّلَاةِ إِمَاماً ، وَلَمْ تَقْبَلِ اعْتِذَارِي إِلَيْكَ مُقَدَّماً ؟ ! .

وَأَضَافَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَبْرِئاً :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلَايَ مَا قَصَدْتُ بِصَلَاتِي وَقِرَاءَتِي إِلَّا وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ . . وَأَمَّا نُكُوصِي فِي تَسَلْسُلِ وُرُودِ الآيَاتِ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ فَقَدْ كَانَ مِنْ قَبِيلِ السَّهْوِ أَوْ التَّهَيُّبِ مِنَ الوُقُوفِ فِي حَضْرَتِكَ إِمَاماً . .

تَبَسَّمَ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً تَنُمُّ عَنِ الرِّضَىٰ وَالاقْتِنَاعِ بِحُجَّةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَبِبَرَاءَتِهِ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ وَتَلْمِيحٍ وَقَالَ لابْنِ بَطُّوطَةَ نَدِيمِ مَجْلِسِهِ وَرَاوِي أَخْبَارِ رِحَلَاتِهِ العَجِيبَةِ :

ـ الآنَ بَرْداً وَسَلَاماً . . لَقَدْ كُنْتُ أُدَاعِبُكَ . .

أَجَابَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَالآنَ يَا مَوْلاَيَ أَيَكُونُ مِنْكَ إِمْسَاكٌ بِالمَعْرُوفِ أَمْ مُفَارَقَةٌ بِـ . .

قَاطَعَهُ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ مُجِيباً وَهُوَ يَضْحَكُ :

ـ بَلْ هُوَ إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ وَإِحْسَانٍ ، وَرِزْقٌ مِنْ حَيْثُ لاَ تَحْتَسِبُ

وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ كَانَتْ بَدْرَةً مِنْ دَنَانِيرَ ذَهَبِيَّةٍ .

وَعَلَّقَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ عَلَىٰ مَا رَأَىٰ وَسَمِعَ قَائِلاً :

ـ الحَمْدُ للهِ ، ثُمَّ الحَمْدُ للهِ . . لَقَدْ فُرِجَتْ أَخِيراً بَعْدَ أَنْ كَادَ يَقْضِي عَلَيَّ الهَمُّ وَالحُزْنُ ، وَلاَ أَقُولُ : الخَوْفُ مِنْ سُلْطَانٍ عَادِلٍ رَحِيمٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عنَانٍ :

ـ أَحْسَنْتَ يَا بْنَ جُزَيٍّ يَا خَيْرَ مَنْ خَطَّ يَرَاعُهُ وَمَنْ أُلِفَ اجْتِمَاعُهُ . .

وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ .

أَرَادَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الاعْتِذَارَ عَنِ القَصِّ وَالرِّوَايَةِ أَمَامَ السُّلْطَانِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ أَبَا عَنَانٍ لَمْ يُعْفِهِ مِنْ مَهَمَّتِهِ ، وَقَدْ بَدَا مُولَعاً

بِسَمَاعِ قَصَصِ عَجَائِبِهِ وَغَرَائِبِهِ وَطَرَائِفِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

ـ جُدْ عَلَيْنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ بِتُحْفَةٍ مِنْ تُحَفِكَ تُحَدِّثُنَا فِيهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التُّقَىٰ وَالصَّلَاحِ ، كَمَا كَانَ مِنْ حَدِيثِكَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ الَّذِي طَلَّقَ المُلْكَ لِيَخْلُصَ إِلَىٰ العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ المُسَاهِرُ المُسَامِرُ :

ـ أَمْرُ مَوْلَايَ . . أُحَدِّثُكُمْ بِخَبَرِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ حَارِسِ البُسْتَانِ الَّذِي افْتَقَدَهُ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ سُلْطَانُ دِمَشْقَ قَبْلَ صَلَاحِ الدِّينِ . . وَأُحَدِّثُكُمْ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ كَيْفَ اخْتَفَىٰ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَعْدَ أَنْ بَدَتْ كَرَامَاتُهُ وَعَمَّتْ شُهْرَتُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ ، وَلَا تَبْخَلْ عَلَيْنَا يَا بْنَ بَطُّوطَةَ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي مَحْضَرِ السُّلْطَانِ وَكَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ :

اعْلَمْ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ أَنَّنِي بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُ مَدِينَةَ بَيْرُوتَ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَىٰ البَحْرِ ، صَغِيرَةٌ حَسَنَةُ الأَسْوَاقِ وَجَامِعُهَا بَدِيعُ الحُسْنِ ، قَصَدْتُ فِي مَعْشَرٍ مِنَ القَاصِدِينَ زِيَارَةَ مَدْفَنِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسَفَ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مُلُوكِ المَغْرِبِ وَعَافَتْ نَفْسُهُ المُلْكَ إِلَىٰ الزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالاقْتِيَاتِ بِالكَدْحِ وَتَعَبِ اليَدَيْنِ .

كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الزَّاهِدُ يَعْمَلُ بِنَسْجِ الحُصُرِ ، يَبِيعُهَا وَيَقْتَاتُ بِثَمَنِهَا ، وَيُحْكَىٰ أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ مُتَكَفِّفاً مِنَ الرِّزْقِ أَقَلَّهُ ، فَمَرِضَ بِهَا مَرَضاً شَدِيداً ، فَنَبَذَ النَّاسَ وَنَبَذُوهُ ، وَأَقَامَ عُرْضَةً مَطْرُوحاً فِي الأَسْوَاقِ لاَ يُقِيلُهُ أَحَدٌ مِنَ المَكْرُوهِ ، وَلاَ يُفَرِّجُ هَمَّهُ إِلاَّ خَلْوَتُهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّوْحِيدِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي إِذَا أَحَبَّ عَبْداً ابْتَلاَهُ . . قَالُوا : وَلَمَّا بَرِئَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ مَرَضِهِ ، خَرَجَ إِلَىٰ ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِيَلْتَمِسَ بُسْتَاناً يَكُونُ حَارِساً لَهُ ، وَبَعْدَ لأْيٍ وَمَشَقَّةٍ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ لِحِرَاسَةِ بُسْتَانِ المَلِكِ نُورِ الدِّينِ ، فَشَكَرَ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّزَّاقُ العَلِيمُ .

وَانْقَضَتْ عَلَىٰ تَعَهُّدِهِ الحِرَاسَةَ لِلْبُسْتَانِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ فَلَمَّا دَخَلَ الخَرِيفُ

فِي مَوْسِمِ الفَاكِهَةِ وَأَوَانِهَا أَتَىٰ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ إِلَىٰ ذَلِكَ البُسْتَانِ الَّذِي أَضْحَىٰ يُشْبِهُ الرَّوْضَةَ الجَنَانِيَّةَ ، وَأَمَرَ السُّلْطَانُ وَكِيلَهُ أَنْ يَلْقَىٰ الحَارِسَ أَبَا يَعْقُوبَ وَيَطْلُبَ إِلَيْهِ بَعْضاً مِنْ أَطْيَبِ الرُّمَّانِ مَذَاقاً لِيَأْكُلَ مِنْهُ . فَمَا كَانَ مِنَ الحَارِسِ إِلاَّ أَنْ اسْتَجَابَ لِلأَمْرِ السُّلْطَانِيِّ ، وَقَطَفَ بَعْضاً مِنَ الرُّمَّانِ وَأَعْطَاهُ لِلْوَكِيلِ لِيَحْمِلَهُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ .

تَذَوَّقَ السُّلْطَانُ وَاحِدَةً مِنَ الرُّمَّانِ فَوَجَدَهَا حَامِضَةَ المَذَاقِ ، ضَاقَ بِهَا مِزَاجُهُ وَأَمَرَ وَكِيلَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً أَنْ يَمْضِيَ إِلَىٰ الحَارِسِ وَيَسْتَقْطِفَهُ رُمَّانَةً تَكُونُ حُلْوَةً يَسْتَطِيبُهَا ذَوْقُ السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ نَفْسِهِ . فَلَمَّا أَحْضَرَ الوَكِيلُ الرُّمَّانَةَ وَتَذَوَّقَهَا وَجَدَهَا حَامِضَةً كَأُخْتِهَا فَأَبْدَىٰ دَهْشَتَهُ وَامْتِعَاضَهُ وَاسْتَدْعَىٰ إِلَيْهِ حَارِسَ البُسْتَانِ الشَّيْخَ أَبَا يَعْقُوبَ ، وَقَالَ لَهُ :

ـ أَسْأَلُكَ رُمَّاناً حُلْواً ، وَتَبْعَثُ لِي بِأَحْمَضِهِ طَعْماً مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؟ ! كَيْفَ هَذَا يَا شَيْخُ ؟ ! .

أَجَابَ الشَّيْخ التَّقِيُّ :

ـ اعْلَمْ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَىٰ الحِرَاسَةِ لاَ عَلَىٰ الأَكْلِ ، وَلَنْ أَسْتَبِيحَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ لَهَا بِحَقٍّ .

قَامَ الأَمِيرُ إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ ، وَأَجْلَسَهُ إِلَىٰ جَانِبِهُ وَدَعَاهُ إِلَىٰ أَنْ يَلْتَزِمَ الإِقَامَةَ فِي رِحَابِهِ مَوْفُورَ الرِّزْقِ وَالكَرَامَةِ . فَقَالَ الشَّيْخُ لِلأَمِيرِ :

ـ أَنْتَ أَيُّهَا الأَمِيرُ رَجُلٌ كَرِيمٌ مِضْيَافٌ لاَ أَشُكُّ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنَّنِي لَنْ أَهْجُرَ الأَرْحَبَ إِلَىٰ الرَّحْبِ وَالأَكْرَمَ إِلَىٰ الكَرِيمِ . أَنَسِيتَ أَنَّنِي فِي ضِيَافَةِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ ؟ .

قَالَ الأَمِيرُ :

ـ بَلْ فَهِمْتُ الآنَ حَقَّ الفَهْمِ ، وَأَنَا حَرِيصٌ عَلَىٰ اسْتِبْقَائِكَ فِيمَا اخْتَرْتَ مِنْ حِرَاسَةِ البُسْتَانِ . وَقَدْ جَعَلْتُ فِي عُنُقِ وَكِيلِي الالْتِزَامَ بِإِكْرَامِكَ وَالسُّؤَالِ عَمَّا تَحْتَاجُ ، فِي حُدُودِ مَا يُرْضِي اللهَ وَيُرْضِيكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ .

خَرَجَ حَارِسُ البُسْتَانِ هَائِماً عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي أَوَانِ البَرْدِ الشَّدِيدِ ، لأَنَّهُ خَشِيَ مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ أَنْ تُحَدِّثَهُ بِمَا يُخَالِفُ تَقْوَاهُ إِذَا حَلَّ حِيَاضَ السُّلْطَانِ وَوَكِيلِهِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ فِي وِجْهَتِهِ الْتَقَىٰ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ النُّزُولَ عِنْدَهُ ، فَاسْتَجَابَ الدَّعْوَةَ لِمَا أَنِسَ مِنْ ضَعْفِ حَالِ الرَّجُلِ وَحَلاَلِ اكْتِسَابِهِ لِلْمَالِ ، فَلَمَّا نَزَلَ فِي بَيْتِ دَاعِيهِ ، ذَبَحَ لَهُ دَجَاجَةً ، وَصَنَعَ لَهُ حِسَاءً وَأَتَاهُ بِخُبْزِ شَعِيرٍ ، فَأَكَلَ مِنْ ذَلِكَ وَدَعَا لِلرَّجُلِ بِمَا تَيَسَّرَ لَهُ .

وَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَضَافَهُ عَائِلاً لِجُمْلَةٍ مِنَ الأَوْلاَدِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَوْلاَدِهِ بِنْتٌ قَدْ آنَ أَوَانُ زَوَاجِهَا مِنْ رَجُلٍ كَانَ قَدْ خَطَبَهَا مِنْ أَبِيهَا ، وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي تِلْكَ البِلاَدِ أَنَّ البِنْتَ يُجَهِّزُهَا أَبُوهَا ، وَيَكُونُ مُعْظَمُ الجَهَازِ أَوَانِيَ مِنَ النُّحَاسِ ، وَبِالنُّحَاسِ يَتَفَاخَرُونَ ، وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ .

فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ لِمُضِيفِهِ أَبِي البِنْتِ المَخْطُوبَةِ :

ـ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنَ النُّحَاسِ ؟

قَالَ أَبُو البِنْتِ :

ـ بَلَىٰ ، فَلَقَدِ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ لِتَجْهِيزِهَا بِمَا يَلِيقُ .

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ : ائْتِنِي بِهِ فِي الحَالِ ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَقَالَ : اسْتَعِرْ مِنْ جِيرَانِكَ كُلَّ مَا أَمْكَنَكَ مِنْهُ .

فَفَعَلَ ، وَأَحْضَرَ كُلَّ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ ، فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ أَبِي يَعْقُوبَ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ إِلاَّ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ صُرَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ ، وَكَانَ فِيهَا ضَرْبٌ مِنَ الإِكْسِيرِ الَّذِي يُحَوِّلُ المَعَادِنَ إِلَىٰ ذَهَبٍ ، فَطَرَحَ مِنْهُ عَلَىٰ الآنِيَةِ النُّحَاسِيَّةِ فَصَارَتْ كُلُّهَا ذَهَباً .

قَالَ الضَّيْفُ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ لِمُضِيفِهِ صَاحِبِ البَيْتِ :

ـ ضَعْ مَا حَصَلَ لَكَ مِنَ الذَّهَبِ فِي حُجْرَةٍ مُقْفَلَةٍ ، وَخُذْ عَنِّي هَذَا الكِتَابَ إِلَىٰ نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ . .

وَفَجْأَةً اخْتَفَىٰ الشَّيْخُ عَنْ نَظَرِ مُضِيفِهِ وَلَمْ يَعْثُرْ لَهُ عَلَىٰ أَثَرٍ . . وَذَهَبَ صَاحِبُ البَيْتِ بِالكِتَابِ إِلَىٰ المَلِكِ نُورِ الدِّينِ وَحَدَّثَهُ بِمَا كَانَ مِنْ خَبَرِهِ ، وَمِنْ تَحْوِيلِهِ النُّحَاسَ إِلَىٰ ذَهَبٍ ، وَمِنِ اخْتِفَائِهِ المُفَاجِئِ ، فَسَارَعَ السُّلْطَانُ بِمَوْكِبِهِ إِلَىٰ بَيْتِ الرَّجُلِ وَاطَّلَعَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الأَمْرِ وَتَبَيَّنَهُ كَمَا جَرَىٰ فِي مَوْضِعِهِ ، وَفَتَحَ الرِّسَالَةَ المُوَجَّهَةَ إِلَيْهِ فَوَجَدَ فِيهَا بَعْدَ التَّسْمِيَةِ وَحَمْدِ اللهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلاَةِ عَلَىٰ رَسُولِهِ الكَرِيمِ :

(مِنْ عَبْدِ اللهِ يُوسُفَ أَبِي يَعْقُوبَ إِلَىٰ السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ . . إِذَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ وَالبِرِّ وَالإِحْسَانِ أَدْعُوكَ إِلَىٰ بِنَاءِ مَارِسْتَانَ[1] لِلْمَرْضَىٰ مِنَ الغُرَبَاءِ ، وَأَنْ تُوقِفَ عَلَيْهِ الأَوْقَافَ اللاَّزِمَةَ ، وَأُوصِيكَ بِبِنَاءِ الزَّوَايَا[2] عَلَىٰ الطُّرُقِ لِيَأْوِيَ إِلَيْهَا مَنْ يَحْتَاجُهَا ، كَمَا أُوصِيكَ بِإِرْضَاءِ أَصْحَابِ النُّحَاسِ وَبِإِعْطَاءِ البَيْتِ كِفَايَتَهُ وَاللهُ هُوَ الكَافِي الغَنِيُّ الحَمِيدُ . .) .

---

(١) المارستان : المشفىٰ .
(٢) الزوايا : المآوي للغرباء يحلون بها مجاناً .

لَمْ يُقَصِّرِ المَلِكُ نُورُ الدِّينِ مَلِكُ دِمَشْقَ فِي العَمَلِ بِوَصِيَّةِ الشَّيْخِ يُوسُفَ أَبِي يَعْقُوبَ ، الَّذِي كَانَ حَارِساً لِبُسْتَانِهِ ، وَطَلَبَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ مَوْطِناً وَلاَ مَقَرّاً حَتَّىٰ وَافَاهُ الأَجَلُ المَحْتُومُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ المُنَادِمُ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ سُلْطَانِ فَاسَ بِالمَغْرِبِ :

ـ تِلْكَ هِيَ حِكَايَةُ صَاحِبِ الكَرَامَاتِ الشَّيْخِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ، حَارِسِ البُسْتَانِ . . فَكَيْفَ وَجَدْتَهَا ؟ ! .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانٍ :

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، وَإِلَيَّ المَزِيدُ مِنْ هَذِهِ العَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ وَالتُّحَفِ ، وَفَّقَكَ اللهُ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ ، شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا عِنْدَ أَمْرِ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانٍ وَقْتَ مَا يَشَاءُ . .

طَوَىٰ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ سِجِلَّ الْكِتَابَةِ عَنْ حِكَايَةِ حَارِسِ البُسْتَانِ ،
وَانْفَضَّ مَجْلِسُ النُّدَمَاءِ ، وَكُلُّهُمْ فِي سُرُورٍ وَانْشِرَاحٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

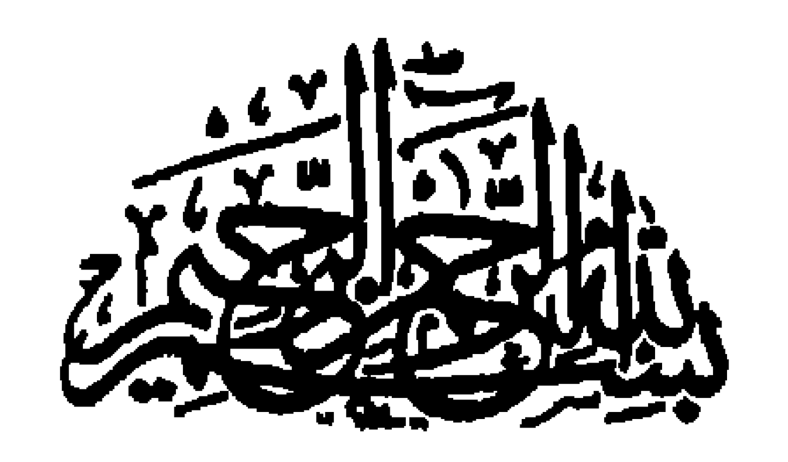
عجائب رحلة ابن بطوطة

جنّةُ البلدانِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

جَنَّةُ البُلْدَانِ

اتَّخَذَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مَجْلِسَهُ فِي صَدْرِ قَاعَةِ العَرْشِ ، بِمَدِينَةِ فَاسَ المَغْرِبِيَّةِ ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَدِيمُهُ المُتَحَدِّثُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَكَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ . وَكَانَ السُّلْطَانُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ مَسْرُورَ الخَاطِرِ ، فَاسْتَقْبَلَ ضَيْفَيْهِ بِالتِّرْحَابِ وَالابْتِسَامِ وَبَادَرَ الأَوَّلَ مِنْهُمَا وَهُوَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِلَىٰ أَيْنَ بَلَغْتَ بِنَا فِي رِحْلَتِكَ المَيْمُونَةِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ وَعَهْدُنَا بِكَ أَنَّكَ كُنْتَ قَاصِداً الحَجَّ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ فِي مَكَّةَ المَكَرَّمَةِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ فِي مَعْرِفَةِ وِجْهَتِي وَقَصْدِي ، وَأَنَا فِي طَرِيقِي لِلوُصُولِ بِكَ إِلَىٰ هُنَاكَ وَلَكِنْ رُوَيْداً ، فَقَدِ اخْتَارَ لِيَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ أَنْ أَدْخُلَ الحِجَازَ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ وَهَأَنَا بِكَ عَلَىٰ

أَبْوَابِ دِمَشْقَ ، وَدِمَشْقُ هِيَ التِي تَفْضُلُ جَمِيعَ البِلادِ حُسْناً ، وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالاً ، وَكُلُّ وَصْفٍ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا وَإِنْ طَالَ . وَقَدْ قَالَ عَنْهَا سَابِقِي فِي الفَضْلِ الرَّحَّالَةُ أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ جُبَيْر : هِيَ جَنَّةُ المَشْرِقِ ، وَعَرُوسُ المُدُنِ ، تَحلَّتْ بِأَزَاهِرِ الرَّيَاحِينِ ، وَتَجَلَّتْ فِي حُلَلٍ مِنَ البَسَاتِينِ ، رَبْوَتُهَا ذَاتُ ظِلٍّ ظَلِيلٍ ، وَمَاءٍ سَلْسَبِيلٍ ، وَرِيَاضُهَا تُحْيِي النُّفُوسَ بِنَسِيمِهَا العَلِيلِ . امْتَدَّتْ بِشَرْقِيِّهَا غُوطَتُهَا الخَضْرَاءُ امْتِدَادَ البَصَرِ ، فَشَغَلَتْ بِحُبِّهَا الرُّوحَ قَبْلَ البَصَرِ ، وَصَدَقَ قَوْلُ مَنْ قَالَ فِيهَا : إِنْ كَانَتِ الجَنَّةُ فِي الأَرْضِ فَهِيَ دِمَشْقُ لاَ شَكَّ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ تُسَامِيهَا وَتُحَاذِيها . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ عَلَىٰ رِسْلِكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَصِفَ لَنَا دِمَشْقَ عَلَىٰ أَنَّهَا أَعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِيبِ الدَّهْرِ ، فَاقْتَصِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ عَشَرَةِ أُمُورٍ ، فَقَدْ قِيلَ مِنْ قَبْلِنَا (مَنْ عَشَّرَ فَقَدْ بَشَّرَ) فَهَاتِ بَشِّرْ بِمَا عِنْدَكَ ، وَضَعْ فِي عُهْدَةِ كَاتِبِنَا ابْنِ جُزَيٍّ سِجِلاًّ حَافِلاً ، لاَتَتْرُكُ بِهِ فَرْضاً وَلاَنَافِلاً . .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ قَنِعْتَ يَا مَوْلَايَ بِيَسِيرٍ ، وَمَا يُقَالُ فِي دِمَشْقَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ ، وَهَأَنَذَا أَبْدَؤُكَ بِمَا يَسُرُّ الخَاطِرَ بِمَا ذَكَرَهُ عَنْهَا أَرْبَابُ القَرِيضِ وَالمَشَاعِرِ .

هُنَا تَدَخَّلَ فِي الحَدِيثِ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ وَقَالَ :

ـ إِذَا ذُكِرَ الشِّعْرُ فِي دِمَشْقَ ، فَاتْرُكَا ذَلِكَ عَلَيَّ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ خُذْ عَنْ صَاحِبِكَ ابْنِ بَطُّوطَةَ الجَانِبَ الأَوَّلَ مِنَ الجَوَانِبِ العَشَرَةِ ، وَاخْتَرْ مَا تَخْتَارُ مِنَ النَّظْمِ مُجْزِياً وَجَمِيلاً وَاخْتَصِرْ مَا اسْتَطَعْتَ لِئَلا تَجِيءَ بِهِ مُسْتَهْجَناً مَمْلُولاً .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ اسْمَعْ يَا مَوْلَايَ :

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الخُلُودِ بِأَرْضٍ فَدِمَشْقُ وَلَاتَكُونُ سِوَاهَا
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فِهِيَ عَلَيْهَا قَدْ أَبَدَتْ هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا

وَقَدْ سَمِعْتُ وَالِدِي يُنْشِدُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِ دِمَشْقَ غَيْرَ مَرَّةٍ :

دِمَشْـقُ بِنَـا شَـوْقٌ إِلَيْهَـا مُبَـرِّحٌ   وَإِنْ لَـجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَـحَّ عَـذُولُ

بِـلَادٌ بِهَـا الحَصْبَـاءُ دُرٌّ وَتُـرْبُهَـا   عَبِيرٌ، وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ[1]

وَقَالَ الشَّاعِرُ فِيهَا :

أَمَّـــا دِمَشْـــقُ فَجَنَّـــةٌ   يَنْسَـىٰ بِهَـا الـوَطَـنَ الغَـرِيـبْ

فِـي مَـوْطِـنٍ غَنَّـىٰ الحَمَـامُ   بِـهِ عَلَـىٰ رَقْـصِ القَضِيـبْ[2]

وَغَـــدَتْ أَزَاهِـــرُ رَوْضِـــهِ   تَخْتَـالُ فِـي فَـرَحٍ وَطِيـبْ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَأَيْنَ هَذَا مِمَّا قَالَهُ أَبُو عُبَادَةَ البُحْتُرِيُّ فِي مَحَاسِنِ دِمَشْقَ :

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبْدَتْ مَحَاسِنَهَا   وَقَدْ وَفَّىٰ لَكِ مُطْرِيهَا[3] بِمَا وَعَدَا

إِذَا أَرَدْتَ مَلَأْتَ العَيْنَ مِنْ بَلَدٍ   مُسْتَحْسَنٍ وَزَمَـانٍ يُشْبِـهُ البَلَـدَا

---

(١) الشَّمول : الخمرة ، وعنىٰ بها طيبَ الهواء المنعش .
(٢) القضيب : الغصن .
(٣) مطريها : مادحها .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لِنَطْوِ صَفْحَةَ الشِّعْرِ إِلَىٰ أُمُورٍ أُخْرَىٰ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ الأَمْرُ الثَّانِي الذِي تَتَمَيَّزُ بِهِ دِمَشْقُ جَامِعُهَا الأُمَوِيُّ الذِي تَوَلَّىٰ بِنَاءَهُ وَإِتْقَانَهُ ، أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَزَيَّنَهُ بِفُصُوصِ الذَّهَبِ المَعْرُوفَةِ بِالفُسَيْفُسَاءَ . لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، وَتَنْعَقِدُ فِيهِ حَلَقَاتُ التَّدْرِيسِ فِي فُنُونِ العِلْمِ . وَأَئِمَّتُهُ ثَلاثَةَ عَشَرَ إِمَاماً جَمَعُوا المَذَاهِبَ الأَرْبَعَةَ مِنْ شَافِعِيٍّ وَمَالِكِيٍّ وَحَنَفِيٍّ وَحَنْبَلِيٍّ .

وَأَضَافَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ وَالأَمْرُ الثَّالِثُ يَا مَوْلاَيَ أَبْوَابُ دِمَشْقَ الثَّمَانِيَةُ ، وَمِنْهَا : بَابُ الجَابِيَةِ ، وَالبَابُ الصَّغِيرُ ، وَبَابُ الفَرَادِيسِ . . وَتِلْكَ الأَبْوَابُ تَجْمَعُ عَدَداً مِنَ المَشَاهِدِ وَالمَزَارَاتِ مِنْهَا قَبْرُ بِلالٍ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَبْرُ أُبَيٍّ ابْنِ كَعْبٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَبْرُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالمَنِيحَةِ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَرَابِعُ مَا أَتَعَرَّضُ إِلَىٰ ذِكْرِهِ أَرْبَاضُ دِمَشْقَ ، وَهِيَ كَالمُدُنِ الصَّغِيرَةِ ، لَكِنَّهَا فَسِيحَةُ السَّاحَاتِ ، عَامِرَةٌ بِالسُّكَّانِ وَالبُنْيَانِ ، وَفِي الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ رَبَضُ الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا سُوقٌ لاَنَظِيرَ لِحُسْنِهِ ، وَفِيهَا مَسْجِدٌ جَامِعٌ وَمَارِسْتَان ، وَأَهْلُوهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ رَضِيَ الله عَنْهُ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بَعْدَ أَنْ التَقَطَ أَنْفَاسَهُ وَاسْتَحَثَّ ذَاكِرَتَهُ :

ـ وَخَامِسُ الأُمُورِ العَجِيبَةِ المُعْجِبَةِ جَبَلُ قَاسَيُونَ فِي شَمَالِ دِمَشْقَ ، وَالصَّالِحِيَّةُ فِي سَفْحِهِ ، وَهُوَ شَهِيرُ البَرَكَةِ لأَنَّهُ مَصْعَدُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وَمِنْ مَشَاهِدِهِ الكَرِيمَةِ الغَارُ الذِي وُلِدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَمِنْهَا كَهْفٌ بِأَعْلَىٰ الجَبَلِ يُنْسَبُ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَعَلَيْهِ بِنَاءٌ وَبِأَسْفَلِهِ مَغَارَةٌ تُعْرَفُ بِمَغَارَةِ الجُوعِ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الجُوعِ وَالعَطَشِ . . مَا حِكَايَةُ هَذِهِ المَغَارَةِ ؟ وَلِمَاذَا عُرِفَتْ بِهَذَا الاسْمِ ؟ ! . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةُ :

ـ ذَكَرُوا أَنَّهُ قَدْ أَوَىٰ إِلَىٰ المَغَارَةِ سَبْعُونَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَوْ مِنْ رِجَالِ اللهِ الصَّالِحِينَ فَاحْتَبَسَهُمْ حَابِسٌ ، وَضَلُّوا طَرِيقَهُمْ إِلَىٰ بَابِ المَغَارَةِ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الزَّادِ إِلاَّ رَغِيفٌ وَاحِدٌ ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمُ المَاءُ مِنْ صَخْرَةٍ بِأَعْلَىٰ المَغَارَةِ فَشَرِبُوا .

أَمَّا الطَّعَامُ فَمَا زَالَ أَحَدُهُمْ يَدْفَعُ بِالرَّغِيفِ إِلَىٰ صَاحِبِهِ مُؤْثِراً إِيَّاهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ مَاتَ الجَمِيعُ جُوعاً ، وَعُرِفَتْ المَغَارَةُ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمَغَارَةِ الجُوعِ ، وَعَلَىٰ هَذِهِ المَغَارَةِ مَسْجِدٌ مَبْنِيٌّ تُوقَدُ فِيهِ السُّرُجُ لَيْلاً وَنَهَاراً .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَذَا خَبَرٌ مِنْ عَجَائِبِ الأَخْبَارِ وَقِصَّةٌ مِنْ عَجَائِبِ القِصَصِ ، وَلَكِنْ لاَتَنْسَ مَا مَعَكَ مِنْ عَجَائِبِ دِمَشْقَ الأُخْرَىٰ ، وَعِلْمِي أَنَّكَ قَدْ ذَكَرْتَ خَمْسَةً مِنَ العَشَرَةِ التِي وَعَدْتَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلاَيَ ، وَهَأَنَذَا فِي طَرِيقِي لإِطْرَافِكَ بِخَبَرِ رَبْوَةِ دِمَشْقَ وَالقُرَىٰ التِي تُوَالِيهَا . . وَسَادِسُ الأُمُورِ مِنَ المَشْهُورِ المَشْهُودِ بِدِمَشْقَ تِلْكَ الرَّبْوَةُ فِي آخِرِ جَبَلِ قَاسَيُونَ وَهِيَ رَبْوَةٌ مُبَارَكَةٌ ذَاتُ قَرَارٍ مَكِينٍ ، كَانَتْ مَأْوَىٰ المَسِيحِ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ . وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ مَنَاظِرِ الدُّنْيَا وَمُتَنَزَّهَاتِهَا . وَهَذِهِ الرَّبْوَةُ المُبَارَكَةُ هِيَ رَأْسُ بَسَاتِينِ دِمَشْقَ ، وَبِهَا مَنَابِعُ مِيَاهِهَا . وَفِي أَسْفَلِ الرَّبْوَةِ وَمَاحَوْلَهَا قُرَىٰ مَشْهُورَةٌ فِيهَا الحَمَّامَاتُ وَالمَسَاجِدُ الجَامِعَةُ وَالأَسْوَاقُ ، وَسُكَّانُهَا لاَ يَخْتَلِفُونَ عَنْ سُكَّانِ الحَوَاضِرِ فِي شَتَّىٰ مَنَاحِي حَيَاتِهِمْ وَأَعْرَافِهِمْ .

وَأَمَّا سَابِعُ الأُمُورِ يَا مَوْلاَيَ ، فَهُوَ نَهْرُ بَرَدَىٰ الذِي جَمَعَ إِلَيْهِ سَبْعَةَ أَنْهُرٍ ، وَأَكْبَرُ هَذِهِ الأَنْهُرِ المُسَمَّىٰ بِنَهْرِ تُورَةَ يَشُقُّ الحَجَرَ الصَّلْدَ وَيَنْدَفِعُ فِي هُوَّةٍ كَالغَارِ الكَبِيرِ . وَالعَجِيبُ المُعْجِبُ فِي الأَنْهُرِ السَّبْعَةِ المُجْتَمِعَةِ فِي بَرَدَىٰ ، أَنَّهَا تَذْهَبُ فِي طُرُقٍ شَتَّىٰ فَتَحَارُ الأَعْيُنُ فِي حُسْنِ اجْتِمَاعِهَا وَافْتِرَاقِهَا وَانْدِفَاعِهَا وَانْصِبَابِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ جَمَالُ الرَّبْوَةِ الدِّمَشْقِيَّةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الوَصْفُ . .

وَثَامِنُ مَا أَذْكُرُهُ مِنْ مَعَالِمِ دِمَشْقَ وَمَرَابِعِهَا تَعَدُّدُ المَسَاجِدِ وَالمَدَارِسِ وَالمَشَاهِدِ ، وَلاَ سِيَّمَا الخَوانِقُ[1] الصُّوفِيَّةُ ، فَفِيهَا تُجْرَىٰ النَّفَقَةُ وَالكِسْوَةُ ، فَمَنْ نَزَلَ بِهَا غَرِيباً عَلَىٰ خَيْرٍ ، لَمْ يزَلْ مَصُوناً عَنْ بَذْلِ مَاءِ وَجْهِه ، مَحْفُوظَ المُرُوءَةِ وَالكَرَامَةِ . وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَافِيَةً وَاقْتِدَاراً ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ المِهَنِ وَجَدَ أَسْبَاباً مُهَيَّئَةً لِلمَعَاشِ ، كَحِرَاسَةِ بُسْتَانٍ أَوْ أَمَانَةِ طَاحُونَةٍ ، أَوْ كَفَالَةِ صِبْيَانٍ يَغْدُو مَعَهُمْ إِلَىٰ التَّعْلِيمِ وَيَرُوحُ ، وَمَنْ أَرَادَ طَلَبَ العِلْمِ أَوْ التَّفَرُّغَ لِلعِبَادَةِ وَجَدَ الإِعَانَةَ التَّامَّةَ عَلَىٰ ذَلِكَ . وَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ أَنَّ أَهْلَ دِمَشْقَ يُحْسِنُونَ الظَنَّ بِالمَغَارِبَةِ وَيُطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِمْ بِالأَمْوَالِ وَالأَهْلِينَ وَالأَوْلاَدِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ المَغْرِبِيُّ مُخَاطِباً مُحَدِّثَهُ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا مَغْرِبِيٌّ مِنْ فَاسَ ، وَأَنْتَ مَغْرِبِيٌّ مِنْ طَنْجَةَ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا بِمَا خَبَرْتَهُ وَجَرَّبْتَهُ مِنْ حُبِّ الدِّمَشْقِيَّةِ الكِرَامِ لِلمَغَارِبَةِ الأَغْرَابِ مِنْ أَمْثَالِكَ لِيَكُونَ مِنْهَا فِي الذَّاكِرَةِ وَالخَاطِرِ مَايُقَوِّي بَيْنَنَا الأَوَاصِرَ ؟ ! . .

---

(١) الخوانق : جمع خانقان وهو المأوىٰ والمعتكف الصوفي .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ نَدِيمُ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي عِنَانٍ ، قَالَ :

ـ لَمَّا وَرَدْتُ إِلَىٰ دِمَشْقَ ، عَرَفْتُ فِيهَا الشَّيْخَ نُورَ الدِّينِ السَّخَاوِيَّ مُدَرِّسَ المَالِكِيَّةِ ، وَتَعَمَّقَتْ بَيْنَنَا الصُّحْبَةُ فَدَعَانِي لأُفْطِرَ عِنْدَهُ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ ، فَحَضَرْتُ عِنْدَهُ عَلَىٰ مَائِدَةِ الإِفْطَارِ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَكْرَمَنِي فِيهَا غَايَةَ الإِكْرَامِ ، وَفِي خَامِسِ اللَيَالِي مَرِضْتُ بِالحُمَّىٰ فَغِبْتُ عَنْهُ ، فَبَعَثَ خَادِمَهُ فِي طَلَبِي ، فَاعْتَذَرْتُ بِالمَرَضِ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِأَمْرِي جَاءَ وَصَحِبَنِي إِلَىٰ ضِيَافَتِهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ لِي فِي مُجَانَبَتِهِ عُذْراً . وَلَمَّا أَرَدْتُ الانْصِرَافَ تَخْفِيفاً عَنْهُ وَتَحَرُّجاً مِنَ الإِثْقَالِ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ قَائِلاً : احْسِبْ دَارِي هَذِهِ دَارَكَ ، أَوْ دَارَ أَبِيكَ ، أَوْ أَخِيكَ ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ طَبِيبٍ ، وَأَنْ يُعْمَلَ بِنَصِيحَةِ الطَّبِيبِ فِي خِدْمَتِي ، وَفِي إِعْدَادِ مَا يَنْفَعُنِي مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَالمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ تنَاوُلِ الدَّوَاءِ . وَأَقَمْتُ فِي دَارِ القَاضِي السَّخَاوِيِّ أَطْيَبَ إِقَامَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ العِيدِ ، وَحَضَرْتُ المُصَلَّىٰ وَقَدْ شَفَانِي اللهُ تَعَالَىٰ مِمَّا أَصَابَنِي . وَكَانَ مَالِي قَدْ نَفِدَ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ وَعَلِمَ بِنِيَّةِ ارْتِحَالِي عَنْ دِمَشْقَ اكْتَرَىٰ لِي جِمَالاً ، وَأَعْطَانِي زَاداً وَفِيراً ، وَدَرَاهِمَ

كَافِيَةٌ ، وَقَالَ لِي : هَذِهِ بَعْضُ عِدّتِكَ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَذْكُرَنِي بِالخَيْرِ ، وَرَاحَ يَعْتَذِرُ اعْتِذَارَ الكِرَامِ عَمَّا بَدَرَ عَنْهُ تِجَاهِي مِنْ تَقْصِيرٍ ، وَأَنَا لَمْ أَجِدْ مِنْهُ إِلاَّ الكَرَمَ وَرِحَابَةَ الضِّيَافَةِ وَحُسْنَ الخُلُقِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَسْبُكَ مَا رَوَيْتَ لِي مِنْ هَذِهِ الحِكَايَةِ ، وَالمَأْثَرَةِ العَجِيبَةِ لَدَىٰ صَاحِبِكَ القَاضِي . . وَقَدْ بِتُّ مُقْتَنِعاً بِطِيبِ أَهْلِ دِمَشْقَ وَكَرَمِهِم ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِكَ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ رَاضِياً مَرْضِيّاً بِإِذْنِ الله .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلَايَ بِأَنْ أُحَدِّثَهُ بِتَاسِعِ مَاحَدَّثْتُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ العَجِيبَةِ ، وَهُوَ رَمَضَانُ الدِّمَشْقِيُّ أَوْ رَمَضَانُ فِي دِمَشْقَ ؟ !

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ لَكَ ذَلِكَ فَتَحَدَّثْ مَشْكُوراً وَمَأْجُوراً .

قَالَ الرَّحَّالَةُ وَالنَّدِيمُ المُسَامِرُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اعْلَمْ يَا مَوْلَايَ أَنَّ مَا رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ بِدِمَشْقَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِنَّمَا

يَرْجِعُ إِلَىٰ شَيءٍ فِي نُفُوسِهِم مِنْ التُّقَىٰ وَالوَرَعِ وَالتَّحَابُبِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ، وَهُوَ أَمْرٌ يَفُوقُ المَظْهَرَ ، فَمِنْ فَضَائِلِهِمْ أَنَّهُ لاَ يُفْطِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ وَحْدَهُ بَتَاتاً . وَالدِّمَشْقِيُّ إِذَا كَانَ مِنَ الأُمَرَاءِ وَالقُضَاةِ وَالكُبَرَاءِ دَعَا أَصْحَابَهُ وَمَا جَرَىٰ فِي عِلْمِهِ مِنْ ذَوِي الفَقْرِ وَالحَاجَةِ يُفْطِرُونَ عِنْدَهُ . وَمَنْ كَانَ مِنَ التُّجَّارِ المَيْسُورِينَ صَنَعَ مِثْلَ مَاصَنَعَ الأُمَرَاءُ وَالكِبَارُ وَالسَّرَاةُ اقْتِدَاءً بِهِمْ . أَمَّا الضُّعَفَاءُ وَأَهْلُ البَادِيَةِ فَإِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي دَارِ أَحَدِهِمْ أَوْ فِي مَسْجِدٍ ، يَأْتِي كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا عِنْدَهُ فَيُفْطِرُونَ جَمِيعاً عَلَىٰ مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ . . هَذَا مَا وَجَدْتُهُ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ أَحْسَنْتَ فِيمَا رَوَيْتَهُ عَنْ دِمَشْقَ وَأَخْبَارِهَا وَعَجَائِبِهَا وَكَأَنَّكَ قَدْ نَقَلْتَنَا إِلَيْهَا عِيَاناً وَمُشَاهَدَةً وَجَعَلْتَنَا مُشْتَاقِينَ لأَنْ نَحُلَّ دِيَارَهَا المَعْمُورَةَ . . وَلَكِنْ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ هَلْ وَجَدْتَ فِي أَهْلِ دِمَشْقَ وَطَبَائِعِهِمْ تَزَمُّتاً وَانْصِرَافاً عَنْ الدُّنْيَا فَنَقُولُ : إِنَّ مُعْظَمَهُمْ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ الزَّاهِدِينَ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُنَادِمُ لِلسُّلْطَانِ :

ـ كَلاَّ يَا مَوْلاَيَ ، فَهُمْ لاَ يَنْسَوْنَ نَصِيبَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لاَ يَعْمَلُونَ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ عَمَلاً يُذْكَرُ بَلْ هُمْ يَخْرُجُونَ إِلَىٰ المُتَنَزَّهَاتِ وَشُطُوطِ الأَنْهَارِ وَدَوْحَاتِ الأَشْجَارِ بَيْنَ البَسَاتِينِ الخَضْرَاءِ وَالمِيَاهِ الجَارِيَةِ ، يَقْضُونَ فِيهَا نَهَارَاتِهِمْ إِلَىٰ اللَّيْلِ ، وَقَدْ تَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يُولَعُ بِالمَعَازِفِ وَالأَنْغَامِ ، فَقَالَ فِيهِمْ قَائِلٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ :

خَيِّمْ بِجِلَّقَ بَيْنَ الكَاسِ وَالوَتَرِ فِي جَنَّةٍ هِيَ مِلْءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ

وَقُلْ لِمَنْ لاَمَ فِي لَذَّاتِهِ بَشَراً دَعْنِي ، فَإِنَّكَ عِنْدِي سُوقَةُ البَشَرِ

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ الحَمْدُ للّهِ الذِي لَمْ يَجْعَلْنَا مِنْ سُوقَةِ البَشَرِ . . وَرَدَّد الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَرَاءَ سُلْطَانِهِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ الحَمْدُ للّهِ . . الحَمْدُ للّهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ لَقَدْ وَفَّيْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَا رَوَيْتَ مِنْ أَخْبَارِ دِمَشْقَ جَنَّةِ البُلْدَانِ وَدُرَّةِ

الأَوْطَانِ ، وَلَكِنْ لاَ تَحْسِبْ أَنَّنَا قَدْ أَعْفَيْنَاكَ مِنْ ذِكْرِ الأَمْرِ العَاشِرِ الذِي تَتَمَيَّزُ بِهِ دِمَشْقُ عَنْ سِوَاهَا فِيمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ مِنَ الأَعَاجِيبِ الدَّهْرِيَّةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَكَ عَاشِرُ الأُمُورِ وَأَكْثَرُ ، وَلَكِنْ رِفْقاً بِصَاحِبِنَا ابْنِ جُزِّيٍّ .

نَظَرَ السُّلْطَانُ إِلَىٰ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ فَوَجَدَهُ قَدْ اتَّكَأَ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَغَفَا . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

المجموعة التاريخية للصغار

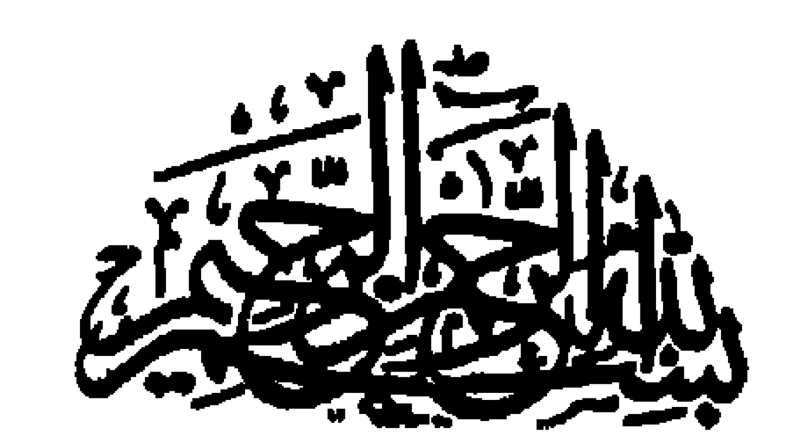
عجائب رحلة ابن بطوطة

المملوكُ دهْمانُ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المَمْلُوكُ دَهْمَانُ

دَخَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ فِي قَاعَةِ العَرْشِ فِي عَاصِمَتِهِ المَغْرِبِيَّةِ فَاسَ ، وَقَدْ رَسَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَلاَمِحَ مِنَ الجِدِّ وَالغَضَبِ وَالاسْتِيَاءِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ . وَلَمَّا بَكَّرَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ إِلَىٰ المَجْلِسِ مِنْ دُونِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، أَلْقَىٰ عَلَىٰ سُلْطَانِهِ السَّلاَمَ بِالطَّرِيقَةِ المُعْتَادَةِ إِلاَّ أَنَّ السُّلْطَانَ لَمْ يَهُشَّ لَهُ وَاكْتَفَىٰ بِقَوْلِهِ :

ـ وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا بْنَ جُزِّيٍّ .

وَأَوْمَأَ لَهُ بِالجُلُوسِ فَجَلَسَ صَامِتاً وَمَعَهُ السِّجِلُّ وَعِدَّةُ الكِتَابَةِ مِنْ قَرَاطِيسَ وَأَقْلاَمٍ وَمَحَابِرَ ، وَجَعَلَ يَتَلَهَّىٰ بِقَطِّ رَأْسِ القَصَبِ الذِي جُعِلَ قَلَماً . وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ أَنْ تَمُرَّ الأُمُورُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَأَلاَّ يُبَادِرَهُ السُّلْطَانُ بِمَا يَسُوءُ وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَابِ القَاعَةِ نَظَرَاتٍ مُتَرَدِّدَةً فِيهَا حِدَّةٌ وَاضْطِرَابٌ .

حَتَّىٰ إِذَا لَحِظَ مِنْهُ السُّلْطَانُ ذَلِكَ جَهَرَ بِمَا فِي خَاطِرِهِ ، وَقَالَ لَهُ تَصْرِيحاً لاَ تَلْمِيحاً :

ـ عَسَاكَ لاَ تَنَامُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ابْنُ بَطُّوطَةَ . . فَأَحَبَّ ابْنُ جُزِّيٍّ أَنْ يَمِيلَ بِالمَوْقِفِ مِنَ الجِدِّ إِلَىٰ المُزَاحِ ، عَسَىٰ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ غَضَبِ السُّلْطَانِ الذِي يَمِيلُ أَحْيَاناً إِلَىٰ المُسْتَطْرَفِ مِنَ الحَدِيثِ ، وَالفُكَاهِيَ لِيُسَرِّيَ عَنْهُ هَمَّ السِّيَاسَةِ وَالرَّعَايَا . قَال ابْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَامَحَ الله مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ ، وَكَيْفَ يَنَامُ ابْنُ جُزِّيٍّ إِذَا لَمْ يَبْدَأْ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ الطَّوِيلَ ؟ !

ـ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ إِذَنْ أَنْتَ تَعْتَرِفُ بِذَنْبِكَ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ بَلْ هُوَ القَلَمُ المَلُولُ الذِي يَكْبُو وَيَغْفُو ، وَأَتَظَاهَرُ بِالكَبْوَةِ وَالإِغْفَاءِ مِثْلَهُ قَبْلَ أَنْ أُقَوِّمَ رَأْسَهُ المِعْوَجَّ وَأُدَبِّبُهُ بِبَرْيَةٍ لاَ تَرْحَمُ مِثْلَ هَذِهِ . .

وَشَرَعَ ابْنُ جُزِّيٍّ يَبْرِي يَرَاعَ القَصَبِ بِشَفْرَةٍ حَادَّةٍ وَيَقُولُ :

ـ لأَقْتُلَنَّ هَذَا اليَرَاعَ بَرْياً بِالسِّكِّينِ ، مَالَمْ يَتَشَفَّعْ بِهِ عِنْدِي مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِذَاتِ نَفْسِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ أَمَّا القَلَمُ فَأَنَا شَفِيعُهُ لِكَثْرَةِ مَا خَطَّ عَلَىٰ القِرْطَاسِ مِنَ الأَخْبَارِ العَجِيبَةِ وَالوَقَائِعِ الغَرِيبَةِ . . أَمَّا أَنْتَ يَا بْنَ جُزَيٍّ فَلَنْ يَشْفَعَ لَكَ عِنْدِي بَعْدَ غَفْوَتِكَ فِي مَجْلِسِي لَيْلَةَ أَمْسِ إِلاّ أَنْ تُعَدِّدَ لِي الأُمُورَ التِي أَحْصَاهَا الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَالتِي خَصَّ بِهَا دِمَشْقَ جَنَّةَ البُلْدَانِ فَإِنْ شِئْتَ هَاتِهَا مِنْ ذَاكِرَتِكَ الكَلِيلَةِ ، وَإِنْ شِئْتَ اسْتَخْرِجْهَا مِمَّا دَوَّنْتَهُ فِي سِجِلِّكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْتَقِصَ مِنْهَا وَاحِدَةً مِمَّا تَعِبَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي رِوَايَتِهِ وَإِمْلاَئِهِ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ لَقَدْ كُنْتَ مَعِي عَادِلاً مُنْصِفاً ، عَلَىٰ مَا أَعْهَدُهُ وَيَعْهَدُهُ جَمِيعُ الرَّعِيَّةِ فِيكَ . . وَهَأَنَذَا أُعَدِّدُ جَمِيعَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ مَآثِرِ دِمَشْقَ ، أَسْتَحْضِرُهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ عَسَىٰ أَنْ تَكُونَ عَنِّي رَاضِياً ، وَعَنْ ذَنْبِي مُتَغَاضِياً . .

هُنَا اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مُنَادِمُهُ وَمُؤْنِسُهُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، فَأَذِنَ لَهُ فَأَلْقَىٰ السَّلاَمَ ، وَاسْتَقَرَّ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ أَنْ يَلْبَثَ فِي مَكَانِهِ صَامِتاً وَيَسْتَمِعَ مَعَهُ إِلَىٰ مَا يَقُولُهُ ابْنُ جُزَّيٍّ .

قَالَ ابْنُ جُزَّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ اسْمَعْ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ :

أَوَّلُ مَا تَمْتَازُ بِهِ دِمَشْقُ المَحْرُوسَةُ أَنَّهَا أُنْشُودَةٌ لِلشُّعَرَاءِ المُتَرَنِّمِينَ بِمَحَاسِنِهَا .

وَثَانِي مَا تَفْخَرُ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ البُلْدَانِ جَامِعُهَا الأُمَوِيُّ الكَبِيرُ الذِي تَوَلَّىٰ بِنَاءَهُ وَإِتْقَانَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .

وَثَالِثُهَا أَبْوَابُهَا الثَّمَانِيَةُ المُشْرَعَاتُ التِي تَضُمُّ إِلَيْهَا عَدَداً مِنَ المَشَاهِدِ وَالمَزَارَاتِ .

وَرَابِعُهَا أَرْبَاضُهَا وَضَوَاحِيهَا التِي تُزَيِّنُهَا مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا ، وَأَكْبَرُ مَا فِيهَا الصَّالِحِيَّةُ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ فِي جِهَتِهَا الشَّمَالِيَّةِ .

وَخَامِسُهَا جَبَلُ قَاسَيُونَ وَفِي أَعْلاَهُ المَشَاهِدُ وَمَرَاقِي الأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، وَيَحِلُّ غَارُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَمَغَارَةُ الجُوعِ ، وَحَدِّثْ عَنْهَا وَلاَ حَرَجَ عَمَّنْ دَخَلَ إِلَيْهَا وَمَا خَرَجَ . .

وَأَمَّا سَادِسُهَا فَهُوَ جُثُومُ الرَّبْوَةِ فِي آخِرِ الجَبَلِ ، تَرْتَدِي مِنَ المَنَاظِرِ أَبْهَىٰ الحُلَلِ ، فِيهَا لِلمِيَاهِ مَنَابِعُ ، وَلِلمُتَنَزِّهِينَ مَرَاتِعُ .

وَسَابِعُ المُدْهِشَاتِ الدِّمَشْقِيَّةِ نَهْرُ الأَفْرُعِ السُّبَاعِيَّةِ المَعْرُوفُ بِبَرْدَىٰ ، لأَنَّهُ عَلَىٰ الشَّامَ بَرْدٌ وَسَلاَمٌ ، وَفِي جِنَانِهِ غَنَّىٰ الحَمَامُ . .

وَثَامِنُ مَا يَذْكُرُهُ الدَّاخِلُ إِلَىٰ دِمَشْقَ وَالمُعَاوِدُ تَعَدُّدُ المَدَارِسِ وَالمَشَاهِدِ وَالمَسَاجِدِ ، وَمِنْهَا الخَوَانِقُ الصُّوفِيَّةُ تَسْتَضِيفُ كُلَّ ذِي نَفْسٍ تَقِيَّةٍ . .

أَمَّا تَاسِعُ الأُمُورِ المُتَمَيِّزَةِ فِي دِمَشْقَ فَهُوَ رَمَضَانُهَا شَهْرُ الصِّيَامِ تُقَامُ فِيهِ مَآدِبُ الكِرَامِ لِلكِرَامِ ، وَيَكُونُ جَمْعُ المُؤْمِنِينَ فِي تَآلُفٍ وَانْسِجَامٍ . وَعَلامَةُ الفَضْلِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ تَعَرُّضِهِ لِلمَرَضِ وَالحُمَّىٰ وَاسْتِقْبَالِهِ فِي دَارِ المَالِكِيِّ السَّخَاوِيِّ حَيْثُ أَتَمَّ رَمَضَانَ إِلَىٰ العِيدِ وَشُفِيَ مِنْ

مَرَضِهِ بِالمَعُونَةِ ، وَخَرَجَ مَوْفُورَ المَؤُونَةِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ :

ـ كَفَىٰ ، كَفَىٰ يَابْنَ جُزِّيٍّ ، فَلَقَدْ وَعَيْتَ مَا خَطَّتْ يَمِينُكَ ، فَلَسْتُ أَلُومُكَ وَلاَ أُدِينُكَ . .

أَبْدَىٰ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ تَمَامَ ارْتِيَاحِهِ ، وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ، وَهُوَ يُرَدِّدُ الشُّكْرَ عَلَىٰ مَسَامِعِ مَوْلاَهُ السُّلْطَانِ وَبِذَلِكَ تَجَاوَزَ مِحْنَتَهُ بَعْدَ الامْتِحَانِ ، وَارْتَدَّ السُّلْطَانُ مُنْفَرِجَ الأَسَارِيرِ ، جَمَّ الامْتِنَانِ . وَمِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَىٰ تَلَقِّي الأَخْبَارِ وَالعَجَائِبِ ، مِنْ مُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ الرَّحَّالَةُ المُوَاظِبِ ، لَمْ يَنْسَ مَا وَعَدَهُ بِهِ مَنْ عَاشَرَ أُمُورَ دِمَشْقَ التِي أَسْمَاهَا جَنَّةَ البُلْدَانِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُخَاطِباً نَدِيمَهُ وَمُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ الآنَ ، الآنَ ، مَاذَا عِنْدَكَ عَنْ دِمَشْقَ جَنَّةِ البُلْدَانِ وَتُحْفَةِ الأَزْمَانِ ، وَقُرَّةِ عَيْنِ الإِنْسَانِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ . . وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ . . فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو

عِنَانٍ . . دَعْنِي أَقُلْ لِحَضْرَتِهِ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ . . وَاسْتَأْنَفَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الحَدِيثَ مِنْ حَيْثُ انْتَهَىٰ فَقَالَ :

ـ لِعِلْمِكَ يَا مَوْلاَيَ ، إِنَّ صَلاَحَ الرَّعِيَّةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الرَّاعِي ، وَقَدْ تَوَالَىٰ عَلَىٰ إِمَارَةِ دِمَشْقَ مُلُوكٌ صَالِحُونَ وَأُمَرَاءُ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الأَمِيرُ نُورُ الدِّينِ ، وَقَدْ تَأَصَّلَ فِي نُفُوسِ هَؤُلاَءِ وَضَمَائِرِهِم بِدَفْعٍ مِنَ القَضَاءِ وَالأَئِمَّةِ الصَّالِحِينَ ، أَنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ رَاعٍ ، وَأَنَّ كُلاًّ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ حِرْصُهُمْ عَلَىٰ تَوْقِيفِ الأَوْقَافِ وَتَعْمِيرِ المَصَارِفِ فِي وُجُوهِ الحَلاَلِ ، وَالمُسَاعَدَةِ لِكُلِّ مَنْ يَحْتَاجُهَا فِي كُلِّ مَيْدَانٍ مِنْ مَيَادِينِ الحَيَاةِ .

وَهَذَا هُوَ عَاشِرُ الأُمُورِ مِمَّا عُرِفَتْ بِهِ دِمَشْقُ التِي تَفَرَّعَتْ عَنْهَا الأَوْقَافُ كَأَيْدِي الأُمِّ الحَنُونِ . فَالأَوْقَافُ بِدِمَشْقَ لاَ تُحْصَرُ أَنْوَاعُهَا وَمَصَارِفُهَا لِكَثْرَتِهَا : فَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ العَاجِزِينَ عَنِ الحَجِّ ، يُعْطَىٰ لِمَنْ يَحُجُّ عَنِ الرَّجُلِ المُكَلَّفِ مِنْهُم كِفَايَتُهُ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ تَجْهِيزِ البَنَاتِ حَتَّىٰ يَصِلْنَ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِهِنَّ ، بَعْدَ أَنْ يَثْبُتَ أَنْ لاَ قُدْرَةَ لأَهْلِهِنَّ عَلَىٰ تَجْهِيزِهِنَّ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ أُخْرَىٰ لِفِكَاكِ الأَسْرَىٰ وَافْتِدَاءِ مَنْ وَقَعَ مِنْهُم

فِي أَيْدِي عَدُوٍّ كَافِرٍ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ لأَبْنَاءِ السَّبِيلِ يُعْطَوْنَ مِنْهَا مَا يَأْكُلُونَ وَيَلْبِسُونَ وَيَتَزَوَّدُونَ لِبِلَادِهِمْ ، وَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ تَعْدِيلِ الطَّرِيقِ وَتَسْوِيَتِهَا وَرَصْفِهَا ، لأَنَّ أَزِقَّةَ دِمَشْقَ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا رَصِيفَانِ يَمُرُّ عَلَيْهِمَا الْمُتَرَجِّلُونَ فِي مَعْصَمٍ عَنِ الرُّكْبَانِ الذِينَ يَعْبُرُونَ الطَّرِيقَ بَيْنَ الرَّصِيفَيْنِ . وَمِنَ الأَوْقَافِ مَا خُصِّصَ لِلمَأْزُومِ بِدَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا تَهَدُّمٌ أَوْ سَيْلٌ أَوْ حَرِيقٌ أَوْ خَرَابٌ ، وَمِنَ الأَوْقَافِ مَا لِسِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ الخَيْرِ ، حَتَّىٰ إِذَا عَمَّ الخَيْرُ القَاصِيَ وَالدَّانِيَ مِنَ الحَاكِمِ شَعَرَ القَوْمُ بِالمُسَاوَاةِ وَتَنَسَّمُوا رَائِحَةَ العَدْلِ فِي الجَنَّةِ دَارِ القَرَارِ ، فَزَادَ المُتَّقِي فِي تَقْوَاهُ أَمَلاً ، وَتَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ عَمَلاً :

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أَصَبْتَ بِالقَوْلِ مَا أَصَبْتَ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُطْرِفَنَا بِحَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ تَكُونُ بُرْهَاناً عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ وَأَطْنَبْتَ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَرَرْتُ يَوْماً بِبَعْضِ أَزِقَّةِ دِمَشْقَ ، فَرَأَيْتُ بِهِ مَمْلُوكاً صَغِيراً قَدْ

سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ صَحْفَةٌ مِنَ الفَخَّارِ الصِّينِيِّ ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا الصَّحْنَ ، فَتَكَسَّرَتْ الصَّحْفَةُ فَتَنَغَّصَ المَمْلُوكُ وَبَكَىٰ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : اجْمَعْ شُقَفَهَا وَاحْمِلْهَا مَعَكَ لِصَاحِبِ الأَوْقَافِ المُخَصَّصَةِ لِلأَوَانِي ، وَلَنْ تَلْقَىٰ إِلاَّ خَيْراً . وَجَمَعَ المَمْلُوكُ الصَّغِيرُ شُقَفَ الصَّحْنِ وَذَهَبَ الرَّجُلُ مَعَهُ دَلِيلاً إِلَىٰ مَقْصِدِهِ ، وَمَشَيْتُ مَعْهُمَا لأَعْرِفَ مَا يَكُونُ . .

دَخَلَ الرَّجُلُ بِالمَمْلُوكِ وَمَعَهُمَا الشُّقَفُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ بِجَانِبِ أَحَدِ الجَوَامِعِ وَلَمْ تَطُلْ غَيْبَتُهُمَا حَتَّىٰ خَرَجَ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ بِثَمَنِ مَا يُمَاثِلُ صَحْنَهُ المَكْسُورُ . وَحِينَ سَأَلْتُ الرَّجُلَ الدَّلِيلَ فَاعِلَ الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ عَمَّا جَرَىٰ . قَالَ لِي : إِنَّ سَيِّدَ الغُلاَمِ رَجُلٌ مُبَخَّلٌ شَدِيدُ الحِرْصِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ سَيِّدَهُ ذَاكَ لاَ بُدَّ أَنْ يَضْرِبَهُ عَلَىٰ كَسْرِ الصَّحْنِ أَوْيَنْهَرَهُ ، وَهَذَا مَا يَغُمُّ قَلْبَ الصَّغِيرِ وَيَكْسِرُ خَاطِرَهُ ، فَجِئْتُ بِهِ إِلَىٰ مُتَوَلِّي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الوَقْفِ جَبْراً لِلْقُلُوبِ وَ الخَوَاطِرِ .

مَضَىٰ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ بِمَا حَصَلَ فِي يَدِهِ مِنَ الدَّرَاهِمِ مُسْرِعاً لَهِفاً فَنَادَيْتُهُ مُسْتَوْقِفاً إِيَّاهُ عَلَىٰ رَصِيفِ الزُّقَاقِ ، فَانْدَهَشَ لِنِدَائِي وَ لِلزِّيِّ

المَغْرِبِيِّ الذِي أَرْتَدِيهِ ، وَالْتفَتَ إِلَيَّ مُرْتَاباً فِي أَمْرِي ، وَكَادَ يُعْرِضُ عَنِّي وَلاَ يَسْتَجِيبُ لَوْلاَ أَنْ اعْتَرَضَ ذَهَابَهُ فِي وِجْهَةٍ أُخْرَىٰ مُرورُ دَابَّةٍ يَمْتَطِيهَا صَاحِبُهَا ، وَقُلْتُ لَهُ :

ـ مَهْلاً يَا صَغِيرِي . . عَرَفْتُ قِصَّتِكَ وَ الصَّحْنَ المَكْسُورَ ، وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ الاسْتِهْدَاءِ إِلَىٰ دَارِ سَيِّدِكَ ، لأُوصِيهِ بِكَ خَيْراً عَسَىٰ أَلاَّ يَغْضَبَ مِنْكَ ، وَأَلاَّ يَسُوءَهُ تَأَخُرُّكَ عَنْهُ . .

قالَ الغُلاَمُ الصَّغِيرُ :

ـ أَشْكُرُكَ عَلَىٰ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِي ، وَمَا أَظُنُّنِي سَأَحْتَاجُ إِلَيْكَ إِذَا وَضَعْتُ الدَّرَاهِمَ فِي كَفّ سَيِّدِي . .

قُلْتُ لِلغُلاَمِ :

ـ سَأَدَعُكَ وَشَأْنَكَ أَنْتَ وَسَيِّدُكَ وَالدَّرَاهِمَ ، وَلَكِنْ قُلْ لِي مَا اسْمُكَ ؟

قَالَ الغُلاَمُ :

ـ اسْمِي دَهْمَانُ المَمْلُوكُ . .

قُلْتُ لَهُ :

ـ لَكَ أَنْ تَنْصَرِفَ الآنَ ، فَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ سَيِّدُكَ بِالمَلاَمِ أَوْ الضَّرْبِ ، فَأَنَا شَفِيعُكَ المُقِيمُ بِجِوارِ مَسْجِدِ الأَقْدَامِ . .

قَالَ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ دَهْمَانُ :

ـ وَدَارُ سَيِّدِي مِنْهُ قَرِيبٌ .

قُلْتُ لِلغُلاَمِ وَمَا أَدْرِي لِمَاذَا تَوَسَّمْتُ فِيهِ خَيْراً ، أُوصِيهِ كَأَحَدِ أَبْنَائِي :

ـ عَلَيْكَ بِصِدْقِ الإِيمَانِ ، وَكُنْ مَعَ اللهِ وَلاَ تُبَالِ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . . الوَدَاعَ يَا دَهْمَانُ . . الوَدَاعَ يَا دَهْمَانُ . . افْتَرَقْنَا وَأَخَذْتُ طَرِيقِي نَحْوَ المَسْجِدِ وَهُوَ فِي جِهَةِ القِبْلَةِ مِنْ دِمَشْقَ ، عَلَىٰ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ الكَبِيرِ المُتَّجِهِ إِلَىٰ الحِجَازِ الشَّرِيفِ . وَالبَيْتِ المُقَدَّسِ وَالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ اخْتَرْتُهُ مُعْتَكَفاً لِثَلاَثَةِ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا ، وَهُوَ مَسْجِدٌ عَظِيمُ البَرَكَةِ . وَالأَقْدَامُ التِي سُمِّيَ بِاسْمِهَا بَاقِيَةٌ فِي حَجَرٍ هُنَاكَ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا أَثَرُ خُطُوَاتِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ .

كَانَ مُقَامِي فِي دِمَشْقَ أَشْهُراً ، وَجَعَلْتُ عَلَيْهَا طَرِيقِي مِرَاراً ، سَمِعْتُ بِجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ الحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ ، وَتَلَقَّيْتُ العِلْمَ فِي جَوَامِعَ أُخْرَىٰ عَلَىٰ أَيْدِي عَدَدٍ مِنْ شُيُوخِهَا مِنْ شَتَّىٰ المَذَاهِبِ . وَمِمَّنْ أَجَازَنِي مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ إِجَازَةً عَامَّةً الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ الحِجَازِيُّ ، وَقَبْلَهُ فِي السَّمَاعِ لِحَدِيثِ البُخَارِي شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ ، المَعْرُوفُ بِابْنِ الشِّحْنَةِ الحِجَازِيِّ ، وَهَكَذَا كَانَ مِنْ رِضَىٰ الله وَإِكْرَامِهِ لِعَبْدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، شَمْسِ الدِّينِ الطَّنْجِيِّ الذِي هُوَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الذِي تَرَاهُ يَا مَوْلَايَ بَيْنَ يَدَيْكَ . .

وَأَخْتِمُ قِصَّتِي العَجِيبَةَ مَعَ المَمْلُوكِ دَهْمَانَ بِأَعْجَبِ لِقَاءٍ تَمَّ بَيْنَنَا بَعْدَ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً إِذْ دَخَلْتُ دِمَشْقَ بَعْدَ تَشْرِيقٍ وَتَغْرِيبٍ فِي عَامِ الطَّاعُونِ ، وَكَانَ دُخُولِي إِلَيْهَا فِي أَوَاخِرِ رَبِيعِ الثَّانِي مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي عَهْدِ مَلِكِ الأُمَرَاءِ نَائِبِ السُّلْطَانِ أَرْغُونْ شَاهْ .

فِي يَوْمِهَا أَمَرَ نَائِبُ السُّلْطَانِ أَرْغُون شَاهْ مُنَادِياً يَطُوفُ فِي أَحْيَاءِ دِمَشْق

وَسُبُلِهَا وَأَزِقَّتِهَا وَيُنَادِي أَنْ يَصُومَ النَّاسُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، وَلاَ يَطْبُخُوا بِالسُّوقِ .

ثُمَّ اجْتَمَعَ الأُمَرَاءُ وَالشُّرَفَاءُ وَالقُضَاةُ وَالفُقَهَاءُ وَسَائِرُ الطَّبَقَاتِ عَلَىٰ اخْتِلاَفِهَا فِي الجَوَامِعِ حَتَّىٰ غَصَّ بِهِمْ كُلُّ مُصَلَّىٰ . وَبَاتُوا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بَيْنَ صَلاَةٍ وَقِيَامٍ وَقُعُودٍ وَسُجُودٍ وَدُعَاءٍ وَتَبَتُّلٍ ، ثُمَّ صَلُّوا الصُّبْحَ وَخَرَجُوا جَمِيعاً عَلَىٰ أَقْدَامِهِم وَبِأَيْدِيهِمُ المَصَاحِفُ ، وَالأُمَرَاءُ حُفَاةٌ ضَارِعُونَ وَشَارَكَهُمْ بِالخُرُوجِ النِّسَاءُ وَالوِلْدَانُ وَجَمِيعُهُمْ بَاكُونَ مُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ الله بِجَاهِ كُتُبِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَصَدُوا مَسْجِدَ الأَقْدَامِ ، وَأَقَامُوا بِهِ فِي تَضَرُّعِهِمْ وَدُعَائِهِمْ إِلَىٰ قُرْبِ الزَّوَالِ . .

وَلَمَّا رُفِعَ أَذَانُ الظُّهْرِ لِصَلاَةِ الجُمُعَةِ أَوْمَأَ نَفَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ الإِمَامِ دَهْمانَ الأَبْيَضِ فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلاَّ المَمْلُوكَ الصَّغِيرَ صَاحِبَ الصَّحْنِ المَكْسُورِ الذِي جُبِرَ خَاطِرُهُ ، وَأَتْبَعْتُهُ بِنَصِيحَتِي بِصِدْقِ الإِيمَانِ ، قَبْلَ عِشْرِينَ عَاماً أَوْ تَزِيدُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُعْتَرِفاً بِالفَضْلِ لِصَاحِبِهِ :

ـ وَهَذِهِ أَيضاً مِنْ حَكَايَاتِكَ العَجِيبَةِ ، حِكَايَةُ (المَمْلُوكِ دَهْمَانَ) الذِي زَيَّنَهُ الله بِصِدْقِ الإيمَانِ ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ غُلَاماً فَغَدَا لِلمُؤتَمِّينَ إمَاماً ، وَالله صَاحِبُ الفَضْلِ العَظِيمِ ·





☆

المجموعة التاريخية للصغار

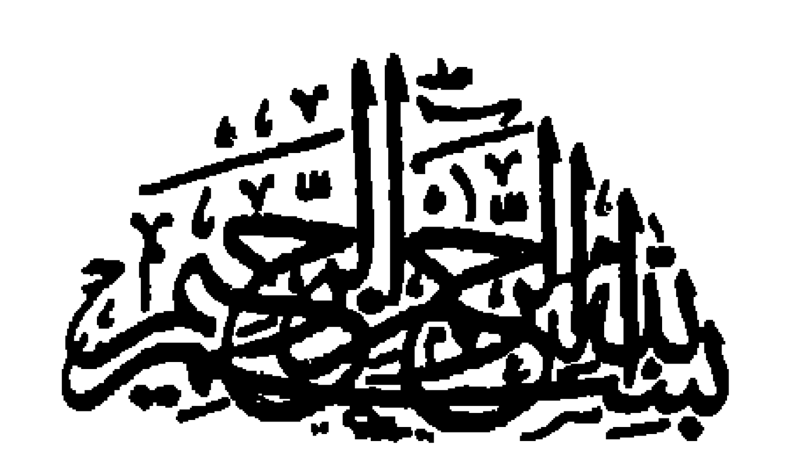
عجائب رحلة ابن بطوطة

قطارُ البركةِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس: 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

قِطَـارُ البَـرَكَـةِ[1]

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ الطَّنْجِيُّ مُحَدِّثاً مَوْلاَهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ الفَاسِيَّ ، وَمَعَهُمَا كَاتِبُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ :

ـ قَدْ عَلِمَ مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ أَنَّ مَبْدَأَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي بِمَا خَلَّفْتُهُ لَدَىٰ وَالِدَيَّ مِنْ لَوْعَةِ الفِرَاقِ ، كَانَ مَدْعَاهُ أَدَاءَ فَرِيضَةِ الحَجِّ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَة ، وَزِيَارَةَ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَعَلِمَ مَوْلاَيَ أَنَّ الحَجَّ إِلَىٰ الحِجَازِ لَمْ يَكُنْ مَيْسُوراً مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ إِلَىٰ جُدَّةَ ، فَاخْتَرْتُ الاتِّجَاهَ إِلَىٰ الشَّامِ بِمَقْدُورٍ كَأَنَّنِي بِهِ عَبْدٌ مَأْمُورٌ . فَلَمَّا أَقَمْتُ بِالشَّامِ وَدِمَشْقَ الشَّامِ . وَاسْتَهَلَّ شَهْرُ شَوَّالَ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، خَرَجْتُ مَعَ الرَّكْبِ الحِجَازِيِّ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ أَمِيرُ الرَّكْبِ سَيْفُ الدِّينِ الجُوبَانُ وَكَانَ سَفَرِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنَ العَرَبِ تُدْعَىٰ العَجَارِمَةَ

---

(١) القِطار : الرتل من الإبل أو العربات المسافرة يكون علىٰ نسَق .

فِي قِطَارٍ مِنَ النُّوقِ وَالجِمَالِ أَحَاطَهُ الله بِالرِّعَايَةِ وَالخَيْرِ وَالبَرَكَةِ مِنْ أَوَّلِ الرِّحْلَةِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهَا بِطَيْبَةَ الطَّيِّبَة ، وَهَكَذَا كَانَ . خَرَجْنَا مِنْ دِمَشْقَ إِلَىٰ القَرْيَةِ المَعْرُوفَةِ بِالكِسْوَةِ ، وَمِنْهَا إِلَىٰ قَرْيَةِ الصَّنَمَيْنِ إِلَىٰ بَلْدَةِ زَرْعَةَ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ ثُمَّ ارْتَحَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ بُصْرَىٰ فَأَقَمْنَا بِهَا أَرْبَعاً لِيَلْحَقَ بِنَا مَنْ تَخَلَّفَ بِدِمَشْقَ مِنَ الحَجِيجِ لِقَضَاءِ بَعْضِ مَآرِبِهِ .

وَالمَعْرُوفُ أَنَّ مَدِينَةَ بُصْرَىٰ الشَّامِ هِيَ المَدِينَةُ التِي وَصَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ قَبْلَ البِعْثَةِ ، وَبِهَا مَبْرَكُ نَاقَتِهِ قَدْ بُنِيَ عَلَيْهِ مَسْجِدٌ عَظِيمٌ . وَمِنْ بُصْرَىٰ ارْتَحَلْنَا إِلَىٰ اللّجُونِ ، حَيْثُ المَاءُ الجَارِي ثُمَّ إِلَىٰ حِصْنِ الكَرْكِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ الحُصُونِ وَأَمْنَعِهَا وَأَشْهَرِهَا وَيُسَمَّىٰ أَيْضاً بِحِصْنِ الغُرَابِ . وَقَدْ أَقَامَ الرَّكْبُ بِخَارِجِ الكَرْكِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الثَّنِيَّةُ ، وَجَاءَنِي فِي أَثْنَائِهَا أَمِيرُ العَرَبِ مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ العَجْرَمِيُّ وَهُوَ رَجُلٌ جَلِيلُ القَدْرِ ، وَوَكَّلَ إِلَيَّ اصْطِحَابَ رَجُلٍ كَهْلٍ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ ذُو لَوْثَةٍ لِغَرَابَةِ مَظْهَرِهِ وَكَانَ مِنْ صُلَحَاءِ غُرْنَاطَةَ ، تَسَمَّىٰ بِعَلِيِّ بْنِ حَجَرَ الأُمَوِيِّ وَتَلَقَّبَ بِخَابِزٍ لأَنَّهُ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ دَائماً فِي تَرْقِيقِ الأَرْغِفَةِ وَخَبْزِهَا مِنْ غَيْرِ عَجِينٍ سِوَىٰ مَا تَهَيَّأَ لَهُ بِخَيَالِهِ .

اسْتَجَبْتُ لإِرَادَةِ الأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ أَمِيرِ العَجَارِمَةِ الذِينَ كُنْتُ فِي قِطَارِهِمْ ، وَدَعَوْتُ خَابِزاً لِيَكُونَ فِي رِفْقَتِي مَسَافَةَ الطَّرِيقِ كُلِّهِ .

وَسَارَ بِنَا الرَّكْبُ حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَعَانَ وَبِهَا آخِرُ بِلَادِ الشَّامِ ، وَمِنْ عَقَبَةٍ تُدْعَىٰ عَقَبَةَ الصَّوَّانِ نَزَلْنَا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ .

فَجَاءَنِي فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ المُمْتَدِّ فِي الصَّحْرَاءِ مُرَافِقِي خَابِزٌ الغُرْنَاطِيُّ وَبِيَدِهِ رَغِيفَانِ مِنَ الخُبْزِ وَقَالَ لِي :

ـ دُونَكَ يَا سَيِّدِي ، هَذَا رَغِيفٌ لَكَ وَرَغِيفٌ لِي ، فَنَحْنُ الآنَ عَلَىٰ عَتَبَةِ الصَّحْرَاءِ التِي قِيلَ فِيهَا : دَاخِلُهَا مَفْقُودٌ وَخَارِجُهَا مَوْلُودٌ ، وَأَنَا لاَ آمَنُ عَلَيْكَ المَوْتَ جُوعاً ، أَمَّا المَاءُ فَدُونَكَ هَذِهِ القُرْبَةَ الصَّغِيرَةَ سَتَجِدُ فِيهَا مَا يَكْفِيكَ لِلشُّرْبِ وَالوُضُوءِ .

اخْتَفَىٰ الشَّيْخُ خَابِزٌ عَنْ نَظَرِي وَلَمْ أَلْقَهُ ثَانِيَةً إِلاَّ فِي المَدِينَةِ ، وَأَمَامَ البَقِيعِ يَقْرَأُ الفَاتِحَةَ عَلَىٰ قُبُورِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالصَّحَابَةِ الكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . وَبِتُّ أَخْشَىٰ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْهُ أَمِيرُ العَرَبِ الذِي أَلْزَمَهُ بِي وَأَلْزَمَنِي بِهِ كَأَمَانَةٍ فِي عُنُقِي .

وَمَا زِلْنَا فِي قِطَارِ الحَجِّ وَالبَرَكَةِ بَيْنَ حِلٍّ وَتَرْحَالٍ حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ تَبُوكَ وَهُوَ المَوْضِعُ الذِي غَزَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ . فَلَمَا نَزَلَهَا كَانَ بِهَا عَيْنُ مَاءٍ تَبِضُّ بِالقَلِيلِ ، فَلَمَّا تَوَضَّأَ مِنْهَا جَادَتْ بِمَاءٍ غَزِيرٍ ، وَلَمْ تَزَلْ إِلَىٰ هَذَا الزَّمَنِ نَضَّاحَةً غَزِيرَةً بِبَرَكَةِ رَسُولِ اللهِ ، يَتَزَوَّدُ مِنْهَا السَّقَّاؤون وَالجَمَّالُونَ فُرَادَىٰ وَجَمَاعَاتٍ وَيُتْرِعُونَ الصَّهَارِيجَ الضِّخَامَ وَالقِرَابَ .

وَفِي خَامِسِ الأَيَّامِ لِرَحِيلِنَا عَنْ تَبُوكَ وَصَلْنَا إِلَىٰ بِئْرِ الحِشْرِ . وَهُوَ حِجْرُ ثَمُودَ ، وَلاَيُسْتَقَىٰ مِنْهَا بِشَيءٍ لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِهَا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَأَسْرَعَ بِرَاحِلَتِهِ وَأَمَرَ أَنْ لاَ يُسْقَىٰ مِنْهَا أَحَدٌ .

وَيَقَعُ مَبْرَكُ نَاقَةِ النَّبِيِّ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ هُنَاكَ ، وَبَعْدَهُ تَأْتِي قَرْيَةُ العُلا ، وَهِيَ كَبِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِيهَا بَسَاتِينُ النَّخْلِ وَالمِيَاهُ المَعِينَةُ . وَمِنَ العُلا نَزَلْنَا الوَادِي المَعْرُوفَ بِالعُطَاسِ وَهُوَ شَدِيدُ الحَرِّ تَهُبُّ فِيهِ رِيحُ السَّمُومِ المُهْلِكَةُ .

وَمِنَ العَجِيبِ أَنَّنِي بَعْدَ أَنْ حَصَلْتُ عَلَىٰ رَغِيفِ الشَّيْخِ الخَابِزِ لَمْ أَشْعُرْ بِجُوعٍ قَطُّ ، فَقَدْ كُنْتُ أَلْتَقِمُ مِنهُ لُقَيْمَاتٍ فَأَجِدُهُ طَرِيّاً كَمَا كَانَ فِي

أَوَّلِ عَهْدِهِ . أَمَّا المَاءُ فَقَدْ كُنْتُ أَحْتَسِيهِ مِنْ رَوِيِّ الشَّيْخِ أَوْ مِنْ قُرْبَتِهِ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ فَأَرْتَوِي بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَبَرَكَةٍ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرِ الأُمَوِيِّ الغَرْنَاطِيِّ قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

وَفِي ذَاتِ عَشِيٍّ دَخَلَتْ قَافِلَةُ البَرَكَةِ الحَرَمَ الشَّرِيفَ ، فَتَرَجَلْنَا وَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، فَوَقَفْنَا بِبَابِ السَّلامِ مُسَلِّمِينَ ، وَصَلَّيْنَا بِالرَّوْضَةِ الكَرِيمَةِ بَيْنَ القَبْرِ وَالمِنْبَرِ . وَاسْتَلَمْنَا القِطْعَةَ البَاقِيَةَ مِنَ الجِذْعِ الذِي حَنَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَتِ القِطْعَةُ مُلْصَقَةً بِعَمُودٍ قَائِمٍ بَيْنَ القَبْرِ وَالمِنْبَرِ عَنْ يَمِينِ مُسْتَقْبِلِ القِبْلَةِ . وَأَدَّيْنَا حَقَّ السَّلامِ عَلَىٰ النَّبِيِّ شَفِيعِ العُصَاةِ وَالمُذْنِبِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الهَاشِمِيِّ ﷺ . وَلَمْ نُغْفِلْ حَقَّ السَّلامِ عَلَىٰ ضَجِيعَيْهِ فِي مَثْوَاهُ وَصَاحِبَيْهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأَبِي حَفْصٍ عُمَرَ الفَارُوقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . وَانْصَرَفْنَا إِلَىٰ رَحْلِنَا المُبَارَكِ مَسْرُورِينَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ العُظْمَىٰ ، حَامِدِينَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ البُلُوغِ إِلَىٰ مَعَاهِدِ رَسُولِ اللهِ الشَّرِيفَةِ وَمَشَاهِدِهِ العَظِيمَةِ المُنِيفَةِ ، وَاللهُ هُوَ صَاحِبُ المَنِّ وَالفَضْلِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، جَلَّ جَلالُهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَهُوَ مَشْدُودُ الاهْتِمَامِ إِلَىٰ حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا المَزِيدَ عَنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَوْضَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، فَهُمَا مَوْضِعُ حَنِينِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُشْتَاقٍ إِلَىٰ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَمَوَاقِعِ أَقْدَامِهِ الشَّرِيفَةِ حَيْثُ اسْتَقَرَّ مَقَرُّهُ بَيْنَ أَنْصَارِهِ ، وَالمُهَاجِرِينَ مَعَهُ فِي يَثْرِبَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ فَيْضَ الأَنْوَارِ الغَامِرَ تَسْتَوْعِبُهُ القُلُوبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَوْعِبُهُ الأَسْمَاعُ ، وَلَيْسَ مَنْ سَمِعَ كَمَنْ رَأَىٰ وَلَكِنَّنِي ـ مَعَ ذَلِكَ ـ سَأُحْدِثُ لِمَوْلَايَ مِنْهُ ذِكْراً بِمَا يُوَفِّقُنِي إِلَيْهِ اللهُ . .

اعْلَمْ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَدِمَ فِي عَامِ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ يَثْرِبَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ الثَّالِثَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ، فَنَزَلَ عَلَىٰ بَنِي عَوْفٍ ثُمَّ عَلَىٰ بَنِي النَّجَّارِ بِدَارِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ بَنَىٰ مَسَاكِنَهُ وَمَسْجِدَهُ .

وَكَانَ مَوْضِعُ المَسْجِدِ مِرْبَداً لِلإِبِلِ وَمَا شَاكَلَهَا ، وَفَضَاءً وَرَاءَ البُيُوتِ ، فَبَنَىٰ رَسُولُ اللهِ المَسْجِدَ ، وَعَمِلَ فِيهِ مَعَ أَصْحَابِهِ .

وَأَقَامُوا لَهُ فِي بَادِىءِ الأَمْرِ أَسَاطِينَ مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ . وَقَامَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ بِتَوْسِعَتِهِ فِي عَهْدِهِ ، ثُمَّ زَادَ فِيهِ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِالمَلِكِ ، وَتَوَلَّىٰ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ فَوَسَّعَهُ وَحَسَّنَهُ وَبَالَغَ فِي إِتْقَانِهِ وَعَمِلَهُ بِالرُّخَامِ وَالسَّاجِ المُذَهَّبِ .

وَكَانَ طُولُ المَسْجِدِ فِي بِنَاءِ الوَلِيدِ مِائَتَي ذِرَاعٍ فَبَلَّغَهُ الخَلِيفَةُ المَهْدِيُّ إِلَىٰ ثَلاَثِمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَسَوَّىٰ مَقْصُورَتَهُ بِالأَرْضِ وَكَانَتْ مُرْتَفِعَةً عَنْهَا بِمِقْدَارِ ذِرَاعَيْنِ . وَكَتَبَ اسْمَهُ عَلَىٰ مَوَاضِعَ مِنَ المَسْجِدِ .

ثُمَّ أَمَرَ المَلِكُ المَنْصُورُ قَلاَوُونُ بِبِنَاءِ دَارٍ لِلوُضُوءِ عِنْدَ بَابِ السَّلاَمِ جَعَلَهَا مُتَّسِعَةَ الفِنَاءِ ، وَأَجْرَىٰ إِلَيْهَا المَاءَ وَأَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ شَرَّفَهَا الله تَعَالَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ ، فَبَنَاهُ ابْنُهُ المَلِكُ النَّاصِرُ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ .

وَيَدُورُ بِالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ شَارِعٌ مُبَلَّطٌ بِالحَجَرِ المَنْجُوتِ . أَمَّا الرَّوْضَةُ المُقَدَّسَةُ فَهِيَ فُسْحة مُدَوَّرة بِالرُّخَامِ البَدِيعِ النَّحْتِ ، قَدْ عَلاَهَا تَضْمِيخُ المِسْكِ وَالطِّيبِ مَعَ طُولِ الأَزْمَانِ ، وَفِي الصَّفْحَةِ القِبْلِيَّةِ مِنْهَا

مِسْمَارُ فِضَّةٍ هُوَ قُبَالَةَ الوَجْهِ الكَرِيمِ ، وَهُنَالِكَ يَقِفُ النَّاسُ لِلسَّلامِ مُسْتَدْبِرِينَ القِبْلَةَ فَيُسَلِّمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ يَمِيناً إِلَىٰ وَجْهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَفِي وَسَطِ المَسْجِدِ مِفْضَاةٌ إِلَىٰ دَارِ أَبِي بَكْرٍ خَارِجَ المَسْجِدِ وَمِنْهَا طَرِيقُ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ إِلَىٰ دَارِ أَبِيهَا . . وَعَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ السَّلامِ سِقَايَةٌ يُنْزَلُ إِلَيْهَا عَلَىٰ درَجٍ مَاؤهَا مَعِينٌ ، وَتُعْرَفُ بِالعَيْنِ الزَّرْقَاءِ . .

إِلَىٰ هُنَا يَا مَوْلَايَ أَبَا عِنَانٍ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّيْتُ الحَدِيثَ عَنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَدِينَتِهِ وَدَارِ هِجْرَتِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ وَلَكِنْ مَا خَبَرُ المِنْبَرِ النَّبَوِي الشَّرِيفِ ؟ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ فِي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ إِلَىٰ جِذْعِ نَخْلَةٍ بِالمَسْجِدِ ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ ، حَنَّ الجِذْعُ مُصَوِّتاً حَنِينَ النَّاقَةِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الجِذْعِ فَالْتَزَمَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ مُسْتَرْضِياً حَتَّىٰ

سَكَنَ حَنِينُهُ . وَقَالَ : لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَحَنَّ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ جَرَىٰ فِي عِلْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ المِنْبَرَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِيمَنْ صَنَعَ المِنْبَرَ ، فَقِيلَ إِنَّهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ ، وَقِيلَ إِنَّهُ غُلَامٌ لِلعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَقِيلَ : غُلامٌ لإمْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ . خَشَبُهُ مِنَ الأَثْلِ أَوْ الطُّرْفَاءِ[1] وَكَانَتْ لِلمِنْبَرِ ثَلاثُ دَرَجَاتٍ ، يَقْعُدُ الرَّسُولُ عَلَىٰ عُلْياهِنَّ ، وَيَضَعُ رِجْلَيْهِ فِي وُسْطَاهُنَّ .

وَلَمَّا صَارَ الأَمْرُ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَرَادَ نَقْلَ المِنْبَرِ إِلَىٰ الشَّامِ فَضَجَّ المُسْلِمُونَ ، وَعَصَفَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ وَأَظْلَمَتْ الأَرْضُ فَلَمْ يَسَعْ مُعَاوِيَةَ إِلاَّ تَرْكُهُ حَيْثُ هُوَ مِنَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ . وَزَادَ فِيهِ سِتَّ دَرَجَاتٍ مِنْ أَسْفَلِهِ فَبَلَغَ بِهِ تِسْعَ دَرَجَاتٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

---

(١) الأثل والطرفاء : ضربان من الشجر ينتجر منهما .

ـ إنَّ لَبْثَ المِنْبَرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ فِي مَكَانِهِ كَرَامَةٌ مَلْحُوظَةٌ مِنْ كَرَامَاتِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إنَّ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ كَثِيرَةٌ ، كَانَ مِنْهَا حَنِينُ المِنْبَرِ ، وَانْشِقَاقُ القَمَرِ وَتَحْذِيرُ الضِّلْعِ المَسْمُومِ ، وَغَيْرُهَا وَغَيْرُهَا ، وَلِحَدِيثِهَا مَوْطِنٌ آخَرُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ صَدَقْتَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، فَحَدِّثْنِي الآنَ عَنْ عَجَائِبِ مَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ ، وَقَدْ انْتَظَمَتْكَ قَافِلَةُ البَرَكَةِ فِي قِطَارٍ مِنَ الإبِلِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ وَقَعَتْ لِي وَأَنَا بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَخْبَارٌ وَ أَخْبَارٌ وَلَكِنَّنِي أَسْتَأْذِنُ مَوْلَايَ السُّلْطَانَ فِي حِكَايَةِ خَبَرِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرِ الأُمَوِيِّ الغُرْنَاطِيِّ المُلَقَّبِ بِالخَابِزِ ، فَلَقَدْ اطَّلَعْتُ مِنْ خَبَرِهِ عَلَىٰ عَجَائِبَ مُذْ بَلَغْنَا المَدِينَةَ المُنَوَّرَةَ فَجَاوَرَ فِي مَسْجِدِهَا ، وَكَانَ مِنْهَامَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ فِي البَقِيعِ ، وَكَانَ مِنْهَا

بُلُوغُهُ مَقْصِدِي مَدِينَةَ دَهْلِي مِنْ بِلَادِ الهِنْدِ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ حَيْثُ التَقَيْتُهُ هُنَاكَ بِقُدْرَةٍ مُقَدَّرٍ لاَ أَدْرِي مَا حِكْمَتُهُ إِلاَّ أَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ عَجِّلْ ، وَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِ العَجِيبِ مَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ . . فَأَنْتَ أَدْرَىٰ بِلَزِيمِكَ المُرَافِقِ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ دَأَبَ صَاحِبِي عَلِيُّ بْنُ حَجَرٍ عَلَىٰ عَادَتِهِ فِي خَبْزِ الرُّقَاقَاتِ مِنْ صُنْعِهِ ، وَتَقْدِيمِهَا لِمَنْ يَخْتَارُهُ لِتَحِلَّ عَلَيْهِ بَرَكَاتُهُ ، فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، كَرَّمَهَا الله ، جَاءَنِي الخَابِزُ فِي تَالِي أَيَّامِنَا عَقِبَ صَلَاةِ الفَجْرِ بِالرَّوْضَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَذَبَنِي مِنْ يُمْنَايَ حَتَّىٰ تَجَاوَزْنَا الحَرَمَ إِلَىٰ خَارِجِهِ فَقَالَ لِي :

ـ هَلْ لَكَ فِي بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ حَضَرَانِي بِالرُّؤْيَا ؟ !

قُلْتُ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : اسْمَعْ وَاحْفَظْ عَنِّي :

هَنِيئاً لَكُمْ يَا زَائِرِينَ ضَرِيحَهُ أَمِنْتُمْ بِهِ يَوْمَ المَعَادِ مِنَ الرِّجْسِ

وَصَلْتُمْ إِلَىٰ قَبْرِ الحَبِيبِ بِطَيْبَةٍ فَطُوبَىٰ لِمَنْ يُضْحِي بِطَيْبَةَ أَوْ يُمْسِي

قُلْتُ لَهُ : زِدْنِي يَا عَلِيُّ . فَأَجَابَنِي أَنَا مَشْغُولٌ الآنَ بِالخَبْزِ . وَرَاحَ يُرَقِّقُ رُقَاقَاتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُقَدِّمُهُ إِلَىٰ المَاشِينَ وَالقَاعِدِينَ مِنْ حَوْلِهِ ، عَلَىٰ أَنَّهَا مَؤُونَةٌ حَقِيقِيَّةٌ . وَمَا لَبِثَ الرَّجُلُ المُلْتَاثُ أَنْ غَادَرَنِي مُوَدِّعاً وَهُوَ يَقُولُ :

ـ أَنَا مُسَافِرٌ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ تَجِدُنِي كَمَا كُنَّا فِي رِحْلَتِنَا مِنْ دِمَشْقَ ثَانِيَ اثْنَيْنِ عَلَىٰ الرَّحْلِ .

وَلَمَّا كُنْتُ فِي زِيَارَةِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ[1] بِشَرْقِيِّ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَتَحَرَّىٰ قَبْرَ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِالمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَهِيَ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَمَامَهَا قَبْرُ إِمَامِ المَدِينَةِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقَبْرُ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، وَكَانَتْ عَيْنَايَ تَحْتَبِسَانِ الدُّمُوعَ وَكَانَ قَلْبِي يَكِنُّ الخُشُوعَ ، فَإِذَا بِصَوْتِ عَلِيِّ بْنِ حَجَرٍ الخَابِزِ يَطْرُقُ مَسْمَعِي

---

(١) الغرقد : شجر عظيم ويقال له العوسج .

مِنَ الخَلْفِ ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ بَاسِطٌ كَفَّيْهِ مُسْتَرْسِلاً بِقِرَاءَةِ فَاتِحَة الكِتَابِ ، فَلَمَّا انْتَهَىٰ أَشَارَ بِيَدَيْهِ مُوَزِّعاً ثَوَابَ مَاقَرَأَهُ بَدَداً فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ . .

حَاوَلْتُ أَنْ أَقْتَادَهُ فِي طَرِيقِي خُطُوَاتٍ لِلبَحْثِ عَنْ قُبُورِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالصَّالِحِينَ ، وَلَكِنَّهُ وَلَّىٰ مُسْرِعاً مُتَشَاغِلاً بِخَبْزِ رُقَاقَاتِهِ . . وَلَمَّا نَادَيْتُهُ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ :

ـ يَا عَلِيُّ . . يَا عَلِيُّ . . مَتَىٰ تَعُودُ ؟ وَأَيْنَ أَلْقَاكَ ؟

أَلَنْ تَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَكَ فِي قِطَارِ البَرَكَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ لأَدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ ؟

أَجَابَنِي عَنْ ثِقَةٍ وَتَصْمِيمٍ :

ـ أَلْقَاكَ هُنَاكَ . . هُنَاكَ . .

سَأَلْتُهُ :

ـ هُنَاكَ فِي مَكَّةَ ؟ !

أَجَابَ :

ـ هُنَاكَ فِي دَهْلِي .

وَكَانَ أَنْ لَقِيتُهُ هُنَاكَ فِي دَهْلِي مِنْ بِلَادِ الهِنْدِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ حقاً ، إِنَّ حِكَايَةَ عَلِيٍّ الخَابِزِ حِكَايَةٌ مِنَ العَجَائِبِ . . وَمَا أَخْبَارُ رِحْلَتِكَ إِلَىٰ مَكَّة المُكَرَّمَةِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلاَهُ السُّلْطَانِ :

ـ إِنَّهَا حِكَايَةٌ تَطُولُ وَأَسْتَمِيحُكَ العُذْرَ فِي تَأْجِيلِهَا إِلَىٰ لَيْلَةٍ أُخْرَىٰ . . عَلَىٰ الأَقَلِّ مِنْ قَبِيلِ الرِّفْقِ بِصَاحِبِنَا الكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ . . وَغَمَزَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بِعَيْنَيْهِ غَمْزَةً ذَاتَ مَعْنَىٰ وَتَبَسَّمَ السُّلْطَانُ مُبْدِياً مُوَافَقَتَهُ عَلَىٰ التَّأْجِيلِ . . أَمَّا ابْنُ جُزِّيٍّ فَقَالَ مُمَازِحاً :

ـ لاَ تَجْعَلاَ التَّأْجِيلَ بِسَبَبِي . . أَنَا مُسْتَعِد أَنَا مُسْتَعِد مِنَ الآنَ وَحَتَّىٰ مَطْلِعِ الفَجْرِ . .

وَقَهْقَهَ الجَمِيعُ ضَاحِكِينَ ، وَانْفَضَّ المَجْلِسُ بِإِذْنِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

المجموعة التاريخية للصغار

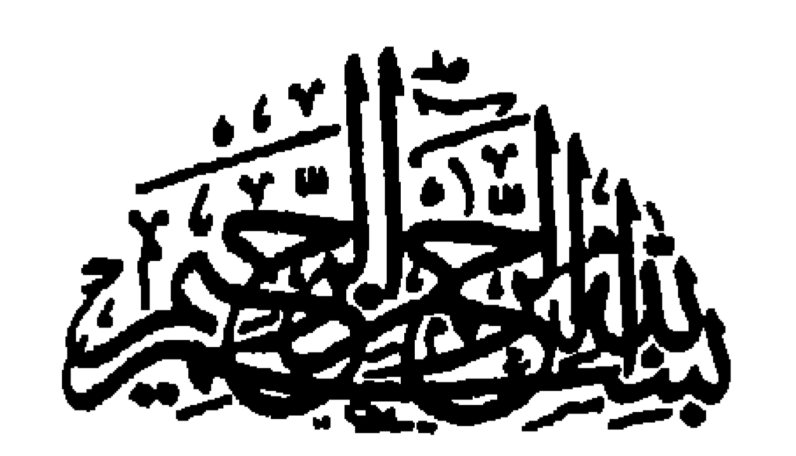
عبيرٌ من الشرقِ

عجائب رحلة ابن بطوطة



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

عَبِيرٌ مِنَ الشَّرْقِ

أَبْدَىٰ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ شَوْقاً وَتَلَهُّفاً عَظِيمَيْنِ لِسَمَاعِ أَخْبَارِ ابْنِ بَطُّوطَةَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، فَرَاحَ ابْنُ بَطُّوطَةَ يَرْوِي أَخْبَارَهُ العَجِيبَةَ عَلَىٰ عَادَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ كَانَ يَرْوِي مَايَرْوِيهِ بِتَأَثُّرٍ وَحَنِينٍ وَاشْتِيَاقٍ إِلَىٰ حَبِيبَةِ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ وَرُكْنِ اللهِ الرَّكِينِ ، الكَعْبَةَ المَكْسُوَّةِ ، كَالعَرُوسِ المَجْلُوَّةِ زَادَهَا اللهُ شَرَفاً وَتَعْظِيماً .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ يَتَحَدَّثُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مَلِكِ فَاسَ ، وَيُمْلِي عَلَىٰ كَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ :

ـ كَانَ رَحِيلُنَا مِنَ المَدِينَةِ نُرِيدُ مَكَّةَ شَرَّفَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ ، فَنَزَلْنَا بِقُرْبِ مَسْجِدِ ذِي الحُلَيْفَةِ الذِي أَحْرَمَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُنْتَهَىٰ حَرَمِ المَدِينَةِ ، وَبِالقُرْبِ مِنْهُ وَادِي العَقِيقِ . وَهُنَالِكَ تَجَرَّدَ الحَجِيجُ وَتَجَرَّدْتُ مِنَ الثِّيَابِ المَخِيطَةِ ، وَاغْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ ثَوْبَ إِحْرَامِي كَمَا فَعَلُوا .

وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ عَلَىٰ نِيَّةِ الحَجِّ مُفْرِداً . وَلَم أَزَلْ مُلَبِّيًابِهُتَافِ (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ) فِي كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ . وَفِي كُلِّ مَصْعَدٍ وَمُنْحَدَرٍ إِلَىٰ أَنْ أَتَيْتُ وَمَنْ مَعِي شِعْبَ عَلِيٍّ وَبِهِ نَزَلْنَا لَيْلَتَنَا .

ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْ شِعْبِ عَلِيٍّ ، وَنَزَلْنَا بِالرَّوْحَاءِ ، وَمِنْهَا انْتَقَلْنَا إِلَىٰ وَادٍ مَعْمُورٍ فِيهِ مَاءٌ وَنَخْلٌ وَبُنْيَانٌ وَقَصْرٌ يَسْكُنُهُ الشُّرَفَاءُ ، وَفِيهِ حِصْنٌ كَبِيرٌ ، تَوَالَتْ بَعْدَهُ حُصُونٌ كَثِيرَةٌ وَقُرَىً مُتَّصِلَةٌ حَتَّىٰ نَزَلْنَا بَدْراً حَيْثُ نَصَرَ الله فِيهَا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ نَصْراً مُؤَزَّراً مَذْكُوراً لاَ يُنْسَىٰ .

وَبَدْرُ قَرْيَةٌ فِيهَا حَدَائِقُ نَخْلٍ ، وَعَيْنُ مَاءٍ فَوَّارَةٌ ، وَبِهَا القَلِيبُ الذِي سُحِبَ إِلَيْهِ أَعْدَاءُ الله المُشْرِكُونَ ، وَمَوْضِعُهُ اليَوْمَ بُسْتَانٌ يُطِلُّ عَلَيْهِ جَبَلُ الرَّحْمَةِ ، وَجَبَلُ الطُّبُولِ ، وَعِنْدَ نَخْلِ القَلِيبِ مَسْجِدٌ يُقَالُ إِنَّهُ مَبْرَكُ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَيَلِي بَدْراً صَحْرَاءُ وَاسِعَةٌ يَضِلُّ بِهَا الدَّلِيلُ وَفِي مُنْتَهَاهَا وَادِي رَابِغْ ، حَيْثُ الغُدْرَانُ التِي يَبْقَىٰ بِهَا مَاءُ المَطَرِ زَمَاناً طَوِيلاً . وَرَابِغٌ هِيَ مَوْضِعُ إِحْرَامِ حُجَّاجِ مِصْرَ وَالمَغْرِبِ وَهُوَ مَوْضِعٌ دُونَ الجَحْفَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ مُعَلِّقاً عَلَىٰ حَدِيثِ مُنَادِمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِنَفَادِ صَبْرٍ :

ـ مَا هَذِهِ الأَوْصَافُ لِلأَمَاكِنِ وَالبُلْدَانِ ؟ صِلْ بِنَا إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَابْلُغْ بِنَا البَيْتَ الحَرَامَ وَالكَعْبَةَ المُشَرَّفَةَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عَفْوَ مَوْلَايَ السُّلْطَانِ . . إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : كُلَّمَا صَبَرْتَ عَنْ طَيِّبٍ وَجَدْتَهُ أَطْيَبَ . . وَهَأَنَذَا أَخْتَصِرُ المَسَافَاتِ وَالأَطْوَالَ عَلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ ، وَقَالَ :

ـ سِرْنَا مِنْ رَابِغٍ إِلَىٰ بِرْكَةِ خُلَيْفٍ إِلَىٰ عُسْفَانَ وَبِهَا حِصْنٌ عَتِيقٌ وَبُرْجٌ مُشَيَّدٌ قَدْ أَوْهَنَهُ الخَرَابُ وَنَزَلْنَا بَطْنَ مَرَّ وَهُوَ وَادٍ مُخْصِبٌ كَثِيرُ النَّخْلِ ، وَمِنْهُ تُجْلَبُ الفَوَاكِهُ وَالخُضَرُ إِلَىٰ مَكَّةَ ، شَرَّفَهَا الله تَعَالَىٰ . وَقَطَعْنَا هَذَا الوَادِي مَسِيرَةَ لَيْلِنَا وَالنُّفُوسُ مُسْتَبْشِرَةٌ بِبُلُوغِ آمَالِهَا مَسْرُورَةٌ بِحَالِهَا وَمَآلِهَا ، فَوَصَلْنَا عِنْدَ الصَّبَاحِ إِلَىٰ البَلَدِ الأَمِينِ مَكَّةَ .

هُنَا تَعَثَّرَتِ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، وَاسْتَوْقَفَ العَبَرَاتِ فِي مَآقِيهِ لِهُبُوبِ عَبِيرٍ لَافِحٍ مِنَ الشَّوْقِ الحَارِّ ، وَلَحِظَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ فَانْدَهَشَ ، وَصَرَفَ نَظَرَهُ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ :

ـ شَوَّقْتَنَا يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ فَأَذِقْنَا مِمَّا شَوَّقْتَنَا إِلَيْهِ . .

رَدَّدَ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ مَقُولَتَهُ المُعْتَادَةِ : (أَمْرُ مَوْلَايَ . . أَمْرُ مَوْلَايَ) وَاسْتَأْنَفَ الكَلَامَ : دَخَلْنَا البَيْتَ الحَرَامَ الشَّرِيفَ الذِي عُرِفَ أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . وَشَاهَدْنَا الكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا الله تَعْظِيماً ، وَهِيَ كَالعَرُوسِ تُجْلَىٰ عَلَىٰ مِنَصَّةِ الجَلَالِ ، وَتَرْفُلُ فِي بُرُودِ الجَمَالِ ، مَحْفُوفَةً بِوُفُودِ الرَّحْمَنِ ، مُوصِلَةً إِلَىٰ جَنَّةِ الرِّضْوَانِ . ـ

تَوَقَّفَ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَنِ الحَدِيثِ وَالسَّرْدِ كَرَّةً ثَانِيَةً وَتَعَثَّرَتِ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيْهِ لِمَا اعْتَرَضَهُ مِنْ خَيَالِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ وَهُبُوبِ عَبِيرِ الأَشْوَاقِ . . وَلَكِنَّهُ اسْتَأْنَفَ الكَلَامَ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْتَرِضَهُ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُحْتَجّاً . . قَالَ :

ـ شَرَعْنَا يَا مَوْلَايَ بِطَوَافِ القُدُومِ حَوْلَ الكَعْبَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ ، انْطِلَاقاً مِنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، وَقَدْ جَهِدْتُ لاسْتِلَامِ الحَجَرِ الكَرِيمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَثْنَاءَ الطَّوَافِ ، وَقَبَّلْتُهُ تَقْبِيلَ المُلَاقِي المُشْتَاقِ لِحَبِيبِهِ . . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْتُ مِنَ الطَّوَافِ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَعَلَّقْتُ

بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ مَعَ المَتَعَلِّقِينَ ، وَسَأَلْتُ الله جَلَّ وَعَلا ، أَنْ يُوَسِّعَ خُطَايَ فِي هُدَاهُ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنِي إِلَىٰ جَمِيعِ مَا يَرْضَاهُ . وَلَمْ اتْرُكْ التَّعَلُّقَ بِالأَسْتَارِ الشَّرِيفَةِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا ازْدَحَمَ مِنْ حَوْلِي المُلْتَزَمُ بَيْنَ البَابِ وَالحَجَرِ ، حَيْثُ يَحْرِصُ المُؤْمِنُونَ عَلَىٰ الدُّعَاءِ فِي أَقْرَبِ المُقَدَّسَاتِ اسْتِجَابَةً لِلقَاصِدِينَ الذِينَ يَعُجُّونَ بِالنِّدَاءِ وَالبُكَاءِ . . وَكُنْتُ مِنْهُمْ يَا مَوْلاَيَ . . . إِي نَعَمْ ، كُنْتُ مِنْهُم . .

حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ بِحُسْبَانِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَلاَ بِحُسْبَانِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، فَلَقَدْ تَسَلَّلَ الحَنِينُ وَالشَّوْقُ مِنْ رَاوِي المَجْلِسِ إِلَىٰ المُسْتَمِعِ فِيهِ ، وَتَرَقْرَقَتْ عَيْنَا السُّلْطَانِ نَفْسِهِ اسْتِعْبَاراً وَتَأَثُّراً بِعَبَرَاتِ ابْنِ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَمَاذَا بَعْدُ يَابْنَ بَطُّوطَةَ . . لَقَدْ فَجَّرْتَ فِينَا يَنْبُوعاً لِلشَّوْقِ وَالحَنِينِ لَمْ يَتَفَجَّرْ مُنْذُ أَزْمَانٍ . . سَامَحَكَ الله . . سَامَحَكَ الله . . بَلْ بَارَكَ الله فِيكَ . . بَارَكَ الله فِيكَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَّغَكَ اللهُ مَا بَلَّغَنِي مِنْ نَوَالِ رِضَاهُ بِزِيَارَةِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، فَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ جَمُّ الإِيمَانِ ، جَمُّ التُّقَىٰ وَالصَّلاحِ ، وَلَكِنَّ حَجَّكَ إِلَىٰ مَكَّةَ يَزِيدُ فِرِنْدَكَ[1] صَقْلاً ، وَيَسِمُ[2] فَضْلَكَ المَوْفُورَ نُبْلاً . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ يَحُثُّ ابْنَ بَطُّوطَةَ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الوَصْفِ وَالكَلَامِ :

ـ وَمَاذَا كَانَ مِنْكَ بَعْدَ الدُّعَاءِ المُسْتَجَابِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جِئْتُ بِئْرَ زَمْزَمَ تَحْتَ قُبَّةٍ تُقَابِلُ الحَجَرَ الأَسْوَدَ ، بَيْنَهُمَا أَرْبَعٌ وَعُشْرُونَ خُطْوَةً . وَدَاخِلُ القُبَّةِ مَفْرُوشٌ بِالرُّخَامِ الأَبْيَضِ وَبَابُهَا إِلَىٰ جِهَةِ المَشْرِقِ يَدْخُلُ مِنْهُ الحَجِيجُ لِلوُضُوءِ أَوْ لِلشُّرْبِ مِنْ قِلالٍ يُسَمُّونَهَا الدَّوَارِقَ ، تَصْلُحُ لِيُبَرَّدَ فِيهَا المَاءُ . وَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ احْدَىٰ القِلَالِ مَاءً بَارِداً ، وَدَعَوْتُ اللهَ دُعَاءً مُخْتَاراً أَحْفَظُهُ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) الفِرِندْ : جوهر السيف .

(٢) يسمُ : يزين بالوسم أو بالعلامة الفارقة .

«مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ» فَهُوَ يَصْلُحُ شِفَاءً وَدَوَاءً وَتَقَرُّباً مِنَ اللهِ الكَرِيم

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَمَعَهُ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ :

ـ هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، طِبْتَ بِمَا اسْتَقَيْتَ وَسَقَاكَ اللهُ . .

وَتَسَاءَلَ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ وَهَلْ سَعَيْتَ بَعْدَهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ؟ !

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَىٰ ، قَدْ سَعَيْتُ لِتَوِّي وَلَمْ أَتَبَاطَأْ ، وَلِلصَّفَا بَابٌ هُوَ أَحَدُ أَبْوَابِ المَسْجِدِ الحَرَامِ التِّسْعَةَ عَشَرَ وَأَكْبَرُهَا .

وَامْتِدَادُهُ إِلَىٰ آخِرِ المَسْعَىٰ أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَلاثٌ وَتِسْعُونَ خُطْوَةً . وَبَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ دَارُ العَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَهِيَ الآنَ رِبَاطٌ يَسْكُنُهُ المُجَاوِرُونَ لِلحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ عَمَّرَهُ وَأَعَدَّهُ لِذَلِكَ المَلِكُ النَّاصِرُ رَحِمَهُ اللهُ .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ وَأَيْنَ كَانَ مَنْزِلُكَ فِي مَكَّةَ آنَئِذٍ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ نَزَلْنَا هُنَالِكَ بِدَارٍ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ رِبَاطٌ مِنْ أَحْسَنِ الرِّبَاطَاتِ يُعْرَفُ بِرِبَاطِ المُوَفَّقِ ، وَفِيهِ التَقَيْتُ بِكِرَامِ الرِّجَالِ الصَّالِحِينَ ، مِنْهُمُ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الله الزَّوَاوِيُّ المَغْرِبِيُّ ، وَالشَّيْخُ الصَّالِحُ الطَّيَّارُ سَعَادَةُ الجِرَانِيُّ ، وَشَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الشَّامِيُّ ، وَالشَّيْخُ الصَّالِحُ شُعَيْبُ المَغْرِبِيُّ الذِي دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً فَلَمْ يَقَعْ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ عَلَىٰ شَيءٍ سِوَىٰ حَصِيرٍ . فَلَمَّا قُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ لِي : اسْتُرْ عَلَيَّ مَا رَأَيْتَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ عَسَاكَ لاَ تَسْتَكْثِرُ عَلَيَّ قَاعَةَ العَرْشِ هَذِهِ بِمَا فِيهَا مِنْ بُسُطٍ وَنَمَارِقٍ وَسُتُورٍ وَسُدَدٍ . .

ـ حَاشَا وَكَلاَّ يَا مَوْلاَيَ . . فَإِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ الْوَاسِعُ العَلِيمُ ، وَهُوَ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ، وَمَا أَعْهَدُكَ إِلاَّ مُحَدِّثاً بِنِعْمَتِهِ ، شُكُوراً لَهُ لِيَزِيدَكَ إِنْ شَاءَ الله مِنْ فَضْلِهِ .

بِهَذَا الكَلامِ سُرِّيَ عَنْ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَقَالَ :

ـ اشْتَقْتُ إِلَىٰ سَمَاعِ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائِبِكَ مِمَّا رَأَيْتَهُ وَسَمِعْتَهُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَوْ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُنَادِمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَا مَوْلَايَ بِأَكْثَرَ مِنْ حَدِيثٍ عَجِيبٍ ، مِنْهُ مَا شَهِدْتُهُ بِأُمِّ عَيْنَيَّ ، وَمِنْهُ مَا سَمِعْتُهُ بِالتَّوَاتُرِ مِمَّا هُوَ مَأْثُورٌ وَمَشْهُورٌ عِنْدَهُم :

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ :

ـ سَاكَنْتُ الشَّيْخَ الصَّالِحَ الطَّيَّارَ سَعَادَةَ الجِرَانِيَّ فِي رِبَاطِ المُوَفَّقِ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَذَاتَ يَوْمٍ صَادَفْتُهُ بِبَابِ حُجْرَتِهِ وَقْتَ صَلَاةِ العَصْرِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَلَم يَرُدَّ السَّلَامَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَيَّ بِأَرْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ وَهُوَ يَقُولُ : (أَرْبَعُ خُطُوَاتٍ ثُمَّ نَلْتَقِي) فَلَم أَفْهَم لَهُ قَصْداً بِهَذِهِ الإِشَارَةِ حَتَّىٰ إِذَا أَذَّنَ العَصْرُ وُجِدَ

الشَّيْخُ الصَّالِحُ سَعَادَةُ الجِرَانِيّ سَاجِداً مُسْتَقْبِلاً الكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ مَيْتاً مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ كَانَ بِهِ ، فَهَذَا حَادِثٌ عَجِيبٌ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَقّاً إِنَّهُ حَادِثٌ عَجِيبٌ ، وَكَأَنِّي بِالشَّيْخِ الصَّالِحِ قَدْ كُشِفَ عَنْ بَصِيرَتِهِ فَتَوَقَّعَ لِقَاءَ اللهِ بَعْدَ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ أَوْ أَرْبَعِ خُطُوَاتٍ كَمَا أَسْمَاهَا . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَأَمَّا الحِكَايَةُ العَجِيبَةُ الثَّانِيَةُ يَا مَوْلاَيَ فَهِيَ أَنِّي وَدِدْتُ لِقَاءَ أَمِيرِ مَكَّةَ سَيْفِ الدِّينِ عُطَيْفَةَ بْنِ أَبِي نَمِيّ ، وَكَانَتْ دَارُهُ عَنْ يَمِينِ المَرْوَةِ لِلسَّاعِي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَة ، فَقُلْتُ أَلْزَمُ المَرْوَةَ حِيناً فَلاَ بُدَّ أَنْ أَلْقَاهُ هُنَاكَ . وَمَا كِدْتُ أَلْزَمُ مَوْقِفِي بِالمَرْوَةِ حَتَّىٰ بَادَرَنِي بِالسَّلاَمِ رَجُلٌ وَجِيهٌ عَزِيزُ المَقَامِ قَائلاً :

ـ وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ الطَّنْجِي المَغْرِبِيّ . . أَلَسْتَ بِذَاكَ ؟

قُلْتُ : (بَلَىٰ) وَلَكِنْ قُلْ لِي :(مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدِي ؟) قَالَ : (أَنَا

الذي وَدِدْتَ السَّلامَ عَلَيْهِ أَمِيرُ مَكَّةَ ، وَأَدْعُوكَ لِزِيَارَتِي فِي دَارِ الإِمَارَةِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ حَجِّكَ بَعْدَ التَّحَلُّلِ مِنْ إِحْرَامِكَ . . قُلْتُ : سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ . . فَلَمَّا لَقِيتُهُ قَالَ : هَيْئَتُكَ تَطُوفُ فِي البُلْدَانِ وَتَنْأَىٰ عَنِ الأَوْطَانِ فَتَزَوَّدْ إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ . فَمَا زِلْتُ أَلْقَىٰ عُلَمَاءَ مَكَّةَ وَفُقَهَاءَهَا وَأَكْرَمَنِي رَبِّي بِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ يُوَجِّهُنِي إِلَىٰ العِلْمِ.

وَمِنَ المَشَاهِدِ الكَرِيمَةِ وَالأَعَاجِيبِ التِي تَوَاتَرَ الحَدِيثُ عَنْهَا مَشْهَدُ الحَجَرِ النَّاطِقِ ، فَتَحْتَ قُبَّةِ الوَحْيِ فِي دَارِ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ وَعَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْهَا ، تَقَعُ دَارُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَيُقَابِلُهَا جِدَارٌ مُبَارَكٌ ، فِيهِ حَجَرٌ مُبَارَكٌ لَهُ طَرَفٌ بَارِزٌ يَسْتَلِمُهُ النَّاسُ . سَأَلْتُ عَنْ خَبَرِهِ ، فَقِيلَ لِي : إِنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَقِيلَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَىٰ إِلَىٰ دَارِ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ فَنَادَىٰ فِي طَلَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ حَاضِراً ، فَمَا كَانَ مِنَ الحَجَرِ إِلاّ أَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ نَاطِقاً : (يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ لَيْسَ بِحَاضِرٍ) . فَعُرِفَ مِنْ حِينِهَا بِالحَجَرِ النَّاطِقِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ يُبْدِي إِعْجَابَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ نَدِيمِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ كَفَّيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الله وَوَفَّيْتَ . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ قَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ مَجْلِسُنَا هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِأَمْرِكَ المُطَاعِ دَعْنِي يَا مَوْلاَيَ ، أُحَدِّثُكَ خِتَاماً عَنْ عَجَائِبِ صُنْعِ الله حِينَ طَبَعَ قُلُوبَ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ، عَلَىٰ النُّزُوعِ إِلَىٰ هَذِهِ المَشَاهِدِ المُنِيفَةِ ، وَالشَّوقِ إِلَىٰ المُثُولِ بِمَعَاهِدِهَا الشَّرِيفَةِ . وَقَدْ جَعَلَ حُبَّهَا مُتَمَكِّناً فِي القُلُوبِ ، فَلاَ يَحُلُّهَا أَحَدٌ إِلاَّ أَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ فَهُو لاَ يُفَارِقُهَا إِلاَّ آسِفاً لِفِرَاقِهَا ، مُتَولِّهاً لِبِعَادِهِ عَنْهَا ، شَدِيدَ الحَنِينِ إِلَيْهَا ، نَاوِياً لِتِكْرَارِ الوِفَادَةِ عَلَيْهَا .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الكَلاَمِ تَعَثَّرَتْ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيْ المُتَحَدِّثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَاعْتَذَرَ هُنَيْهةً لِمُغَالَبَتِهِ دُمُوعَ الشَّوقِ ، وَأَضَافَ يَقُولُ :

ـ تِلْكَ الأَرْضُ المُبَارَكَةُ تَبْدُو دَائِماً نُصْبَ الأَعْيُنِ ، وَمَحَبَّتُهَا حَشْوَ القُلُوبِ ، حِكْمَةً مِنَ الله بَالِغَةً ، وَتَصْدِيقاً لِدَعْوَةِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَهُوَ يَرْفَعُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَمِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ يَا مَوْلاَيَ

السُّلْطَانِ أَنَّ الشَّوْقَ يُحَضِّرُهَا وَهِيَ نَائِيَةٌ ، وَيُمَثِّلُهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ ، وَيُهَوِّنُ عَلَىٰ قَاصِدِيهَا مَا يَلْقَاهُ مِنَ المَشَاقِّ ، وَيُعَانِيهِ مِنَ العَنَاءِ ، وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ يَرَىٰ المَوْتَ مِنْ دُونِهَا عَيَاناً ، وَيُشَاهِدُ التَّلَفَ فِي طَرِيقِهَا امْتِحَاناً ، فَإِذَا جَمَعَ الله بِهَا شَمْلَهُ تَلَقَّاهَا مَسْرُوراً مُسْتَبْشِراً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَذُقْ لَهَا مَرَارَةً ، وَلَمْ يُكَابِدْ مِحْنَةً وَلاَ نَصَباً . .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ مُعَلِّقاً عَلَىٰ مَا يَسْمَعُ :

ـ حَقاً ، إِنَّهُ لأَمْرٌ إِلَهِيٌّ ، وَصُنْعٌ رَبَّانِيٌّ ، وَدِلاَلَةٌ مَا بِهَا لَبْسٌ ، وَلاَ تَغْشَاهَا شُبْهَةٌ ، وَلاَ يَطْرُقُهَا تَمْوِيهٌ ، وَمَنْ رَزَقَهُ الله تَعَالَىٰ الحُلُولَ بِتِلْكَ الأَرْجَاءِ ، وَالمُثُولَ بِذَلِكَ الفِنَاءِ[1] ، فَقَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ النِّعْمَةَ الكُبْرَىٰ . .

قَامَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ مَجْلِسِهِ إِلَىٰ نَافِذَةٍ قَرِيبَةٍ فِي قَاعَةِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، وَكَانَتْ النَّافِذَةُ مُشْرَعَةً بِاتِّجَاهِ الشَّرْقِ ، بِاتِّجَاهِ الحِجَازِ حَيْثُ طَيْبَةُ الطَّيِّبَةُ وَالمَدِينَةُ المُنَوَّرَةُ مَثْوَىٰ الرَّسُولِ ﷺ . . وَشَهَقَ بِنَفَسٍ عَمِيقٍ وَكَأَنَّهُ

(١) الفناء : ساحة البيت ، وقصد ساحة الحرم الشريف حول الكعبة المشرّفة .

يَتَنَفَّسُ عَبِيراً وَافِداً مِنَ الشَّرْقِ حَرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَلْتَقِىٰ أَنْسَامَهُ بِجَمِيعِ حَنَايَاهُ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ بِدُعَاءٍ غَامِضٍ لَمْ تَتَضِحْ مِنْهُ كَلِمَةٌ . هُنَا طَفِرَتْ دَمْعَةٌ غَالِبَةٌ مِنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ لاعِجُ الشَّوْقِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ مُؤَمِّنَاً عَلَىٰ دُعَاءِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ اللهمَّ آمِينَ . . اللهمَّ آمِينَ . .

وَشُغِلَ المَجْلِسُ السُّلْطَانِيُّ كُلُّهُ بِعَبِيرٍ قَادِمٍ مِنَ الشَّرْقِ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

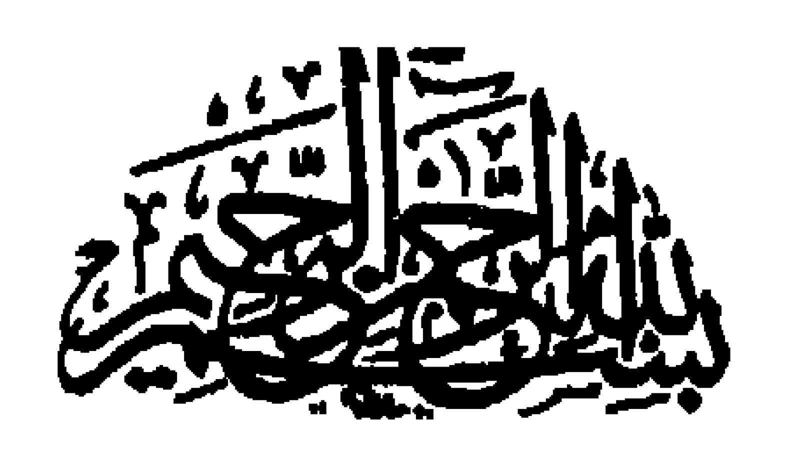
عجائب رحلة ابن بطوطة

الطريقُ إلى الغارِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

الطَّرِيقُ إِلَىٰ الغَارِ

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ فِي خِطَابِ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ المُكَنَّىٰ بِأَبِي عِنَانٍ ، وَقَدْ انْعَقَدَ مَجْلِسُ الثَّلَاثَةِ بِوُجُودِ مُحَمَّدِ ابْنِ جُزَيٍّ الكَاتِبِ :

ـ لاَ يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ أَنَّ مَدِينَةَ مَكَّةَ حَرَسَهَا الله وَمَا حَوْلَهَا ، كَانَتْ بِقِيعَانِهَا وَسُهُولِهَا . وَنُجُودِهَا مَوَاطِىءَ أَقْدَامِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله الهَاشِمِيِّ القُرَشِيِّ ﷺ .

وَلاَبُدَّ لِي يَا مَوْلاَيَ مِنَ التَّعَرِيجِ عَلَىٰ ذِكْرِ الجِبَالِ المُطِيفَةِ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ أَرْوِيَ لَكَ الحَدِيثَ العَجِيبَ ، وَمَا جَرَىٰ لاِثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِي كَانَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَىٰ غَارِ ثَوْرٍ .

مِنَ الجِبَالِ المُطِيفَةِ بِمَكَّةَ فِي جِهَةِ الجَنُوبِ وَالشَّرْقِ جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ ، وَهُوَ أَحَدُ الأَخْشَبَيْنِ وَأَدْنَىٰ الجِبَالِ مِنْ مَكَّةَ ، شَرَّفَهَا الله ، وَيُقَابِلُ رُكْنَ

الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، وَبِأَعْلاَهُ مَسْجِدٌ وَأَثَرُ رِبَاطٍ وَعِمَارَةٍ ، وَإِطْلاَلُ أَبِي قُبَيْسٍ عَلَىٰ الحَرَمِ الشَّرِيفِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ البَلَدِ ، وَمِنْهُ يَظْهَرُ حُسْنُ مَكَّةَ المَصُونُ مِنَ الرَّحْمَنِ ، وَيَظْهَرُ جَمَالُ الحَرَمِ وَاتِّسَاعَهُ وَفِي وَسَطِهِ الكَعْبَةُ المُعَظَّمَةُ مِنَ الله تَعْظِيماً جَعَلَهَا بِهِ قِبْلَةً لِلصَّلاَةِ أَيْنَمَا أُقِيمَتْ صَلاةٌ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ . وَيُذْكَرُ أَنَّ جَبَلَ أَبِي قُبَيْسٍ هُوَ أَوَّلُ جَبَلٍ خَلَقَهُ الله تَعَالَىٰ ، وَفِي جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ مَوْضِعُ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ انْشَقَّ لَهُ القَمَرُ . وَمِنَ الجِبَالِ التِي حَظِيَ كُلٌّ مِنْهَا بِخَبَرٍ وَأَثَرٍ ، جِبَالُ قُعَيْقِعَانٍ ، وَجَبَلُ الطَّيْرِ وَجَبَلُ الخَنْدَمَةِ ، وَلاَ تُضَارِعُ شُهْرَتُهَا شُهْرَةَ جَبَلِ حِرَاءَ .

أَمَّا جَبَلُ حِرَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ مِنْ مَكَّةَ فَهُوَ عَلَىٰ بُعْدِ فَرْسَخٍ مِنْهَا ، وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَىٰ مِنَىٰ ، ذَاهِبٌ فِي الهَوَاءِ عُلُوّاً ، وَاشْتُهِرَ بِأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ كَثِيراً قَبْلَ البِعْثَةِ ، وَفِيهِ أَتَاهُ الحَقُّ وَبَدَأَ الوَحْيُ ، وَهُوَ الذِي اهْتَزَّ تَحْتَ قَدَمَيْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَهُ : « **اثْبُتْ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ** » وَفِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ مِنْ ضِمْنِ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ هَلْ لَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ أَنْ تُطْرِفَنِي بِحَدِيثٍ عَجِيبٍ يَكُونُ لَنَا مَسْلاةً فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ سَنُدْلِفُ إِلَىٰ الحِكَايَةِ العَجِيبَةِ التِي جَرَتْ لِصَاحِبَيَّ المُجَاوِرَيْنِ بِالحَرَمِ الشَّرِيفِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ لَهُمَا فِي جَبَلِ ثَوْرٍ وَمَغَارَتِهِ التِي كَانَتْ مَأْوَىٰ الرَّسُولِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ غَدَاةَ الهِجْرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ . وَقَدْ وَضَعْتُ فِي حِسَابِي بَلْ وَضَعْتُ فِي هَمِّي أَنْ تَكُونَ يَا مَوْلاَيَ مَسْرُوراً بِطَرَافَةِ الحَدِيثِ وَمَا فِيهِ مِنَ العَجَائِبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ دُونَكَ مَا تُرِيدُ ، وَلاَ تَنْسَ أَنَّ كَاتِبَنَا ابْنَ جُزَيٍّ يَتَسَقَّطُ وَيَتَلَقَّطُ مِنْ فَمِكَ خِيرَةَ مَا يُدَوِّنُهُ القَلَمُ فِي سِجِلٍّ سَيُذْكَرُ لَكَ فَضْلُ إِمْلاَئِهِ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ . . وَاسْتَرْسَلَ أَبُو عَبْدِ الله الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ جَبَلُ ثَوْرٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ قَدْرِ فَرْسَخٍ مِنْ مَكَّةَ ، عَلَىٰ طَرِيقِ اليَمَنِ ،

فِيهِ الغَارُ الذِي اشْتَهَرَ بِاسْمِهِ ثَوْرٍ ، وَهُوَ الذِي آوَىٰ الرَّسُولَ مُحَمَّداً وَصَاحِبَهُ بِنِدَاءٍ عَجِيبٍ : (إِلَيَّ ، إِلَيَّ يَا مُحَمَّدُ ، فَقَدْ آوَيْتُ قَبْلَكَ سَبْعِينَ نَبِيّاً . .) .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ أَلَيْسَ هُوَ الغَارُ الذِي نَسَجَتْ عَلَىٰ مَدْخَلِهِ العَنْكَبُوتُ ، وَعَشَّشَتْ الحَمَامَةُ وَفَرَّخَتْ ؟ .

ـ بَلَىٰ ، يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانَ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ المُشْرِكِينَ الذِينَ كَانُوا فِي إِثْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبِهِ حِينَ انْتَهَوْا إِلَىٰ الغَارِ وَمَعَهُمْ قُصَّاصُ الأَثَرِ وَرَأَوْا العَنْكَبُوتَ قَدْ نَسَجَتْ عَلَىٰ فُوَّهَةِ الغَارِ ، وَالحَمَامَةَ مُفَرِّخَة ، حَارُوا فِي أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ مَا لَبِثُوا أَنْ قَالُوا : مَا دَخَلَ أَحَدٌ هُنَا ، وَانْصَرَفُوا خَائِبِينَ لِخَيْبَتِهِمْ . فَقَالَ الصِّدِّيقُ لِصَاحِبِهِ ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، لَوْ وَلَجُوا عَلَيْنَا مِنْ فَمِ الغَارِ مِنْ هُنَا ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : كُنَّا نَخْرُجُ مِنْ هُنَا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ المُبَارَكَةِ إِلَىٰ الجَانِبِ الآخَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بَابٌ ، فَانْفَتَحَ فِيهِ بَابٌ لِتَوِّهِ وَلَحْظَتِهِ ، وَذَلِكَ بِقُدْرَةِ المَلِكِ القَادِرِ الوَهَّابِ جَلَّ جَلَالُهُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُثْنِياً عَلَىٰ مُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ لا عَدِمْتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله ، نَدِيماً وَمُحَدِّثاً ، وَالآنَ أَلاَ تَشْتَهِي بَعْضَ النُّقُولِ وَالفَاكِهَةِ ؟ !

صَفَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِيَدَيْهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الحَاجِبُ فَأَسَرَّ فِي أُذُنِهِ بِأَمْرِهِ ، وَجَاءَ الخَدَمُ فَبَسَطُوا قُدَّامَ السُّلْطَانِ وَنَدِيمِهِ وَكَاتِبِهِ مَالَذَّ وَطَابَ مِنَ النُّقُولِ وَالفَاكِهَةِ مَعَ أَبَارِيقَ فِيهَا شَرَابٌ مُحَلَّىٰ ، وَكُؤُوسٌ مُتْرَعَةٌ كَانَتْ بِهَا فُرْصَةٌ لِلاسْتِرَاحَةِ وَالتِقَاطِ الأَنْفَاسِ .

بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا خَبَرُ ذَلِكَ الغَارِ غَارِ ثَوْرٍ ؟ أَوْ بِالأَحْرَىٰ مَا خَبَرُكَ مَعَهُ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ بَعْضاً ،بَلْ إِنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الزُّوَّارِ وَالحَجِيجِ يَقْصِدُونَ زِيَارَةَ هَذَا الغَارِ المُبَارَكِ ، وَيَرُومُونَ دُخُولَهُ مِنَ البَابِ الذِي دَخَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْتِغَاءَ لِلبَرَكَةِ . وَلِهَذَا الغَارِ المُبَارَكِ سِرٌّ عَظِيمٌ يُدْرِكُهُ المُفْلِحُونَ المُهْتَدُونَ مِنَ الأُمَّةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَهَلْ اطَّلَعْتَ عَلَىٰ هَذَاالسِّرِّ ، أَوْ أَدْرَكْتَهُ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ !

ـ العِلْمُ عِنْدَالله يَامَوْلاَيَ ، أَنَّ بِدُخُولِ الغَارِ وَإِمْكَانِ الوُصُولِ إِلَىٰ جَوْفِهِ اخْتِبَاراً مِنَ الله لإِخْلاَصِ عِبَادِهِ وَتَقْوَاهُم . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الدِّيَارِ فِيمَاحَوْلَ الغَارِ المُبَارَكِ أَنَّ الغَارَ لايَتَمَكَّنُ مِنْ دُخُولِهِ إِلاَّ الصَّالِحُونَ المَرْضِيُّونَ ، فَإِذَا كَانَ قَاصِدُ الدُّخُولِ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ المَعَاصِي وَمُرْتَكِبِي الكَبَائِرِ ضَاقَ بِهِ مُدْخَلُهُ وَأَشْرَفَ عَلَىٰ الهَلاَكِ ، وَكَأَنَّهُ وَاقِعٌ بَيْنَ فَكَّيْنِ مِنَ الصَّخْرِ حَتَّىٰ يُنْقِذَهُ مُنْقِذٌ وَيَسْحَبَ بَدَنَهُ مِنْ بَيْنِ مَطْبِقَيْهِ . أَمَّا إِنْ كَانَ القَاصِدُ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ وَالصَّلاَحِ ، وَمِمَّنْ لَمْ يُسْرِفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم فَيَكُونُ دُخُولُهُ إِلَىٰ جَوْفِ الغَارِ مَيْسُوراً بِإِذْنِ الله . وَلِهَذَا يَتَحَامَىٰ الكَثِيرُونَ مُحَاوَلَةَ الدُّخُولِ خَشْيَةَ مَاهُوَ مُخْجِلٌ

فَاضِحٌ مِنَ الامْتِحَانِ . وَقَدْ مَالَ الكَثِيرُونَ مِنْ قَاصِدِي الغَارِ إِلَىٰ تَجَنُّبِ مُحَاوَلَةِ دُخُولِهِ وَاكْتَفُوا بِالصَّلاةِ أَمَامَهُ ، وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ الله تَقَرُّباً بِبَرَكَةِ المَأْوَىٰ الشَّرِيفِ .

هُنَا ، قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ مُدْلِياً بِمَا يَعْلَمُهُ :

ـ أَخْبَرَنِي بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الحُجَّاجِ الأَكْيَاسِ أَنَّ سَبَبَ صُعُوبَةِ الدُّخُولِ إِلَىٰ الغَارِ أَنَّ بِدَاخِلِهِ مِمَّا يَلِي الفُوَّهَةَ حَجَراً كَبِيراً مُعْتَرِضاً ، فَمَنْ دَخَلَ مِنْ ذَلِكَ الشِّقِّ وَهُوَ مُنْبَطِحٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ صَدَمَهُ الحَجَرُ المُعْتَرِضُ فَلاَ يُمْكِنُهُ الدُّخُولُ . أَمَّا مَنْ يُحَاوِلُ الدُّخُولَ إِلَىٰ الغَارِ مُسْتَلْقِياً عَلَىٰ ظَهْرِهِ فَإِنَّهُ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ الحَجَرِ المُعْتَرِضِ رَفَعَ رَأْسَهُ وَاسْتَوَىٰ قَاعِداً ، وَكَانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِداً إِلَىٰ الحَجَرِ المُعْتَرِضِ وَأَوْسَطُهُ فِي الشِّقِّ ، وَرِجْلاَهُ مِنْ خَارِجِ الغَارِ مَايَزَالُ يَسْحَبُهُمَا رُوَيْداً رُوَيْداً حَتَّىٰ يَنْتَصِبَ قَائِماً بِدَاخِلِ الغَارِ . وَتِلْكَ المُحَاوَلَةُ فِي مُجْمَلِهَا مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ لاَيَبْذُلُهَا مِنْ نَفْسِهِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حِكَايَةُ فَمِ الغَارِ المُبَارَكِ وَانْقِبَاضِ فَكَّيْهِ بِالصَّخْرِ عَلَىٰ دَاخِلِهِ ، حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ حَقّاً ، وَلَكِنَّ ابْنَ بَطُّوطَةَ كَانَ قَدْ وَعَدَنَا بِمَا هُوَ أَعْجَبُ ، فَمَا رَأْيُكَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ !

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَقَدْ وَجَدَ حَافِزاً لِلْكَلامِ :

ـ أَنَا عِنْدَ وَعْدِي يَامَوْلَايَ السُّلْطَانِ ، وَأَقْصَىٰ مُرَادِي أَنْ أُحَدِّثَكَ بِمَاهُوَ طَرِيفٌ وَشَائِقٌ وَعَجِيبٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

أُحَدِّثُكَ يَا مَوْلَايَ بِمَاجَرَىٰ لاثْنَيْنِ مِنْ أَصْحَابِي قَصَدَا غَارَ ثَوْرٍ ، فِي حِينِ مُجَاوَرَتِهِمَا لِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ . هُمَا الفَقِيهُ عَبْدُ اللهِ التُّوزَرِيُّ ، وَأَخُوهُ فِي الدِّينِ وَالإِيمَانِ أَحْمَدُ الأَنْدَلُسِيُّ وَدَعْنِي يَا مَوْلَايَ أُكَنِّي الأَوَّلَ بِأَبِي مُحَمَّدٍ وَالثَّانِي بِأَبِي العَبَّاسِ . خَرَجَ الاثْنَانِ

مِنْ مَكَّةَ مُنْفَرِدَيْنِ وَلَمْ يَسْتَصْحِبَا دَلِيلاً عَارِفاً بِطَرِيقِ الغَارِ ، وَتَشَابَهَتْ عَلَيْهِمَا الشِّعَابُ الجَبَلِيَّةُ وَالطُّرُقُ فتاهَا وَضَلاَّ سَبِيلَهُمَا ، وَسَلَكَا طَرِيقاً مُنْقَطِعةً مُوحِشةً ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَانِ اشْتِدَادِ الحَرِّ وَحَمَارَّةِ القَيْظِ .

وَمَازَالا يَتَقَدَّمَانِ فِي الطَّرِيقِ التَّائِهِ ، وَكَانَ قَدْ نَفِدَ مَاعِنْدَهُمَا مِنَ المَاءِ وَهُمَا لَمْ يَصِلا إِلَىٰ الغَارِ ، فَلَمَّا أَدْرَكَا بَعْدَ لأيٍ بُعْدَهُمَا عَنْ الطَّرِيقِ المُفْضِي إِلَىٰ مَقْصِدِهِمَا أَخَذَا فِي الرُّجُوعِ إِلَىٰ مَكَّةَ . وَاجْتَهَدَا فِي أَنْ يَعْجَلا بِالوُصُولِ إِلَىٰ حَيْثُ خَرَجَا . فَوَجَدَا طَرِيقاً آخَرَ فَاتَّبَعَاهُ فَإِذَا بِهِ يُفْضِي إِلَىٰ جَبَلٍ آخَرَ لَيْسَ بِجَبَلِ ثَوْرٍ ، وَلَيْسَ لَهُمَا بِهِ سَابِقُ مَطَافٍ . وَاشْتَدَّ بِهِمَاالحَرُّ وَأَجْهَدَهُمَا المَسِيرُ مَعَ العَطَشِ وَالمُكَابَدَةِ ، وَرَأَيَا الهَلاكَ نُصْبَ العُيُونِ ، يُلَوِّحُ نَذِيرُهُ بِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ . .

عَجِزَ أَبُو مُحَمَّدٍ الفَقِيهُ التَّوزَرِيُّ عَنْ المَشْيِ إِطْلاقاً فَارْتَمَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ لاهِثاً . أَمَّا أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ الأَنْدَلُسِيُّ فَقَدْ كَانَ فِيهِ مِنَ القُوَّةِ بَعْضُ بَقِيَّةٍ فَاسْتَمَرَّ بِالمَسِيرِ بَيْنَ الجِبَالِ وَشِعَابِهَا حَتَّىٰ قَادَتْهُ خُطَاهُ إِلَىٰ أَجْيَادَ مِنْ مَدَاخِلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِي بِالقُرْبِ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَصَدَنِي وَأَعْلَمَنِي بِهَذِهِ الحَادِثَةِ ، وَبِأَنَّهُ خَلَّفَ صَاحِبَهُ أَبَا

مُحَمَّدٍ التَّوزَرِيَّ عُرْضَةً لِلهَلاكِ فِي مَكَانٍ مَجْهُولٍ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ وَشِعَابِهَا . كَانَ وُصُولُ أَبِي العَبَّاسِ إِلَىٰ مَنْزِلِي آخِرَ النَّهَارِ ، وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْعَىٰ حَثِيثاً لإِنْقَاذِ حَيَاةِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ صَاحِبِي وَصَاحِبِه . .

قَال السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ وَقَدْ بَدَا مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ :

ـ وَهَلْ وَجَدْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ وَسِيلةً ؟ حَدِّثْنِي بِمَا جَرَىٰ لِلرَّجُلِ المِسْكِينِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كُنْتُ أَعْلَمُ يَا مَوْلايَ أَنَّ لأَبِي مُحَمَّدٍ التَّوْزَرِيِّ طَرِيحِ الفَلاةِ الضَّائِعِ ابْنَ عَمٍّ اسْمُهُ حَسَنٌ . وَهُوَ مِنْ سُكَّانِ وَادِي نَخْلَةَ ، وَاتَّفَقَ وُجُودُهُ بِمَكَّةَ ، وَكُنْتُ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَكَانِ وُجُودِهِ فَقَصَدْتُهُ بِلا إِبْطَاءٍ وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا جَرَىٰ لابْنِ عَمِّهِ . وَاسْتَهْدَيْنَا غَيْرَنَا فَدَلُّونَا عَلَىٰ الاسْتَنْجَادِ بِالإِمَامِ المَالِكِيِّ خَلِيلٍ فَنَفَعَنَا الله بِهِ وَأَعْلَمْنَاهُ بِالخَبَرِ ، فَبَعَثَ مَعَنَا جَمَاعةً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، كَانُوا عَارِفِينَ بِتِلْكَ الجِبَالِ وَالشِّعَابِ المُتَشَابِهَةِ المُضِلَّةِ لِغَيْرِ خَبِيرٍ . .

وَسِرْنَا فِي طَلَبِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ وَنَحْنُ بَيْنَ يَأْسٍ وَرَجَاءٍ . .

سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ بِلَهْفَةٍ وَاهْتِمَامٍ :

ـ وَبَعْدُ ؟ مَاذَا جَرَىٰ ؟ . .

تَابَعَ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ قَائِلاً :

ـ لَقَدْ نَجَّاهُ الله . . وَلَكِنْ لَيْسَ علَىٰ أَيْدِينَا . .

قَالَ السُّلطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِمَزِيدٍ مِنَ اللَّهْفَةِ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عُدْتُ أَنَا وَابْنُ عَمٍّ أَبِي مُحَمَّدٍ التَّوزَرِيّ حَسَنٌ ، وَالأَدِلاءُ المَكِّيُّونَ بِلا طَائِلٍ ، وَقَدْ نَفَضْنَا الأَكُفَّ مِنْ رَجَاءِ العُثُورِ عَلَىٰ الشَّيْخِ الفَقِيهِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ ، وَذَهَبَ بِنَا الظَّنُّ مَذَاهِبَ شَتَّىٰ ، وَرَجَّحْنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ افْتَرَسَهُ وَحْشٌ مِنْ وُحُوشِ الفَلاةِ ، وَمَضَىٰ بِجُثَّتِهِ بَعِيداً جِدّاً . وَلَكِنْ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ ، وَقَدْ نَفِدَ صَبْرُهُ شَوْقاً إِلَىٰ سَمَاعِ حِكَايَةِ الفَقِيهِ الضَّائِعِ فِي طَرِيقِ الغَارِ ، كَيفَ نَجَا بِأُعْجُوبَةٍ ، قَالَ :

ـ مَا تِلْكَ لَكِنْ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ؟ مَا تِلْكَ لَكِنْ ؟ أَخْبِرْنِي عَنْ مَصِيرِ الفَقِيهِ

الضَّائِعِ ، لَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهُ نَجَا ، فَقُلْ لِي كَيْفَ كَانَتْ نَجَاتُهُ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الفَقِيهُ الضَّائِعُ الذِي كَتَبَ لَهُ خَالِقُهُ حَيَاةً جَدِيدَةً ، قَالَ :

لَمَّا فَارَقَنِي رَفِيقِي أَبُو العَبَّاسِ ، وَخَلَّفَنِي فِي البَرِّيَّةِ وَحِيداً مُنْفَرِداً طَفِقْتُ أَزْحَفُ بِجَسَدِي حَتَّىٰ لَجَأْتُ إِلَىٰ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ أَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا . . وَأَقَمْتُ عَلَىٰ حَالَةٍ مِنَ الجُهْدِ وَالعَطَشِ وَالغُرْبَانُ تَطُوفُ وَتُحَوِّمُ مِنْ حَوْلِي وَفَوْقَ رَأْسِي ، وَكَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ مَوْتِيَ القَرِيبَ الذِي لاشَكَّ فيهِ . فَلَمَّا انْصَرَمَ النَّهَارُ وَحَلَّ اللَيْلُ وَجَدْتُ فِي نَفْسِي بَعْضَ القُوَّةِ وَالمُقَاوَمَةِ ، وَأَنْعَشَنِي بَرْدُ اللَيْلِ ، وَمَا زِلْتُ إِلَىٰ وَقْتِ البُكُورِ وَطُلُوعِ الصَّبَاحِ فَقُمْتُ عَلَىٰ قَدَمَيَّ ، وَنَزَلْتُ إِلَىٰ بَطْنِ وَادٍ حَجَبتِ الجِبَالُ عَنْهُ الشَّمْسَ ، مَشَيْتُ مَشْياً كَلِيلاً مُتَعَثِّراً إِلَىٰ أَنْ بَدَتْ لِي مِنْ بَعِيدٍ دَابَّةٌ سَارِحَةٌ ، فَتَوَجَّهْتُ إِلَيْها بِمَا تَبَقَّىٰ لَدَيَّ مِنْ عَزْمٍ ، فَوَجَدْتُ بِقُرْبِهَا خَيْمَةً لِلعَرَبِ ، وَخَانَتْنِي قِوَايَ عِنْدَهَا ، فَوَقَعْتُ عَلَىٰ الأَرْضِ لا أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ . . رَأَتْنِي المَرْأَةُ

صَاحِبَةُ الخَيْمَةِ ، وَكَانَ زَوْجُهَا قَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ وِرْدِ المَاءِ عَلَىٰ مَسَافَةٍ ، فَأَسْرَعَتْ إِلَىٰ نَجْدَتِي وَسَقَتْنِي مَا كَانَ عِنْدَهَا مِنْ مَاءٍ فَلَمْ يَرْوِنِي . وَجَاءَ زَوْجُهَا بِقُرْبَتِهِ فَسَقَانِي مَافِي القُرْبَةِ مِنْ مَاءٍ فَلَمْ أَرْتَوِ . . وَعَرَفَ مِنِّي الرَّجُلُ أَنَّنِي مِنَ المُجَاوِرِينَ لِمَكَّةَ المُكَرَّمَةَ فَاحْتَمَلَنِي عَلَىٰ ظَهْرِ حِمَارٍ وَقَدِمَ بِي إِلَيْهَا ، وَكَانَ وُصُولُنَا وَقْتَ صَلاةِ العَصْرِ مِنَ اليَوْمِ التَّالِي لِخُرُوجِنَا . . وَقَدْ دَهِشَ كُلُّ مَنْ رَآنِي مِمَّن يَعْرِفُنِي وَحَسِبُونِي قَدْ قُمْتُ مِنْ قَبْرِي بَعْدَ مَوْتٍ . وَلاشَكَّ أَنَّ نَجَاتِي مِنَ المَوْتِ كَانَتْ بِقَدَرٍ مَكْتُوبٍ ، وَالفَضْلُ كُلُّهُ فَضْلُ الله ، لَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ . .

فَرَغَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ رِوَايَةِ حِكَايَتِهِ العَجِيبَةِ ، فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الفَاسِيِّ فَسَادَتْ فِي قَاعَةِ العَرْشِ فَتْرَةٌ مِنَ الصَّمْتِ وَالسُّكُونِ ، مَا لَبِثَ بَعْدَهَاأَنْ تَفَجَّرَ صَوْتُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بِالإِعْجَابِ وَالثَّنَاءِ :

ـ لا فُضَّ فُوكَ . . لافُضَّ فُوكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله ، يَابْنَ بُطّوطَةَ . . إِنَّ حِكَايَةَ الطَّرِيقِ إِلَىٰ الغَارِ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ ، وَفِيهَا شَاهِدٌ وَدَلِيلٌ عَلَىٰ مَا

يُكَابِدُهُ المُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الله ، وَلاشَكَّ أَنَّ قُدْوَتَنَا المُثْلَىٰ فِي ذَلِكَ هُوَ رَسُولُ الله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالله ﷺ ، وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ اللذَانِ اتَّخَذَا طَرِيقَهُمَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ لَيْسَ إِلَىٰ الغَارِ الذِي هُوَ بِجِوَارِ مَكَّةَ ، بَلْ إِلَىٰ يَثْرِبَ التِي هِيَ عَلَىٰ مَسَافَاتٍ وَأَبْعَادٍ ، وَالتِي عُرِفَتْ فِيمَا بَعْدُ بِمَدِينَةِ الرَّسُولِ ، المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ بِحُلُولِهِ فِيهَا ﷺ .

وَانْفَضَّ الجَمْعُ رَاضِياً عَمَّادَارَ مِنْ خَبَرِ التَّائِهِيْنَ فِي طَرِيقِ الغَارِ وَنَجَاتِهِمَا بِأُعْجُوبَةٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

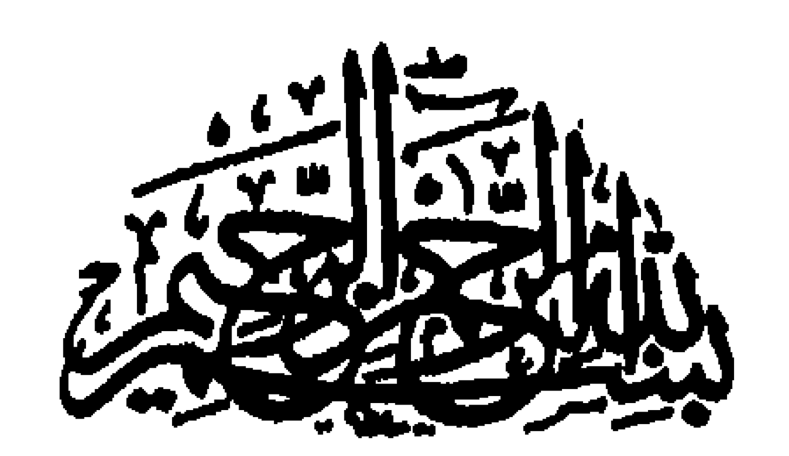
عجائب رحلة ابن بطوطة

رقصةُ الفيلِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

<u>عنوان الدار :</u>

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

رَقْصَةُ الفِيلِ

التَأَمَ مَجْلِسُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ بِمَدِينَةِ فَاسَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَكَانَ فِيهِ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مَلِكُ فَاسَ ، وَنَدِيمُهُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِّينِ ، وَكَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ . وَبَدَأَ السُّلْطَانُ الحِوَارَ بِسُؤَالٍ تَوَجَّهَ بِهِ إِلَىٰ نَدِيمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

ـ هَلْ وَقَعَ لَكَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ أَنْ التَقَيْتَ بِرَجُلٍ صَالِحٍ جَمَعَ خَيْرَيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَإِنْ شِئْتَهُ كَانَ مِنَ المُجَاوِرِينَ وَالمُقِيمِينَ فِي الرُّبُطِ حَوْلَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ أَمِيراً مِنْ أُمَرَاءِ السِّيَادَةِ عَلَىٰ رِقَابِ النَّاسِ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ فِي سِيرَةِ الشَّيْخِ سَعِيدِ الكِلالِيِّ نَمُوذَجاً عَجِيباً لاجْتِمَاعِ الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ كَالذِي ذَكَرْتَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ،ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ اعْلَمْ يَا مَوْلايَ أَنَّ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَهْلِ العِبَادَةِ وَالتَّنَسُّكِ كَانَتْ إِقَامَتُهُ مُجَاوِراً بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ فِي رِبَاطِ كِلالَةَ ، وَكَانَ شَيْخاً ذَا هَيْبَةٍ وَوَقَارٍ وَجَلالٍ ، يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ أَمِيرُ مَكَّةَ أَبُو نُمَيٍّ وَيُقَبِّلُ يَدَهُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ طَالِباً بَرَكَاتِهِ وَدَعَوَاتِهِ الصَّالِحَةَ . وَكَانَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الكِلالِيُّ مَيَّالاً إِلَىٰ الإِكْثَارِ مِنَ التَّصَدُّقِ وَإِعْطَاءِ المَسَاكِينَ وَالمُحْتَاجِينَ بِرُغْمِ زُهْدِهِ فِي جَمْعِ المَالِ لِنَفْسِهِ . فَلَمَّا قَلَّ المَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَافْتَقَرَ قَصَدَ مَلِكَ الهِنْدِ وَاسْمُهُ مُحَمَّدْ شَاهُ فَأَعْطَاهُ مَالاً كَثِيراً عَادَ بِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حَيْثُ كَانَ يُقِيمُ وَيُجَاوِرُ . وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأُمَرَاءِ لِعِلْمِهِ بِخَبَرِهِ وَطَالَبَهُ بِجَمِيعِ مَا حَصَلَ لَدَيْهِ مِنَ المَالِ ، فَلَمَّا امْتَنَعَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ عَنْ الاسْتِجَابَةِ لِمَطْلَبِ الأَمِيرِ الطَمَّاعِ سَاقَ إِلَيْهِ الأَمِيرُ رِجَالَهُ وَأَعْوَانَهُ فَحَبَسَهُ وَعَذَّبَهُ وَابْتَزَّ مِنْهُ المَالَ كُلَّهُ . فَعَادَ

الشَّيْخُ سَعِيدُ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ فَأَكْرَمَ مَلِكُهَا وِفَادَتَهُ كَالمَرَّةِ الأُولَىٰ وَأَكْثَرَ ، وَشَارَكَهُ فِي الإِكْرَامِ الأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ مِنْ عَرَبِ الشَّامِ ، وَمُصَاهِرِي مَلِكِ الهِنْدِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَرَمِ مَلِكِ الهِنْدِ وَإِكْرَامِهِ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ أَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ الخُلَعَ النَّفِيسَةِ مِنَ الحَرِيرِ وَالجَوَاهِرِ ، وَبَعَثَ مَعَهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ لِيَشْتَرِيَ بِهَا الخَيْلَ العِتَاقَ وَالسِّلَعَ التِي يَخْتَارُهَا ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِحَارِسٍ شَدِيدٍ يُحَامِي عَنْهُ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ قُطَّاعُ الطُّرُقِ وَاللصُوصُ .

وَصَلَ سَعِيدٌ الكُلالِيُّ بِأَحْمَالِهِ الذَّاخِرَةِ إِلَىٰ جَزِيرَةِ سَقْطَرَةَ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ لُصُوصِ الهِنْدِ وَكَانُوا كَثْرَةً ، فَرَمَىٰ حَارِسُ القَافِلَةِ مِنْهُم عَدَدًا ، وَلَكِنَّهُم تَمَكَّنُوا مِنْهُ وَقَتَلُوهُ . وَذَهَبَ اللصُوصُ بِالمَالِ وَتَرَكُوا الشَّيْخَ سَعِيدا يَذْهَبُ بِمَرْكَبِهِ حَيْثُ يشَاءُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ إِنَّهُ شَيْخٌ مُغَامِرٌ تَعِيسُ الحَظِّ خَسِرَ مَالَهُ مَرَّتَيْنِ ، فَكَيْفَ انْتَهَىٰ بِهِ الأَمْرُ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الكُلالِيُّ شُجَاعاً ثَابِتاً قَوِيَّ الإِرَادَةِ ، لَمْ يَسْتَسْلِم لِمَا أَصَابَهُ عَلَىٰ أَيْدِي لُصُوصِ البَحْرِ مِنَ الهُنُودِ . وَفَكَّرَ أَنْ تَكُونَ لَهُ يَدٌ فِي إِحْقَاقِ الحَقِّ وَإِقْرَارِ النِّظَامِ فِي تِلْكَ البِلادِ النَّائِيَةِ . وَاسْتَغَلَّ بِذَكَاءٍ نَادِرٍ فُرْصَةَ مَيْلِ المَلِكِ الهِنْدِيِّ إِلَىٰ مُهَادَنَةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ التِي آلَتْ إِلَىٰ مِصْرَ ، حُبّاً وَوَلاءً فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ أَنْهَىٰ رَغْبَتَهُ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ أَبِي العَبَّاسِ مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ للتَّوَلِّي عَلَىٰ إِمَارَةٍ فِي الأَرَاضِي الهِنْدِيَّةِ بِمُوجَبِ كِتَابٍ يُقَدِّسُه مَلِكُ الهِنْدِ وَيَحْتَرِمُهُ . وَهَكَذَا كَانَ ، فَتَزَوَّدَ بِكِتَابٍ مِنَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ يَأْمُرُ بِتَوَلِّي سَعِيدِ الكُلالِيّ عَلَىٰ إِقْلِيمٍ يَخْتَارُهُ فِي غَرْبِيِّ الهِنْدِ ، وَيَأْمُرُ مَلِكَهَا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

رَكِبَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ البَحْرَ مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ اليَمَنِ إِلَىٰ الهِنْدِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ كُنْبَايتَ وَهِيَ عَلَىٰ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً مِنْ دَهْلِي حَيْثُ مَقَرُّ عَرْشِ مَلِكِ الهِنْدِ ، قَامَ صَاحِبُ الأَخْبَارِ بِإِعْلامِ المَلِكِ بِقُدُومِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ وَبِأَنَّهُ يَحْمِلُ أَمْراً وَكِتَاباً مِنَ الخَلِيفَةِ بِتَوْلِيَتِهِ . فَوَرَدَ الأَمْرُ بِبَعْثِهِ إِلَىٰ الحَضْرَةِ المَلَكِيَّةِ مُعَزَّزاً مُكَرَّماً . .

هُنَا ، عَلَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ عَلَىٰ مَايَسْمَعُ وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ :

ـ مَاشَاءَ اللهُ . . مَاشَاءَ اللهُ . . شَيْخُنَا يَفْتَحُ بِلادَ الهِنْدِ بِأَمْرِ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ ! . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ جَلَّ وَعَلا : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لَقَدْ أَصَبْتَ القَوْلَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ، وَبَقِيَ أَنْ تَقُصَّ عَلَيْنَا مَا تَمَّ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخِ الصَّالِحِ الأَدِيبِ صَاحِبِكَ سَعِيدِ الكُلالِيِّ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ رَقَصَ لَهُ الزَّمَانُ رَقْصَةَ الفِيلِ ، وَمَاأَدْرَاكَ مَا رَقْصَةُ الفِيلِ ، يَا مَوْلايَ . . ؟

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَعَجِّباً مُتَلَهِّفاً إِلَىٰ سَمَاعِ القِصَّةِ :

ـ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ . . وَمَاذَا تَعْنِي بِرَقْصَةِ الفِيلِ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ إِنَّ الشَّيْخَ سَعِيداً الكُلالِيَّ حَيْنَ قَرُبَ مِن الحَضْرَةِ المَلَكِيَّةِ ، بَعَثَ مَلِكُ الهِنْدِ الأُمَرَاءَ وَالقُضَاةَ وَالفُقَهَاءَ لِتَلَقِّيهِ ، ثُمَّ خَرَجَ هُوَ نَفْسُهُ لاسْتِقْبَالِهِ فَتَلَقَّاهُ وَعَانَقَهُ ، وَلَمَّا دَفَعَ لَهُ الأَمْرَ المَكْتُوبَ بِتَنْصِيبِهِ قَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ . وَلَمَّا أَهْدَاهُ الشَّيْخُ سَعِيدٌ المُنَصَّبُ أَمِيراً صُنْدُوقاً فِيهِ خُلَعٌ وَهَدَايَا صَادِرَةٌ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ العَبَّاسِي إِلَىٰ مَلِكِ الهِنْدِ ، احْتَمَلَ مَلِكُ الهِنْدِ الصُّنْدُوقَ عَلَىٰ رَأْسِهِ وَمَشَىٰ بِهِ خُطُوَاتٍ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ فَتَحَهُ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ وَارْتَدَىٰ مِنْهُ ثَوْباً جَاءَهُ خِلْعَةً مِنَ الخَلِيفَةِ ، وَأَصْدَرَ أَمْراً إِلَىٰ حَاشِيَتِهِ وَرِجَالِهِ أَنْ يَضُمُّوا مَوْكِبَ الشَّيْخِ سَعِيدٍ إِلَىٰ مَوْكِبِهِ وَأَنْ يُرْكِبُوهُ عَلَىٰ الفِيلِ ، وَيُدْخَلَ بِهِ المَدِينَةَ كَذَلِكَ ، وَهُوَ مَحْفُوفٌ بِالجُنْدِ وَالأَعْوَانِ وَحَوْلَهُ وَزِيرَانِ مِنَ العَرَبِ المُسْلِمِينَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

كَانَتْ المدِينَةُ قَدْ زُيِّنَتْ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَنُصِبَتْ فِيهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ قُبَّةً مِنَ الخَشَبِ ، وَكُلُّ قُبَّةٍ مِنْهَا أَرْبَعُ طَبَقَاتٍ ، فِي كُلِّ طَبَقَةٍ طَائِفَةٌ مِنَ المُغَنِّينَ رِجالاً وَنِسَاءً ، وَالرَّاقِصَاتُ وَكُلُّهُم مَمَالِيكُ السُّلْطَانِ ، وَالقُبَّةُ مُزَيَّنَةٌ بِثِيَابِ الحَرِيرِ المُذَهَّبِ أَعْلاهَا وَأَسْفَلَهَا وَدَاخِلَهَا وَخَارِجَهَا ، وَفِي وَسَطِهَا ثَلاثَةُ أَحْوَاضٍ مِنْ جُلُودِ الجَوامِيسِ مَمْلُوءَةٍ مَاءً قَدْ حُلَّ فِيهِ الجُلاّبُ ، يَشْرَبُهُ كُلُّ وَارِدٍ وَصَادِرٍ ، وَلا يُمْنَعُ مِنْهُ أَحَدٌ ، وَكُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ يُعْطَىٰ بِعْدَ ذَلِكَ وَرَقَةً مِنْ تَوَابِلِ الهِنْدِ وَبَهَارَاتِهَا ، إِذَا مَضَغَهَا المَاضِغُ طَابَتْ بِهَا نَكْهَتُهُ وَرَائِحَةُ فَمِهِ وَمَايَلْبَثُ أَنْ تَحْمَرَّ وَجْنَتَاهُ ، وَتَقْوَىٰ لِثَاتُهُ ، بِذَا تُذَادُ عَنْهُ الصَّفْرَاءُ ، وَيَعَافُهُ الغَثَيَانُ وَتَهْضُمُ مَعِدَتُهُ مَا يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ ، فَإِذَا بِهِ يِشْعُرُ بِالهَنَاءَةِ وَطِيبِ العَيْشِ مِنْ دُونِ خَمْرَةٍ وَلا تَأْثِيمٍ . . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أُحِبُّ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا جَرَىٰ لِلشَّيْخِ المُؤَمَّرِ سَعِيدٍ الكُلالِيِّ ، وَأَنْ تَصِلَ بِي إِلَىٰ نِهَايَةِ المَطَافِ بَعْدَ أَنْ اعْتَلَىٰ ظَهْرَ الفِيلِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَمَّا رَكِبَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ عَلَىٰ الفِيلِ ، فُرِشَتْ لَهُ ثِيَابُ الحَرِيرِ بَيْنَ يَدَيِ الفِيلِ يَطَأُ عَلَيْهَا الفِيلُ مِنْ بَابِ المَدِينَةِ إِلَىٰ دَارِ السُّلْطَانِ ، وَفِي نِهَايَةِ اسْتِعْرَاضِ المَوْكِبِ وَرَقْصَةِ الفِيلِ بِصَاحِبِ المَغْنَمِ وَالحَظِّ السَّعِيدِ أُنْزِلَ الأَمِيرُ المُنَصَّبُ ضَيفاً بِدَارٍ قَرِيبَةٍ مِنْ دَارِ المَلِكِ ، وَبَعَثَ لَهُ المَلِكُ بِأَمْوَالٍ طَائِلَةٍ بَعْضُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، وَبَعْضُهَا الآخَرُ مِنَ الأَلْبِسَةِ الحَرِيرِيَّةِ وَالخِلَعِ السَّنِيَّةِ وَالجَواهِرِالثَّمِينَةِ . أَمَّا مَا كَانَ مِنَ الأَثْوَابِ المُعَلَّقَةِ وَالمَفْرُوشَةِ بِالقِبَابِ ، وَالمَوْضُوعَةِ بَيْنَ يَدَيِ الفِيلِ فَلا تَعُودُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ وَلا إِلَىٰ الأَمِيرِ المُنَصَّبِ ، بَلْ يَأْخُذُهَا أَهْلُ الطَّرَبِ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ الذِينَ يَصْنَعُونَ القِبَابَ ، وَكَذَلِكَ يُعْطَىٰ خُدَّامُ الأَحْوَاضِ المَبْذُولَةِ لِلشَّارِبِينَ ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الخَدَمِ وَالأَعْوَانِ وَالحَشَمِ . . لَقَدْ كُنْتَ سَأَلْتَنِي يَا مَوْلايَ عَنْ مَآلِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ المُنَصَّبِ أَمِيراً عَلَىٰ إِقْطَاعٍ مِنَ الهِنْدِ ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ السُّلْطَانُ الهِنْدِيُّ ضَيْفاً بِجِوَارِهِ شَهْراً بِأَرْبَعَةِ أَسَابِيعَ وَفِي كُلِّ جُمْعَةٍ يُقْرَأُ كِتَابٌ عَلَىٰ مِنْبَرِ الخَطَابَةِ هُوَ

كِتَابُ الخَلِيفَةِ بِتَنْصِيبِ أَمِيرِهِ عَلَىٰ البِلادِ ، زِيَادَةً بِالتَّشْرِيفِ وَالإِجْلالِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَصُدُوعاً بِالأَمْرِ المُطَاعِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ شَهْراً مِنَ الزَّمَانِ وَشَهِدَ لَهُ الشَّاهِدُونَ أَرْبَعَ جُمَعٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، أَرْسَلَهُ مَلِكُ الهِنْدِ لِتَوَلِّي الإِمَارَةِ فِي (كُنْبَايت) . . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الأَمْرُ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ فِي مَنْصِبِهِ ، أَحَبَّ مَلِكُ الهِنْدِ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ العَبَاسِيِّ بِمَقَامِهِ فِي مِصْرَ فِي ذَلِكَ الأَوَانِ ، وَأَنْ يُنْهِيَ إِلَيْهِ وَلاءَهُ وَطَاعَتَهُ وَتَقَرُّبَهُ مِنَ الإِسْلامِ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولاً عَنْ طَرِيقِ البَحْرِ يَطْلُبُ إِلَىٰ مَوْلاهُ بِالخِلافَةِ المُبَارَكَةِ ، أَنْ يُقِرَّهُ عَلَىٰ سُلْطَانِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ ، وَكَادَتْ الأَرْضُ تَمِيدُ تَحْتَ قَدَمِي الشَّيْخِ سَعِيدٍ لَولا أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ وَبَيَّضَ وَجْهَهُ أَمَامَ السُّلْطَانِ الهِنْدِيِّ وَالخَلِيفَةِ فِي مِصْرَ ، وَسَلَّمَ اللهُ أَمْرَهُ بِفَضْلِ تَقْوَاهُ وَصَلاحِهِ ، وَلاشَكَّ أَنَّ اللهَ أَدْرَىٰ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الكَلامِ ، طَابَتْ نَفْسُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، إِلاَّ أَنَّهُ شُغِلَ بِمَا قَالَهُ مُحَدِّثُهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ أَنَّ الأَرْضَ كَادَتْ أَنْ تَمِيدَ تَحْتَ قَدَمَي الشَّيْخِ سَعِيدٍ ، فَسَأَلَهُ قَائِلاً :

ـ كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ الأُمُورُ لِلأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ الكُلالِيِّ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ الأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ تَحْتِهِ ؟ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْ تَجَارُبِ الآخَرِينَ ، وَالاتِّعَاظَ بِمَا وَقَعَ لَهُمْ فَلَقَدْ قِيلَ : (السَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ) .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جَنَّبَكَ اللهُ الشَّقَاءَ يَا مَوْلايَ ، وَجَعَلَ اتِّعَاظَكَ بِغَيْرِكَ لا بِنَفْسِكَ . . وَمِثْلُكَ مَنْ لا يَتَعَجَّبُ مِمَّا جَرَىٰ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ لأَنَّكَ مِثْلُهُ مَحْسُودٌ فِي جَاهِكَ وَسُلْطَانِكَ ، وَلَمْ يُخْطِئْ مَنْ قَالَ : كُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَهَلْ تَعَرَّضَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ أَمِيرُ الهِنْدِ لِلحَسَدِ اللئِيمِ ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَعْدَ أَنْ رَقَصَتْ الدُّنْيَا لِلأَمِيرِ سَعِيدٍ رَقْصَةَ الفِيلِ ، رَقْصَةً ذَهَبَتْ

مَثَلاً ، وَشَرَّفَ الله عَبْدَهُ بِمِقْدَارِ الإمَارَةِ عَنْ اسْتِحْقَاقٍ وَجَدَارَةٍ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَتْ أَفَاعِي الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالنَّمِيمَةِ تَسْعَىٰ سَعْيَهَا ، وَتَفُحُّ فَحِيحَهَا حَتَّىٰ كَشَفَ الله أَمْرَهَا وَرَدَّ كَيْدَهَا فِي نَحْرِهَا . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِتَلَهُّفٍ وَتَعَجُّبٍ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا جَرَىٰ يَا مَوْلايَ ، وَهَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ الأَمِيرُ الشَّيْخُ سَعِيدٌ لَدَىٰ زِيَارَتِي لإمَارَتِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . . مَا جَرَىٰ يَا مَوْلايَ أَنَّ شَيْخاً مِنْ شُيُوخِ مِصْرَ اسْمُهُ رَجَبٌ كَانَ يُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ وَالوِدَّ لِلشَّيْخِ سَعِيدِ الكُلالِيِّ تَنَاهَىٰ إِلَىٰ سَمْعِهِ مَا حَصَلَ لِلشَّيْخِ سَعِيدٍ مِنَ العِزِّ وَالنِّعْمَةِ ، وَبُلُوغِهِ مَنْصِبَ الإمَارَةِ بِتَوْصِيَةٍ مِنَ الخِلافَةِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلاّ انْطَلَقَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَنْدَادِهِ مِنْ مَرْفَأِ الأُبُلَّةِ عَلَىٰ مَرْكَبٍ مُجَهَّزٍ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ ، وَحَرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَلْقَىٰ السُّلْطَانَ الهِنْدِيَّ فِي دِهْلِي قَبْلَ أَنْ يَلْقَىٰ صَدِيقَهُ الأَمِيرَ سَعِيداً الكُلالِيَّ فِي إِمَارَتِهِ ، وَقَدْ مَثُلَ بَيْنَ يَدَي السُّلْطَانِ

بِكِتَابِ عَزْلٍ مُزَوَّر ، وَزَعَمَ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَنَّ الشَّيْخَ سَعِيداً هُوَ الذِي جَاءَ السُّلْطَانَ بِالتَّزْوِيرِ وَأَنَّهُ قَدْ اشْتَرَىٰ بِأَمْوَالِهِ جَمِيعَ الخِلَعِ التِي أَهْدَاهَا لِلسُّلْطَانِ بِاسْمِ الخَلِيفَةِ لِيَحْصُلَ مِنْهُ عَلَىٰ الوِلايَةِ ، وَهَكَذَا كَانَ . . وَقَدْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يَكْشِفَ بُطْلانَ هَذَا الزَّعْمِ وَهَذِهِ الوِشَايَةِ لِفَوْرِهَا وَدُونَمَا إِمْهَالٍ وَلا إِهْمَالٍ ، وَتِلْكَ مِنْ كَرَامَاتِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ التِي أَكْرَمَهُ بِهَا الله . . فَلَقَدْ نَادَىٰ المُنَادِي فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ الهِنْدِيِّ بِوُصُولِ وَفْدٍ مِنَ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ فِي مِصْرَ وَمَعَهُ كِتَابٌ يُقِرُّ الأَمِيرَ سَعِيداً عَلَىٰ إِمَارَتِهِ وَيُوصِي بِهِ خَيْراً . .

اسْوَدَّ وَجْهُ الوَاشِي النَّمَّامِ لِتَوِّهِ وَحَاوَلَ أَنْ يَتَسَلَّلَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَان إِلاّ أَنَّ السُّلْطَانَ أَمَرَ بِالقَبْضِ عَلَيْهِ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ حِينِ الفَرَاغِ مِنْ اسْتِقْبَالِ وَفْدِ الخَلِيفَةِ ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ خَلا إِلَىٰ رَجَبٍ النَّمَّامِ الحَسُودِ وَزُمْرَتِهُ وَقَرَّ قَرَارُهُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ الأَمِيرِ سَعِيدٍ لِيُصْدِرَ فِيهِم حُكْمَهُ ، وَيَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ بِالشَّكْلِ الذِي يُرِيدُ . .

وَلَمَّا مَثُلَ الشَّيْخُ رَجَبٌ وَجَمَاعَتُهُ بَيْنَ يَدَي الأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ وَأَلَمَّ بِخُلاصَةِ تَآمُرِهِ عَلَيْهِ ، وَجَدَهُ مُطْرِقاً أَسَفاً وَحُزْناً وَنَدَماً ، مُبْدِياً اسْتِعْدَادَهُ

لِيَهْوِيَ إِلَىٰ الأَرْضِ مُقَبِّلاً أَقْدَامَ صَاحِبِهِ السَّابِقِ أَمِيرِ البِلادِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ وَقَدْ نَصَرَهُ الله عَلَىٰ عَدُوِّهِ إِلاّ نَهَضَ بِرَأْسِ رَجَبِ الذَّلِيلِ المُنْكَبِّ عَلَىٰ الأَقْدَامِ ، وَقَالَ لَهُ : (انْهَضْ فَلَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وَمَنْ مَعَكَ) . وَزَوَّدَهُ بِبَعْضِ المَالِ وَأَطْلَقَهُ آمِراً أَنْ يُصَارَ بِهِ إِلَىٰ أَقْرَبِ مِينَاءٍ يَعُودُ بِهِ مَرْكَبُهُ إِلَىٰ مِصْرَ أَوْ إِلَىٰ حَيْثُ يَخْتَارُ بَعِيداً عَنِ الهِنْدِ . .

تَوَسَّلَ رَجَبٌ الذَّلِيلُ إِلَىٰ الأَمِيرِ الشَّيْخِ سَعِيدٍ أَنْ يُبْقِيَهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ لِيَكُونَ لَهُ خَادِماً مُطِيعاً ، فَقَالَ لَهُ : (اعْلَمْ يَا رَجَبُ أَنَّ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ ، وَلَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ عِنْدَ مَقْدِرَتِي ، وَأَخْشَىٰ أَنْ أَلْقَاكَ بِجَانِبِي فَتَغْلِبُنِي نَفْسِي الأَمَّارَةُ فَأَقْتُلُكَ شَرَّ قِتْلَةٍ . . اذْهَبْ وَانْجُ بِنَفْسِكَ وَبِمَنْ أَطَاعُوكَ فِي الضَّلالِ وَالتَّآمُرِ . .) .

بَقِيَ الشَّيْخُ سَعِيدٌ الذِي رَقَصَ بِهِ الفِيلُ أَمِيراً مُتَوَّجاً بِالعِزِّ وَالجَاهِ ، وَزَادَهُ الله رِزْقاً ، وَعَمَّرَهُ إِلَىٰ أَنْ أُتِيحَ لِيَ لِقَاؤُهُ المَيْمُونُ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الإِمَارَةِ ، وَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِهِ العَجِيبِ الذِي نَقَلْتُهُ إِلَىٰ مَوْلايَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ . .

عَجِبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمَا سَمِعَ وَسُرَّ بِهِ غَايَةَ السُّرُورِ ، وَأَمَرَ لابْنِ بَطُّوطَةَ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

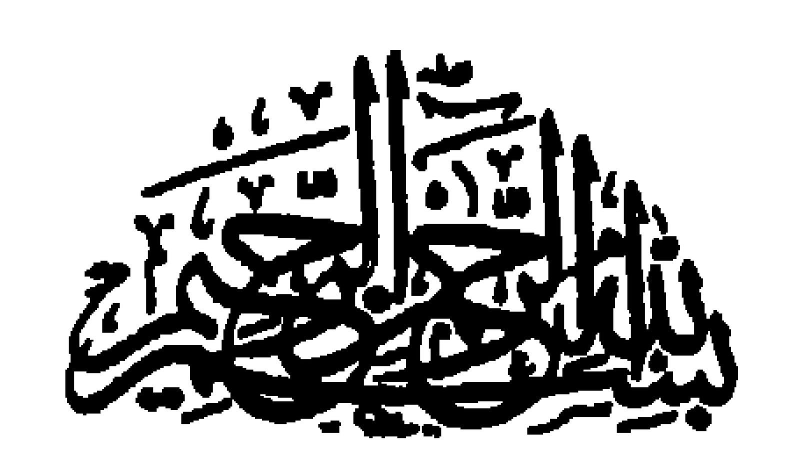
عجائب رحلة ابن بطوطة

حُوحو المجنونُ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس: 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

حُوحُو المَجْنُونُ

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ قَاصِداً مُحَدِّثَهُ وَنَدِيمَهُ الرَّحَّالَةُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ زِدْنِي مِنْ عَجَائِبِكَ وَأَنْتَ مُقِيمٌ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةَ شَرَّفَهَا اللهُ وَمَا لَقِيتَ مِنْ أَهْلِهَا وَنَاسِهَا .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَلا يَنْتَظِرُ مَوْلايَ كَاتِبَهُ ابْنَ جُزِّيٍّ لَعَلَّهُ يَخْتَارُ مِنْ حَدِيثِي مَا يَصْلُحُ لِلتَّدْوِينِ فِي سِجِلِّهِ الواسعِ ، أَوْ لَعَلَّ شَيْئاً مِمَّا أَقُولُهُ يَصْلُحُ لِلتَّدْوِينِ بِأَمْرِكَ المُطَاعِ ؟ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُوعِنَانٍ :

ـ اعْلَمْ يَابْنَ بَطُّوطَةَ أَنَّ كُلَّ مَا تَقُولُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْقَشَ بِرُؤُوسِ الإِبَرِ عَلَىٰ آمَاقِ البَصَرِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَيَكْفِي أَنَّكَ أَتْحَفْتَنِي بِعَجَائِبِ

مَا مَرَّ بِكَ مِنَ الأُمُورِ وَالوَقَائِعِ مُذْ كَانَ خُرُوجُكَ مِنْ طَنْجَةَ حَتَّىٰ تَمَّ لَكَ أَدَاءُ فَرِيضَةِ الحَجِّ ، وَهَذِهِ بُغْيَتُكَ الشَّرِيفَةُ ، فَضْلاً عَنْ زِيَارَتِكَ لِلمَدِينَةِ المُنَـوَّرَةِ مَثْوَىٰ رَسُـولِ الله ﷺ ، وَحُضْـنُ دَعْـوَتِـه الهَـادِيَـةِ وَحِصْنُهَـا الحَصِينُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ، الذِي أَعْطَانِي فَأَرْضَانِي وَرَزَقَنِي فَأَغْنَانِي ، وَمَنَّ عَلَيَّ فِي آخِرِ العُمُرِ بِلُقْيَاكَ ، تَرْغَبُ فِيَّ وَأَرْغَبُ فِيكَ ، مُحَدِّثاً لِخَيْرِ مَنْ يَسْمَعُ ، وَمُنَادِماً لِخَيْرِ مَنْ يُنَادَمُ ، وَأَكْبَرُ عَزَائِي فِيمَا أَضَعْتُ مِنْ شَبَابِي مُرْتَحِلاً مُتَنَقِّلاً فِي البُلْدَانِ ، مُغْتَرِباً عَنِ الأَوْطَانِ ، أَنَّكَ وَجَدْتَ فِيَّ مَعِيناً مُسْتَسَاغاً لِكُلِّ مَا هُوَ عَجِيبٌ وَمُعْجِبٌ ، وَلَوْلا إِعْجَابُكَ بِبِضَاعَتِي وَشِرَاؤكَ لَهَا ، بِوَقْتِكَ الثَّمِينِ لَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَضَعْتُ عُمُرِي بِلا طَائِلٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ لِنَدِيمِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ دَعْ ذَا ، وَحَدِّثْنِي عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَنْ أَعْجَبِ مَا تَوَافَقَ لَكَ مَعَ

أَهْلِهَا وَنَاسِهَا ، وَقَاصِدِيهَا ، وَمُجَاوِرِيهَا الكِرَامِ ، وَلا تَبْخَلْ عَلَيَّ بِأُحْدُوثَةٍ تَسْتَصْغِرُهَا شَأْنَاً ، فَقَدْ يَكُونَ بِهَا تَجَدُّدٌ وَغَسْلٌ لِشُجُونِ النَّفْسِ ، وَلَعَلَّكَ تَدْرِي حَقِيقَةَ انْشِغَالِي بِشُؤُونِ الرَّعِيَّةِ وَشُجُونِهَا حَتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعْتُ بِكَ كَانَتْ لَنَا عُزْلَةٌ مُحَبَّبَةٌ وَمُنَادَمَةٌ مُسَلِّيَةٌ ، وَعِبْرَةٌ يَسْتَبْقِيهَا التَّارِيخُ لِمَنْ يَعْتَبِرُ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَا مَوْلايَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَأَفْعَالِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ ، مُعَرِّجاً فِي آخِرِ حَدِيثِي عَلَىٰ خَبَرِ حُوحُو المَجْنُونِ الذِي كَانَ فِي خِدْمَةِ قَاضِي مَكَّةَ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ فَأَصَابَهُ مَسٌّ وَخَبَلٌ لِبَوْحِهِ بِسِرِّ رَجُلٍ ذِي كَرَامَةٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الصَّالِحِينَ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ ، فَأَنَا مُصْغٍ إِلَيْكَ مَا وَسِعَنِي الإِصْغَاءُ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَهْلُ مَكَّةَ أَهْلُ الرَّسُولِ ﷺ وَعِتْرَتُهُ ، وَرُعَاةُ حَرَمِ اللهِ بَعْدَ أَنْ حَلَّ فِي

قُلُوبِهِمْ الإِيمَانُ ، وَهُمْ أَهْلُ الأَفْعَالِ الجَمِيلَةِ وَالمَكَارِمِ التَّامَّةِ وَالأَخْلاقِ الحَسَنَةِ وَالإِيثَارِ لِلضُّعَفَاءِ وَحُسْنِ الجِوَارِ لِلغُرَبَاءِ . وَقَدْ خَبِرْتُ مِنْ مَكَارِمِهِمْ أَنَّ أَحَدَهُم إِذَا صَنَعَ وَلِيمَةً يَبْدَأُ فِيهَا بِإِطْعَامِ الفُقَرَاءِ المُنْقَطِعِينَ المُجَاوِرِينَ ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ بِالفُرْنِ لِطَبْخِ خُبْزِهِ وَتَبِعَهُ المَسَاكِينُ أَعْطَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَاقُسِمَ لَهُ ، وَلا يَرُدُّ أَحَداً مِنْهُم خَائِباً ، وَإِنْ اسْتَنْفَدَ نِصْفَ مَاعِنْدَهُ أَوْ أَكْثَرَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ طَيِّبُ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ . .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ مَكَّةَ :

ـ وَأَهْلُ مَكَّةَ لَهُمْ ظَرْفٌ وَنَظَافَةٌ فِي المَلابِسِ .

وَالعَجِيبُ المُعْجِبُ أَنَّ أَكْثَرَ لِبَاسِهِم البَيَاضُ ، فَتَرَىٰ ثِيَابَهُم أَبَداً نَاصِعَةً سَاطِعَةً ، وَهُم كَثِيرُو التَّطَيُّبِ وَالاكْتِحَالِ ، وَمِنْ عُدَدِهِم فِي النَّظَافَةِ السِّوَاكُ وَهُوَ عُودٌ مِنَ الأَرَاكِ الأَخْضَرِ . أَمَّا نِسَاءُ مَكَّةَ فَفِيهِنَّ جَمَالٌ وَعَفَافٌ ، وَهُنَّ يُكْثِرْنَ التَّطَيُّبَ ، تُؤْثِرُ إِحْدَاهُنَّ شِرَاءَ الطِّيبِ عَلَىٰ شِرَاءِ القُوتِ . وَيَقْصِدْنَ الطَّوَافَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ فَيَبْقَىٰ مِنْ آثَارِ طِيبِهِنَّ عَبَقٌ .

هُنَا ، اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ كَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ فَأَذِنَ لَهُ فِي الحَالِ ، وَقَالَ لَهُ مَوْلاهُ :

ـ خُذْ اسْتِعْدَادَكَ لِلكِتَابَةِ ، فَقَدْ فَاتَتْكَ مِنْ فَضَائِلِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ رَوَاهَا ابْنُ بَطُّوطَةَ .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ مُمَازِحاً :

ـ وَآخِرُ مَا أَدْرَكْتُهُ مِنْهَا العَبَقُ وَالطِّيبُ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَرْسِلاً فِي حَدِيثِهِ عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا :

ـ وَأَهْلُ مَكَّةَ لا يَأْكُلُونَ فِي اليَوْمِ إِلاَّ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ العَصْرِ ، وَيَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ الوَقْتِ مِنَ اليَوْمِ التَّالِي ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْهُم الأَكْلَ فِي سَائِرِ النَّهَارِ اكْتَفَىٰ بِبَعْضِ التَّمْرِ ، لِذَلِكَ صَحَّتْ أَبْدَانُهُمْ ، وَقَلَّتْ فِيهِمُ الأَمْرَاضُ وَالعَاهَاتُ . .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ مُتَّجِهاً إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ هَلْ أُدَوِّنُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ بِأَهْلِ مَكَّةَ يَا مَوْلايَ ؟ أَخْشَىٰ إِذَا فَعَلْتُ أَنْ يُفَسِّرُهَا بُخَلاءُ الجَاحِظِ عَلَىٰ مَذْهَبِهِم . .

ضَحِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مِنْ كَلامِ ابْنِ جُزَيٍّ قَائِلاً :

ـ اكْتُبْ مَا تَسْمَعُ ، وَكُنْ مِنَ الأَكْلِ كَيْفَ شِئْتَ . .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ أَمْرُ مَوْلايَ . . هَأَنَذَا أَكْتُبُ مَا يَقُولُهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَلَكِنْ أَرْجُوهُ أَنْ يَتَأَنَّىٰ عِنْدَمَا يَتَنَاوَلُ سِيرَةَ الطَّعَامِ . . تَبَسَّمَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَوَاصَلَ الكَلامَ مُتَّجِهاً بِالحَدِيثِ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ يُجَاوِرُ الحَرَمَ المَكِّيَّ يَا مَوْلايَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالقُضَاةِ وَالرِّجَالاتِ الصَّالِحِينَ وَسَأَقْتَصِرُ مِنْ ذِكْرِهِم مَا عَرَفْتُهُ عَنْ قَاضِي مَكَّةَ العَالِمِ الصَّالِحِ العَابِدِ نَجْمِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الإِمَامِ مُحْيِي الدِّينِ الطَّبَرِيِّ . وَهُوَ رَجُلٌ فَاضِلٌ كَثِيرُ الصَّدَقَاتِ وَالمُوَاسَاةِ لِلمُجَاوِرِينَ .لَمَسْتُ مِنْهُ حُسْنَ الأَخْلاقِ ، وَإِدْمَانَ الكَرَمِ وَالعَطَاءِ ، وَالحُبَّ لِلطَّوَافِ وَالتَّبَرُّكِ بِمُشَاهَدَةِ الكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ . . وَجَدْتُهُ يُطْعِمُ الطَّعَامَ فِي المَوَاسِمِ كُلِّهَا ، وَخُصُوصاً فِي مَوْسِمِ ذِكْرَىٰ مَوْلِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ يَجْمَعُ عَلَىٰ مَائِدَتِهِ شُرَفَاءَ مَكَّةَ وَكُبَرَاءَهَا ، وَفُقَرَاءَهَا ، وَخُدَّامَ الحَرَمِ الشَّرِيفِ . وَكَانَ

المَلِكُ النَّاصِرُ سُلْطَانُ مِصْرَ ـ رَحِمَهُ الله ـ يُجِلُّهُ كَثِيراً ، وَيُجْرِي صَدَقَاتِهِ عَلَىٰ يَدَيهِ ، لأَنَّهُ لايَحْبِسُ مِنْهَا دِرْهَماً بَلْ يَزِيدُهَا بِمَايَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَسْتَزِيدُهَا بِأَفْضَالِ أَهْلِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ وَمَا خَبَرُ حُوحُو المَجْنُونِ الذِي عَدَدْتَهُ عَجِيباً ، وَمَا عَلاقَتُهُ بِقَاضِي مَكَّةَ نَجْمِ الدِّينِ الذِي ذَكَرْتَ ؟ !

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ بِمَكَّةَ أَيَّامَ مُجَاوَرَتِي بِهَا رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِحَسَنِ المَغْرِبِيِّ . . التَقَيْتُ بِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ فَحَدَّثَنِي بِأَنَّهُ فِي خِدْمَةِ القَاضِي نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ ، وَبِأَنَّهُ مَغْرِبِيٌّ مِثْلِي مِنْ مَدِينَةِ أَسْفِي عَلَىٰ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ جَنُوبِيَّ طَنْجَةَ . وَحَدَّثَنِي بِأَنَّهُ يَسْتَطِيبُ السَّمَكَ طَعَاماً كَانَتْ تَطْبُخُهُ وَتُعِدُّهُ لَهُ أُمُّهُ ، وَكَانَتْ فِي صِغَرِهِ تَدْعُوهُ : حُوحُو ، مَكَانَ حَسَنٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ بِحُوحُو إِلاَّ إِخْوَتُهُ وَالخَاصَّةُ مِنْ حَوْلِهِ ، حَتَّىٰ قَدَّرَ الله أَنْ يُسَافِرَ بَعِيداً عَنْ مَدِينَتِهِ ، وَيُجَاوِرَ

فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ خَادِماً لِرَجُلِ النَّجْدَةِ وَالكَرَمِ القَاضِي الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ .

كَانَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ الذِي شَهَرَ نَفْسَهُ بِحُوحُو بَعْدَ جُنُونِهِ ، كَانَ عَابِداً تَقِيّاً كَثِيرَ الطَّوَافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ آنَاءَ الليْلِ ،وَكَانَ يَرَىٰ إِلَىٰ جِوَارِهِ فِي سَاحَةِ الطَّوَافِ رَجُلاً بَادِيَ الفَقْرِ وَالمَسْكَنَةِ يُكْثِرُ الطَّوَافَ فِي الليْلِ ، وَلا يَرَاهُ إِلاَّ فِي الليْلِ ، فَلَقِيَهُ ذَلِكَ الفَقِيرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِه ، وَقَالَ لَهُ : يَاحَسَنُ ! إِنَّ أُمَّكَ التِي خَلَّفْتَهَا فِي أَسْفِي مِنْ بِلادِ المَغْرِبِ مُشْتَاقَةٌ إِلَىٰ رُؤْيَتِكَ ،وَهِيَ تَبْكِي لِفُرْقَتِكَ فِي الليْلِ وَالنَّهَارِ أَلاَ تُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا ؟ قَالَ حَسَنٌ : بَلَىٰ ، أُحِبُّ ، وَلَكِنْ أَنَّىٰ لِي ذَلِكَ ؟ قَالَ العَبْدُ الفَقِيرُ : نَجْتَمِعُ هَاهُنَا تُجَاهَ مِزْرَابِ الرَّحْمَةِ فِي الليْلَةِ المُقْبِلَةِ ، وَتَنَالُ مُبْتَغَاكَ بِرُؤْ يَةِ أُمِّكَ ، إِنْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ .

كَانَتْ أُمُّ حَسَنٍ المَغْرِبِيِّ امْرَأَةً صَالِحَةً تَقِيَّةً عَمرَتْ لَيَالِيَهَا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَبِدُعَاءِ الله أَنْ يَجْمَعَهَا بِوَلَدِهَا حَسَنٍ ، قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهَا الأَجَلُ . وَيَبْدُو أَنَّ دُعَاءَهَا صَادَفَ سَاعةً مُسْتَجَابَةً فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدِ الفَقِيرِ الصَّالِحِ لِحَسَنٍ المَغْرِبِيِّ أَنْ يُتِيحَ لَهُ الفُرْصَةَ بِقُدْرَةِ الله القَادِرِ . وَبِكَرَامَةِ

مِنْهُ يَمُنُّ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ المُتَّقِينَ .

فِي اللَيْلَةِ المُقْبِلَةِ ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ ، لَقِيَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ مُوَاعِدَهُ العَبْدَ الصَّالِحَ تُجَاهَ مِزْرَابِ الرَّحْمَةِ بِالحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ . فَطَافَ الاثْنَانِ بِالبَيْتِ العَتِيقِ مَاشَاءَ الله لَهُمَا أَنْ يَطُوفَا . وَقَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ لِحَسَنٍ المَغْرِبِيِّ اتْبَعْنِي فَتَبِعَهُ فِي صَمْتٍ إِلَي بَابِ الحَرَمِ المَعْرُوفِ بِبَابِ المُعَلَّىٰ ، وَوَقَفَ بِهِ هُنَاكَ قَائِلاً : الآنَ ، أَغْلِقْ عَيْنَيْكَ ، وَأَمْسِكْ بِثَوْبِكَ ، وَهَا نَحْنُ نُسَافِرُ فَرَدِّدْ مَعِي دُونَ أَنْ تَفْتَحَ عَيْنَيْكَ : (سُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ للّهُ ، وَلا إِلَهَ إِلاّ الله ، وَالله أَكْبَرُ) . . وَمَضَتْ سَاعَةٌ مِنَ الوَقْتِ فَقَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ لِحَسَنٍ : أَتَعْرِفُ بَلَدَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَعْرِفُهُ . قَالَ : انْظُرْهُ . هَا هُوَ ذَا ، اطْرُقْ البَابَ وَاسْتَأْذِنْ عَلَىٰ أُمِّكَ أَمَةِ الله الصَّالِحَةِ ، أَمَّا إِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَانِي فَاطْلُبْنِي بِالجَبَّانَةِ لَيْلاً . .

فَتَحَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ عَيْنَيْهِ فَإِذَا هُوَ أَمَامَ بَابِ دَارِهِ بِالمَغْرِبِ وَطَرَقَ البَابَ ثَلاثاً فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ وَالتَقَتْهُ وَكَأَنَّهَا عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِقُدُومِهِ ، وَأَعَدَّتْ لَهُ طَبَقَامِنَ السَّمَكِ الذِي كَانَ طَعَامَهُ المُفَضَّلَ ، وَتَمَتَّعَ كُلٌّ مِنَ الأُمِّ وَالوَلَدِ بِفَرْحَةِ اللقَاءِ بَعْدَ فِرَاقٍ طَوِيلٍ .

أَقَامَ حَسَنٌ فِي بَلَدِهِ وَدَارِهِ وَبَيْنَ أَحْضَانِ أُمِّهِ نِصْفَ شَهْرٍ وَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ الحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ وَإِلَىٰ شَيْخِهِ وَقَاضِيهِ وَمَخْدُومِهِ نَجْمِ الدِّينِ الطَّبَرِيِّ ، فَخَرَجَ إِلَىٰ جَبَّانَةِ البَلْدَةِ يَسْتَطْلِعُ أَخْبَارَ العَبْدِ الصَّالِحِ الذِي اقْتَادَهُ إِلَىٰ بَلَدِهِ مُتِيحاً لَهُ فُرْصَةَ اللقَاءِ بِأُمِّهِ المُؤْمِنَةِ الصَّابِرَةِ ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِ الأَمَدُ حَتَّىٰ التَقَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَسَنُ ؟ قَالَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ : أَنَا يَا سَيِّدِي فِي أَحْسَنِ حَالٍ ، وَلَكِنَّنِي اشْتَقْتُ إِلَىٰ الحَرَمِ المَكِّيِّ وَلَيَالِي الطَّوَافِ ، وَإِلَىٰ رُؤْيَةِ مَوْلايَ الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ ، لَقَدْ كُنْتُ خَرَجْتُ مِنْ مُقَامِي عِنْدَهُ عَلَىٰ العَادَةِ المُعْتَادَةِ ، وَغِبْتُ عَنْهُ كُلَّ هَذِهِ الأَيَّامِ ، وَأُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَيْهِ . .

تَسَاءَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الذِي كَانَ يُتَابِعُ القِصَّةَ بِبَالِغِ الاهْتِمَامِ ، تَسَاءَلَ مَلْهُوفاً :

ـ وَهَلْ رَدَّهُ صَاحِبُهُ إِلَىٰ مَكَّةَ ؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ الوُصُولِ إِلَيْهَا وَقَدْ غَابَ عَنْ خِدْمَةِ سَيِّدِهِ القَاضِي قُرَابَةَ نِصْفَ شَهْرٍ دُونَ سَابِقِ إِخْبَارٍ وَاسْتِئْذَانٍ ؟ . حَدِّثْنِي حَدِّثْنِي . يَابْنَ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَا حَدَثَ يَا مَوْلايَ ، أَنَّ العَبْدَ الفَقِيرَ الصَّالِحَ وَاعَدَ حَسَناً المَغْرِبِي أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعِهِمَا حَيْثُ التَقَيَا تِلْكَ اللَيْلَةِ فِي الجَبَّانَةِ . وَقَالَ لَهُ : كُنْ فِي وَدَاعِ أُمِّكَ العَابِدَةِ المُتَنَسِّكَةِ الصَّالِحَةِ ، وَسَتَجِدُهَا إِنْ شَاءَ الله صَابِرَةً عَلَىٰ فِرَاقِكَ ، فَقَدْ جَرَىٰ لَهَا بِهِ سَابِقُ عِلْمٍ يَطُولُ شَرْحُهُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَفِي اللَيْلَةِ التَّالِيَةِ يَا مَوْلايَ ، وَافَىٰ العَبْدُ الصَّالِحُ الفَقِيرُ مَوْعِدَهُ لِحَسَنٍ فِي الجَبَّانَةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَ خُرُوجِهِمَا مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ . أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَأَمْسَكَ بِذَيْلِ ثَوْبِهِ ، وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ بَلَغَا مَكَّةَ شَرَّفَهَا الله ، فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ فَإِذَا هُمَا فِي سَاحَةِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ قُبَالَةَ الكَعْبَةِ المُبَارَكَةِ . وَأَوْصَاهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أَلاَّ يُحدِّثَ مَوْلاهُ القَاضِيَ نَجْمَ الدِّينِ وَلا غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَرَىٰ لَهُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حِفْظُ السِّرِّ أَمَانَةٌ . .

وَقَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ :

ـ وَحَمْلُ الأَمَانَةِ عِبءٌ ثَقِيلٌ حَتَّىٰ عَلَىٰ الجِبَالِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدَقْتَ يَا مَوْلايَ السُّلْطَانَ ، وَصَدَقْتَ يَابْنَ جُزِّيٍّ . . إِنَّ صَاحِبِي حَسَناً المَغْرِبِيَّ لَمْ يَتَحَمَّلْ عِبْءَ الأَمَانَةِ الثَّقِيلِ مِمَّا آلَ بِهِ إِلَىٰ الجُنُونِ . . فَعُرِفَ مِنْ بَعْدِهِمَا بِحُوحُو المَجْنُونِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ الخَبَرِ العَجِيبِ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ يَرْوِي الخَبَرَ :

ـ لَمَّا دَخَلَ حَسَنٌ المَغْرِبِيُّ عَلَىٰ مَوْلاهُ القَاضِي نَجْمِ الدِّينِ بَعْدَ غَيْبَتِهِ الطَّوِيلَةِ سَأَلَهُ القَاضِي : (أَيْنَ كُنْتَ يَاحَسَنُ فِي غَيْبَتِكَ الطَّوِيلَةِ ؟) فَأَبَىٰ أَنْ يُخْبِرَهُ بَادِئَ ذِي بَدْءٍ فَأَلَحَّ عَلَيْهِ وَاسْتَحْلَفَهُ بِأَيْمَانٍ مُغَلَّظَةٍ ، فَأَخْبَرَهُ بِالحِكَايَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا . . فَقَالَ القَاضِي نَجْمُ الدِّينِ : أَرِنِي الرَّجُلَ الذِي حَمَلَكَ مِنَ الحِجَازِ إِلَىٰ المَغْرِبِ . . فَقَالَ حَسَنٌ لِسَيِّدِهِ :

كُنْ مَعِي هَذِهِ اللَيْلَةِ ، فِي صَحْنِ الطَّوَافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، فَأَتَىٰ مَعَهُ لَيْلاً وَتَرَقَّبَا مُرُورَ الرَّجُلِ الفَقِيرِ الصَّالِحِ ، فَلَمَّا مَرَّ إِزَاءَهُمَا ، قَالَ حَسَنٌ لِلقَاضِي نَجْمِ الدِّينِ : هَذَا هُوَ الرَّجُلُ يَاسَيِّدِي ، فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ فَمِهِ وَقَالَ : اسْكُتْ أَسْكَتَكَ الله . فَخَرِسَ لِسَانُهُ وَذَهَبَ عَقْلُهُ ، وَبَقِيَ بِالحَرَمِ مُوَلَّهاً يَطُوفُ فِي اللَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ غَيْرِ وُضُوءٍ وَلا صَلاةٍ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ وَمَا خَبَرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ ذَاعَ صِيتُهُ وَاشْتُهِرَ بِاسْمِهِ حُوحُو المَجْنُونِ ، وَلَكِنَّ بَعْضاً كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ظَلُّوا يُقَرِّبُونَهُ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ وَيَكْسُونَهُ . وَإِذَا جَاعَ خَرَجَ إِلَىٰ السُّوقِ التِي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، فَقَصَدَ حَانُوتاً مِنَ الحَوَانِيتِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا مَايُحِبُّ دُونَ أَنْ يَصُدَّهُ أَحَدٌ أَوْ يَمْنَعَهُ ، بَلْ كَانَ صَاحِبُ الحَانُوتِ الذِي يَأْكُلُ مِنْ عِنْدِهِ يَبِيتُ مَسْرُوراً لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ البَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ فِي بَيْعِهِ وَرِبْحِهِ .

وَكَانَ إِذَا قَصَدَ أَحَدُ السَّقَّائِينَ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ تَسَابَقَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ رَآهُ لِيَسْقِيَهُ مِنْ قُرْبَتِهِ ، فَلا يُعْدَمُ البَرَكَةَ وَالنَّمَاءَ فِي رِزْقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ هَـذِهِ حِكَـايَـةٌ عَجِيبَـةٌ حَقّـاً مَـنْ حِكَـايَـاتِ أَوْلِيَـاءِ الله ، وَأَرْبَـابِ الكَرَامَاتِ ، وَسَتَبْقَىٰ فِي ذَاكِرَتِي حِكَايَةُ حُوحُو المَجْنُونِ ، بِأَوْضَحَ مِمَّا تَبْقَىٰ فِي سِجِلِّ الكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ . .

تَبَسَّمَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ ، وَتَفَرَّقَ الجَمْعُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَسَلامٍ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

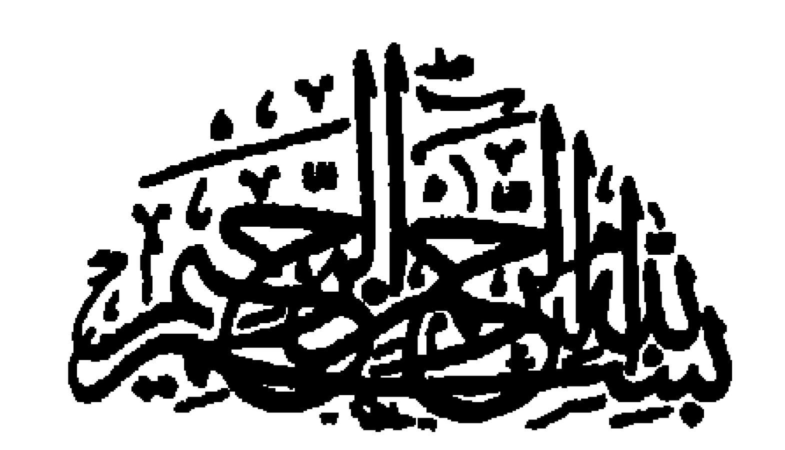
عجائب رحلة ابن بطوطة

المغرورُ أبو الطبولِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المَغْـرُورُ أَبُـو الطُّبُـولِ

كَانَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ قَدْ رَوَىٰ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَقَائِعَ انْفِصَالِهِ عَنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حِينَ خَرَجَ بِصُحْبَةِ أَمِيرِ رَكْبِ العِرَاقِ فِي جَمْعٍ مِنَ العِرَاقِيِّينَ وَالخُرَاسَانِيِّينَ وَالأَعَاجِمِ لا يُحْصَىٰ عَدِيدُهُمْ . وَكَانَ مَلِكُ العِرَاقِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ هُوَ السُّلْطَانَ أَبَا سَعِيدٍ الذِي جَعَلَ فِي الرَّكْبِ العِرَاقِيِّ جُمْلَةً مِنَ الجِمَالِ يُحْمَلُ عَلَيْهَا مَنْ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَىٰ المَشْيِ صَدَقَةً وَإِحْسَاناً لِوَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ . وَبَعْدَأَنْ حَدَّثَهُ عَنْ اجْتِيَازِ الرَّكْبِ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَالإِقَامَةِ سِتَّةَ أَيَّامٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُولِ ﷺ بَلَغُوا إِلَىٰ نَجْدٍ تَشْرِيقاً ، وَذَكَرَ لَهُ كَثِيراً مِنَ المَوَاضِعِ حَتَّىٰ نَزَلُوا القَادِسِيَّةَ ، حَيْثُ كَانَتْ المَوْقِعَةُ الشَّهِيرَةُ عَلَىٰ الفُرْسِ التِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهَا دِينَ الإِسْلامِ وَأَذَلَّ المَجُوسَ عَبَدَةَ النَّارِ .

وَفِي التَّمْهِيدِ لِقِصَّةِ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ ، حَكَىٰ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَنْ نُزُولِهِ بِمَدِينَةِ مَشْهَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ بِالنَّجَفِ . وَقَالَ :

إِنَّهُمْ دَخَلُوهَا مِنْ بَابِ الحَضْرَةِ تَحْتَ قُبَّةٍ فَوْقَ مَسْطَبَةٍ مُرَبَّعَةٍ تَحْوِي ثَلاثَةً مِنَ القُبُورِ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَحَدَهَا قَبْرُ آدَمَ ، وَالثَّانِي قَبْرُ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ، وَالثَّالِثُ قَبْرُ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ .

وَقَدْ ظَهَرَتْ لِرَوْضَةِ القُبُورِ بِالنَّجَفِ كَرَامَاتٌ ثَبَتَ بِهَا عِنْدَهُم أَنَّ بِهَا قَبْرَ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ ، وَاسْتَحَبُّوا زِيَارَتَهَا فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ ، وَتُسَمَّىٰ عِنْدَهُم لَيْلَةَ المَحْيَا ، وَذَكَرُوا أَنَّ مَنْ أَقَامَ فِيهَا مُلازِماً الضَّرِيحَ ، وَكَانَ مُقْعَداً رُزِقَ بِالشِّفَاءِ وَالمُعَافَاةِ وَقَامَ يَمْشِي صَحِيحاً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جَعَلَ شِيعَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَلَىٰ النَّجَفِ قَيِّماً هُوَ نَقِيبُ الأَشْرَافِ ، وَنَقِيبُ الأَشْرَافِ مُقَدَّمٌ مِنْ مَلِكِ العِرَاقِ ، وَمَكَانُهُ عِنْدَهُ

مَكِينٌ ، وَمَنْزِلَتُهُ رَفِيعَةٌ ، وَلَهُ تَرْتِيبُ الأُمَرَاءِ فِي سَفَرِهِ ، وَلَهُ الأَعْلامُ وَالطُّبُولُ وَتُضرَبُ (الطَّبْلَخَانَةُ) عِنْدَ بَابِهِ مَسَاءً وَصَبَاحاً ، وَإِلَيْهِ حُكْمُ هَذِهِ المَدِينَةِ ، وَلا وَالِيَ بِهَا سِوَاهُ ، وَلا مَغْرَمَ لِلسُّلْطَانِ وَلا لِغَيْرِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُخَاطِباً نَدِيمَهُ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

مَا الخَبَرُ العَجِيبُ الذِي وَعَدْتَ بِسَرْدِهِ بَعْدَ هَذِهِ الدِّيبَاجَةِ الطَّوِيلَةِ ؟ وَهَلْ لَكَ أَنْ تَخْتَصِرَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ ؟ !

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَمْ أَسُقْ إِلَيْكَ مِنَ الكَلامِ ، إِلاَّ مَالا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ لِفَهْمِ حِكَايَةِ المَغْرُورِ أَبِي غُرَّةٍ أَوْ أَبِي الطُّبُولِ كَمَا لقَّبُوهُ . فَقَدْ آلَ إِلَيْهِ مَنْصِبُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ بِالنَّجَفِ الشَّرِيفِ وَلَكِنَّهُ أَضَاعَهُ بِغُرُورِهِ الآثِمِ ، وَبِإِيثَارِهِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ بِلا إِبْطَاءٍ . مَاذَا كَانَ مَصِيرُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ المَغْرُورِ المُلَقَّبِ بِأَبِي الطُّبُولِ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ بْنُ سَالِمِ بْنِ مُهَنَّا بْنِ جَمَّازٍ سَاكِناً بِمَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ كَرَّمَهَا اللهُ . وَكَانَ مَعْدُوداً مِنْ أَهْلِ العِبَادَةِ وَالعِلْمِ ، وَعُدَّ مِنْ سَرَاةِ المَدِينَةِ ، وَهُوَ فِي جِوَارِ ابْنِ عَمِّهِ مَنْصُورِ بْنِ جَمَّازٍ أَمِيرِ المَدِينَةِ . ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ عَنِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَاسْتَوْطَنَ العِرَاقَ وَسَكَنَ مِنْهَا بِالحَلَّةِ بَيْنَ كَرْبَلاءَ وَالنَّجَفِ فَمَاتَ نَقِيبُ الأَشْرَافِ قِوَامُ الدِّينِ بْنُ طَاوُوسٍ ، فَاتَّفَقَ أَهْلُ العِرَاقِ عَلَىٰ تَوْلِيَةِ أَبِي غُرَّةَ نَقَابَةَ الأَشْرَافِ مَكَانَهُ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ ، فَأَمْضَىٰ بِالمُوَافَقَةِ ، وَأَنْفَذَ لَهُ كِتَاباً يَأْمُرُ بِذَلِكَ وَبُعِثَتْ لَهُ الخِلْعَةُ وَالأَعْلامُ وَالطُّبُولُ عَلَىٰ عَادَةِ النُّقَبَاءِ فِي بِلادِ العِرَاقِ . وَمَا لَبِثَ أَبُو غُرَّةَ هَذَا أَنْ رَكِبَهُ الغُرُورُ بِمَا أَصَابَ مِنْ مَنْصِبٍ وَعِزٍّ

وَجَاهٍ ، وَاتَّخَذَ حَاشِيَةً مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ وَالمُجُونِ ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، فَتَخَلَّىٰ عَنِ العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ ، وَابْتَزَّ الأَمْوَالَ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَلَمْ يُوَفِّرْ أَمْوَالَ النُّذُورِ التِي كَانَتْ تُحْمَلُ إِلَىٰ رَوْضَةِ الإِمَامِ عَلِيٍّ ، فَاخْتَلَسَهَا ، وَأُوْلِعَ بِتَكْدِيسِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ .

وَشَاعَ فِي الأَوْسَاطِ سُوءُ تَصَرُّفِهِ ، فَرُفِعَ أَمْرُهُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ مَلِكِ العِرَاقِ ، وَجَاءَتْهُ النُّذُرُ بِأَنَّ المَلِكَ عَلَيْهِ غَاضِبٌ ، وَأَنَّهُ لا بُدَّ سَيُعَرِّضُهُ لِلمُسَاءَلَةِ وَالعُقُوبَةِ أَوْ العَزْلِ .

فَلَمَّا عَلِمَ بِتَغَيُّرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ اسْتَعَدَّ لِلسَّفَرِ مُظْهِراً أَنَّهُ يُرِيدُ خُرَاسَانَ قَاصِداً زِيَارَةَ قَبْرِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَىٰ الرِّضَا فِي مَدِينَةِ طُوسَ . وَكَانَ قَصْدُهُ الفِرَارَ إِلَىٰ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِمَّا يَنَالُهُ السُّلْطَانُ .

فَلَمَّا زَارَ الضَّرِيحَ اسْتَمَرَّ فِي تَوَجُّهِهِ شَرْقاً حَتَّىٰ وَصَلَ بِمَوْكِبِهِ إِلَىٰ هَرَاةَ وَهِيَ آخِرُ بِلادِ خُرَاسَانَ ، وَأَعْلَمَ أَصْحَابَهُ الذِينَ انْسَاقُوا مَعَهُ بِحُسْنِ نِيَّةٍ أَنَّهُ يُرِيدُ بِلادَ الهِنْدِ ،وَخَيَّرَهُم فِي أَمْرِهِم فَاخْتَارَ أَكْثَرُهُمُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ العِرَاقِ حَيْثُ السُّلْطَانُ أَبُو سَعِيدٍ .

أَمَّا المَغْرُورُ أَبُو غُرَّةَ فَقَدْ تَجَاوَزَ بِمَنْ مَعَهُ أَرْضَ خُرَاسَانَ إِلَىٰ السِّنْدِ ، وَهُنَاكَ ضَرَبَ طُبُولَهُ وَوَزَّعَ أَنْفَارَهُ فَارْتَاعَ أَهْلُ القُرَىٰ ، وَحَسِبُوا أَنَّ التَّتَرَ حَمَلُوا عَلَيْهِم بِغَارَةٍ مِنْ غَارَاتِهِم الشَّعْوَاءِ المُدَمِّرَةِ ، وَانْدَفَعَ النَّاسُ فِي ذُعْرٍ شَدِيدٍ إِلَىٰ أَقْرَبِ العَوَاصِمِ وَأَعْلَمُوا أَمِيرَهَا الهِنْدِيَّ بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ قَرْعِ الطُّبُولِ وَاصْطِنَاعِ الغَزْوِ .

اهْتَمَّ أَمِيرُهُم بِالأَمْرِ ، وَبَعَثَ الطَّلائِعَ لاسْتِكْشَافِ الخَبَرِ فَلَمْ يَرَوْا غَيْرَ عَشْرَةٍ مِنَ الفُرْسَانِ وَمَعَهُم جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالتُّجَّارِ مِمَّنْ صَحِبَ أَبَا غُرَّةَ فِي طَرِيقِهِ . وَلَمَّا رَأَوْهُم يَسِيرُونَ فِي زَهْوٍ مِنَ الأَعْلامِ وَالطُّبُولِ سَأَلُوهُم عَنْ شَأْنِهِم فَأَخْبَرُوهُم أَنَّ الشَّرِيفَ نَقِيبَ العِرَاقِ أَتَىٰ وَافِداً عَلَىٰ مَلِكِ الهِنْدِ .

رَجَعَ طَلائِعُ الجُنْدِ إِلَىٰ أَمِيرِهِم الهِنْدِيِّ وَأَخْبَرُوهُ بِوَاقِعِ الحَالِ . فَامْتَعَضَ لِمَا سَمِعَ . وَاسْتَضْعَفَ عَقْلَ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ الذِي أَسْرَفَ فِي تَجَاوُزِ الحَدِّ ، حِينَ رَفَعَ الأَعلامَ وَضَرَبَ الطُّبُولَ فِي غَيْرِ بِلادِهِ . دَخَلَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ أُولَىٰ العَوَاصِمِ الهِنْدِيَّةِ وَضَرَبَ فِيهَا سُرَادِقَهُ ، وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً تُضْرَبُ الأَطْبَالُ عَلَىٰ بَابِهِ غُدْوَةً وَعَشِيّاً ، بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّخُولَ وَالخُرُوجَ ، وَتُقْرَعُ الطُّبُولُ مِنْ حَوْلِهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَهَذَا مَا لَمْ يَتَعَوَّدْهُ الهُنُودُ . وَعَادَةُ أَهْلِ الهِنْدِ : لا يَرْفَعُونَ عَلَماً وَلا يَضْرِبُونَ طَبْلاً إِلاَّ بِأَمْرٍ مَلَكِيٍّ وَبِتَخْصِيصٍ مِنْهُ لِذِي مَنْصِبٍ أَوْ وِلايَةٍ أَوْ وَقْتَ السَّفَرِ لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَأَمَّا فِي حَالِ الإِقَامَةِ فَلا يُضْرَبُ الطَّبْلُ إِلاَّ عَلَىٰ بَابِ المَلِكِ خَاصَّةً ، بِخِلافِ مَا عَلَيْهِ الحَالُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَالعِرَاقِ ، فَإِنَّ الطُّبُولَ تُضْرَبُ عَلَىٰ أَبْوَابِ الأُمَرَاءِ .

بَعَثَ أَمِيرُ المَدِينَةِ بِخَبَرِ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ إِلَىٰ مَلِكِ البِلادِ ، فَتَعَجَّبَ لأَمْرِهِ وَاسْتَنْكَرَ فِعْلَهُ وَأَمَرَ صَاحِبَ المَدِينَةِ أَنْ يَسْتَوْضِحَ ضَيْفَهَا الغَرِيبَ عَنْ حَاجَتِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ .

مَضَتْ أَيَّامٌ وَأَسَابِيعُ وَأَبُو غُرَّةَ نَازِلٌ بِالمَدِينَةِ عَلَىٰ هَذَا المِنْوَالِ ، حَتَّىٰ قَلْقَلَ الأَمْنَ وَالنِّظَامَ فِيهَا ، وَكَثُرَ حَوْلَهُ القِيلُ وَالقَالُ ، بَيْنَمَا انْتَظَرَ أَمِيرُ المَدِينَةِ الهِنْدِيُّ أَوَامِرَ المَلِكِ فِيمَا يَجْرِي عَلَىٰ يَدِ هَذَا الفُضُولِيِّ الغَرِيبِ وَحِينَ جَاءَتْ الأَوَامِرُ مِنْ مَلِكِ الهِنْدِ بِاسْتِيضَاحِ المُتَسَمِّي بِالشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ عَنْ غَايَتِهِ مِنَ المَجِيءِ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ ، أَوْفَدَ إِلَيْهِ الأَمِيرُ ثَلاثَةً مِنَ الرِّجَالِ ، بَيْنَهُم رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، اسْمُهُ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ . وَكَانَ أَحْمَدُ هَذَا

ذَا جَاهٍ ، وَلَقَبٍ مَنَحَهُ إِيَّاهُ المَلِكُ فَدُعِيَ بِخَواجَةِ جِهَانَ .

اسْتَطَاعَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ بِدَهَائِهِ وَمَكْرِهِ أَنْ يُقْنِعَ خَواجَةَ جِهَانَ مَنْدُوبَ المَلِكِ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَىٰ الهِنْدِ دَاعِيَةً مُبَشِّراً بِالإِسْلامِ ، وَأَنَّ قَرْعَهُ لِلطُّبُولِ وَرَفْعَهُ لِلأَعْلامِ كَانَ مِنْ قَبِيلِ زَرْعِ الهَيْبَةِ فِي النُّفُوسِ لِمُوالاةِ سُلْطَانِ العِرَاقِ المُسْلِمِ .

صَرَفَ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ المُلَقَّبُ بِخَواجَةِ جِهَانَ صَاحِبَيْهِ الهِنْدِيَّيْنِ ، وَحَمَّلَ نَفْسَهُ عِبْءَ التَّفَاهُمِ مَعَ أَبِي غُرَّةَ ، وَكَفِلَ مَهَمَّةَ إِطْلاعِ أَمِيرِ المَدِينَةِ وَمَلِكِ الهِنْدِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ . .

بَعَثَ مَلِكُ الهِنْدِ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ إِيَاسَ المُلَقَّبِ خَواجَةَ جِهَانَ يَسْتَوْزِرُهُ ، وَيُوكِلُ إِلَيْهِ التَّصَرُّفَ بِعَقْلٍ وَحِكْمَةٍ مَعَ الوَافِدِ الغَرِيبِ ، لأَنَّهُ حَرِيصٌ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ حُسْنِ العَلاقَةِ مَعَ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ ، عَلَىٰ حُدُودِ بِلادِهِ ،

وَفَوَّضَهُ أَمْرَ إِقْطَاعِ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ بَعْضَ القُرَىٰ وَالبُلْدَانِ ، إِذَا وَجَدَ ذَلِكَ مُنَاسِباً لِتَوْطِيدِ السِّلْمِ بَيْنَ شَعْبَيْنِ مُتَجَاوِرَيْنِ .

كَانَ الوَزِيرُ المُسْلِمُ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ خَواجَةُ جِهَانَ رَجُلاً مُؤْمِناً حَرِيصاً عَلَىٰ الفَضْلِ وَالمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، وَعَقْدِ صِلَةِ المَحَبَّةِ بَيْنَ غَرِيبٍ وَغَرِيبٍ ، حَتَّىٰ يَعُمَّ الخَيْرُ وَالإِحْسَانُ بِمَا فِي ذَلِكَ إِفْشَاءُ السَّلامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَتَعْمِيرُ الزَّوَايَا لِلعَابِدِينَ المُتَنَسِّكِينَ ..

اخْتَارَ الوَزِيرُ خَواجَة جِهَانَ قَرْيَتَيْنِ مِنْ أَخْصَبِ القُرَىٰ وَأَعْمَرِهَا بِالسُّكَّانِ المُسْلِمِينَ ، وَنَصَّبَ عَلَيْهِمَا الشَّرِيفَ أَبَا غُرَّةَ ، وَالِياً يَأْمُرُ فِيهِمَا فَيُطَاعُ ، وَتُجْبَىٰ بِاسْمِهِ الضَّرَائِبُ وَالغَلاَّتُ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَاتُ ، وَمِنْهَا الأَوْقَافُ لِصَالِحِ الحَجِيجِ وَالمَرْضَىٰ وَالمَنْكُوبِينَ .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنْ كَلامِ ابْنِ بَطُّوطَةَ تَثَاءَبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ ، وَصَفَّقَ بِكَفَّيْهِ فَدَخَلَ الحَاجِبُ لِتَوِّهِ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِغَايَةِ الأَدَبِ وَالإِحْتِرَامِ ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ فَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ فَخَرَجَ مُسْرِعاً . وَالتَفَتَ السُّلْطَانُ إِلَىٰ مُحَدِّثِهِ وَنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

لا أَشُكُّ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ أَنَّ أَبَا غُرَّةَ المَغْرُورَ سَيَنْكَشِفُ أَمْرُهُ لِوَزِيرِ مَلِكِ الهِنْدِ صَاحِبِ القَلْبِ الطَّيِّبِ ، وَسَيَلْقَىٰ جَزَاءَ غُرُورِهِ ، وَحُبِّهِ المُفْرِطِ لِجَنْيِ المَالِ ، وَالتَّطْبِيلِ فِي آذَانِ النَّاسِ .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مَوْلاهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ :

ـ أَصَبْتَ يَا مَوْلايَ بِحَدْسِكَ وَتَخْمِينِكَ . . وَتَقْضِي عَدَالَةُ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَكُونَ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، وَأَنْ يُرَدَّ كَيْدُ الكَائِدِ إِلَىٰ نَحْرِهِ ، وَأَنْ يُعَاقَبَ الحَرِيصُ عَلَىٰ المَالِ بِحِرْمَانِهِ مِنْهُ فِي لَحْظَةِ قَضَاءٍ وَقَدَرٍ ، يَكُونُ بِهَا عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ . .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ مُمَازِحاً مَوْلاهُ السُّلْطَانَ :

مَا دَامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، هَلْ يَسْمَحُ لِي مَوْلايَ السُّلْطَانُ بِكِتَابَةِ بَقِيَّةِ القِصَّةِ مِنْ عِنْدِي ، بِالإِسْتِغْنَاءِ عَنْ رِوَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، المُمِلَّةِ ؟ !

ضَحِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُجِيباً كَاتِبَهُ ابْنَ جُزَّيٍّ :

ـ سَامَحَكَ اللهِ يَا بْنَ جُزَّيٍّ . . لَعَلَّكَ تَعِبْتَ مِنَ الكِتَابَةِ ، فَأَلْصَقْتَ تُهْمَةَ الإمْلالِ بِخَيْرِ نَدِيمٍ وَمُتَحَدِّثٍ . وَجَزَاؤكَ أَنْ تُمَزِّقَ مَا كَتَبْتَ هَذِهِ اللَيْلَةِ ، وَتُعِيدَ كِتَابَتَهُ فِي سِجِلِّكَ مَرَّةً ثَانِيةً ، إلاّ إِذَا سَامَحَكَ ابْنُ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ سَامَحْتُهُ يَا مَوْلايَ إِكْرَاماً لِخَاطِرِكَ . .

هُنَا ، اسْتَأْذَنَ نَفَرٌ مِنَ الخَدَمِ عَلَىٰ المَجْلِسِ ، وَبَسَطُوا أَمَامَ السُّلْطَانِ وَصَاحِبِيْهِ مَائِدَةً عَامِرةً بِالمَآكِلِ وَالفَاكِهَةِ وَالنُّقُولِ ، وَأُدِيرَتْ كُؤُوسُ الجُلاّبِ المُثْلَّجِ عَلَىٰ الحَاضِرِينَ فَانْتَعَشَتِ النُّفُوسُ وَتَجَدَّدَتْ ، وَزَالَ المَلَلُ وَبَدَا السُّلْطَانُ مُسْتَعِدّاً لِسَمَاعِ المَزِيدِ مِنْ مُنَادِمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَغَكَ يَا مَوْلايَ السُّلْطَانَ أَنَّ الوَزِيرَ الهِنْدِيَّ خَواجَةَ جِهَانَ قَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ وَالمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، وَكَانَ هُوَ الذِي سَعَىٰ لِتَأْمِيرِ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ عَلَىٰ قَرْيَتَيْنِ يَكُونُ لَهُ رَيْعُهُمَا وَخَرَاجُهُمَا ، فَاسْتَمَرَّ أَبُو غُرَّةَ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ مِنَ الطَّمَعِ بِالمَالِ وَوَلَعِهِ بَالتَّطْبِيلِ كُلَّمَا دَخَلَ وَخَرَجَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ بِالوِلايَةِ الجَدِيدَةِ .

وَقَدْ حَصَّلَ أَبُو غُرَّةَ بِاسْتِغْلالِهِ وَقَبْضِ يَدِهِ مَالاً كَثِيراً ، ثُمَّ أَرَادَ الخُرُوجَ بِمَا مَعَهُ خَارِجَ الهِنْدِ فَأَفْهَمَهُ صَاحِبُهُ الوَزِيرُ خَواجَةُ جِهَانَ بِأَنْ لا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِ مَلِكِ الهِنْدِ لِيُقِيلَهُ مِنَ الوِلايَةِ وَيَسْمَحَ لَهُ بِالخُرُوجِ ، وَخَشِيَ أَبُو غُرَّةَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنَ لَهُ أَوْ أَنْ يَلْفِتَ الأَنْظَارَ بِمَا يَحْمِلُ مَعَهُ مِنْ بِدَرِ الأَمْوَالِ وَالجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ جَابِياً لاوَالِياً . وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ خَوْفٍ وَحَذَرٍ ، وَرَغْبَةٍ بِالتَّسَلُّلِ خَارِجَ الهِنْدِ ، وَهُوَ لا يَأْمَنُ عَلَىٰ المَالِ أَحَداً مِنْ أَعْوَانِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ سَرَّحَ فِرْقَةَ الطَّبَّالَةِ وَاسْتَغْنَىٰ عَنِ التَّطْبِيلِ ، شَعَرَ الخَدَمُ وَالأَعْوَانُ بِغَايَتِهِ المُبَطَّنَةِ ، وَأَرَادَ الفِرَارَ مِنْ طَرِيقِ السَّاحِلِ فَرُدَّ مِنْهُ بِحُجَّةٍ ذَكِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ المَوْجَ عَالٍ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ ، وَأَنَّ مَزِيداً مِنْ بِدَرِ المَالِ بِانْتِظَارِهِ فِي قَصْرِهِ مِنْحةً مِنْ مَلِكِ الهِنْدِ .

رَجَعَ المَغْرُورُ أَبُو غُرَّةَ إِلَىٰ قَصْرِهِ ، وَاحْتَبَسَ نَفْسَهُ فِي حُجْرَةٍ جَمَع فِيهَا كُلَّ مَا يَمْلِكُ وَمَا يُرِيدُ الهُرُوبَ بِهِ .

جَمَعَ أَبُو غُرَّةَ أَكْيَاسَ المَالِ وَجَعَلَهَا تَحْتَ فِرَاشِهِ ، وَنَامَ عَلَيْهَا لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَلَمْ يَزَلْ يَزْدَادُ عَلَيْهِ الهَمُّ وَالأَرَقُ مِنْ خَوْفِ ضَيَاعِ المَالِ ، وَفَوَاتِ الفُرْصَةِ بِتَهْرِيبِهِ إِلَىٰ بَعِيدٍ . .

وَفِي لَيْلَتِهِ الأَخِيرَةِ فِي قَصْرِ الإِمَارَةِ ، غَزَاهُ وَجَعٌ مُفَاجِئٌ وَشَدِيدٌ خَرَجَ بِهِ يَسْتَغِيثُ وَلَم يَكُنْ حَوْلَهُ طَبِيبٌ وَلا مُنْجِدٌ ، فَارْتَمَىٰ فَوْقَ بِيْدَرِ المَالِ مَيْتاً لِيَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ حِرْصِهِ وَبُخْلِهِ ، لَيْسَ صَاحِبُهُ الوَزِيرُ خَوَاجَةُ فَحَسْبُ بَلْ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ مِنْ أَهَالِي قُرَىٰ الهِنْدِ وَخُرَاسَانَ وَالعِرَاقِ .

وَاسْتَمَرَّ مِنْ بَعْدِهِ حَدِيثُ الكَثِيرِينَ عَنِ المَغْرُورِ أَبِي غُرَّةَ وَهُوَ أَبُو

الطُّبُولِ ، الذِي خُلِعَ عَلَيْهِ لَقَبُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ ، فَأَبَاهُ ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ أَبَا الدُّنْيَا الفَانِيَةِ ، أَبَا التَّظَاهُرِ وَالحِرصِ وَالطَّمَعِ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِالله العَلِيِّ العَظِيمِ . .

عَلَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ قَائِلاً : لَيْسَ أَبُو غُرَّةَ أَوَّلَ رَجُلٍ أَرْدَاهُ الطَّمَعُ وَالغُرُورُ . . وَلَنْ يَكُونَ آخِرَ هَذَا المَعْدِنِ مِنَ البَشَرَ . .



☆☆ ☆☆

☆

المجموعة التاريخية للصغار

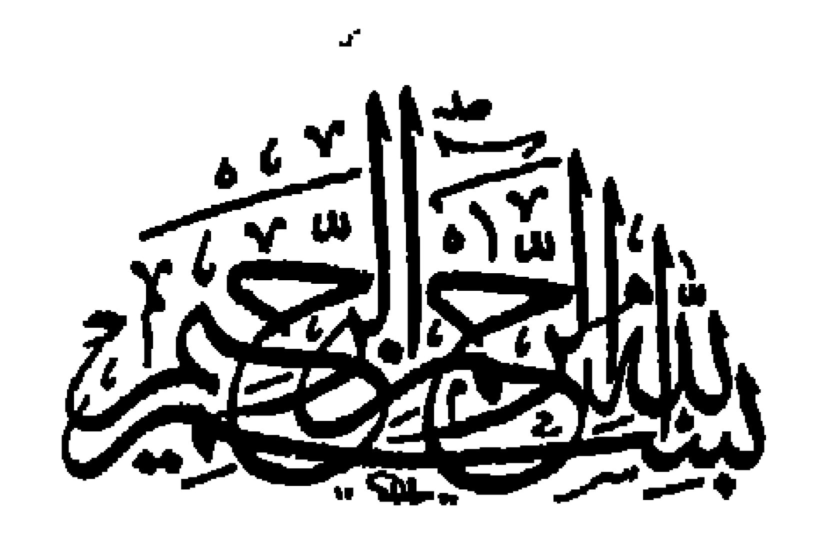
عجائب رحلة ابن بطوطة

النّارُ والأفاعي



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

النَّارُ وَالأَفَاعِي

فِي اللَيْلَةِ التَّالِيَةِ لِلَيْلَةِ حَدِيثِ أَبِي غُرَّةَ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ ، اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ بِنَدِيمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَمَعَهُمَا الكَاتِبُ البَارِعُ الحَصِيفُ ابْنُ جُزِّيٍّ فَالْتَفَتَ هَذَا إِلَىٰ السُّلْطَانِ قَائِلاً :

ـ هَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلايَ السُّلْطَانُ بِأَنْ أُصَارِحَ أَخِي الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ بِجَانِبٍ مِنَ التَّقْصِيرِ وَقَعَ فِيهِ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَوْ لَعَلَّهُ يَدْرِي ، فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ عَلَىٰ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِذَا كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ   وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَقَدْ فَاجَأَهُ اتِّهَامُ صَاحِبِهِ الكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ لَهُ بِالتَّقْصِيرِ ، وَوَدَّ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ التُّهْمَةَ المَزْعُومَةَ وَلا سِيَّمَا أَمَامَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الذي لَمْ يُبْدِ رَأْياً فِي حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ سِوَىٰ الإِشَادَةِ وَالاسْتِحْسَانِ :

ـ مَا هَذَا التَّقْصِيرُ الذِي تَدَّعِيه فِي حِكَايَاتِي ،وَقَدْ بَلَغَتْ بِضْعَ عَشْرَةَ حِكَايةً حَظِيَتْ كُلُّهَا بِإِعْجَابِ مَوْلايَ السُّلْطَانِ وَاسْتِحْسَانِهِ ، أَفِدْنِي أَفَادَكَ الله . .

أَجَابَ ابْنُ جُزِّيٍّ مُسْتَأْذِناً مَوْلاهُ السُّلْطَانَ :

ـ أَرْجُو أَنْ تَتَقَبَّلَ رَأْيِي فِيمَا تَقُصُّهُ عَلَيْنَا بِصَدْرٍ رَحْبٍ وَأَنَا لا أُنْكِرُ أَنَّكَ حَدَّثْتَ فَأَمْتَعْتَ . .إِنَّكَ يَا أَخِي ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ،تَخْتَارُ مِنَ الأَحْدَاثِ وَ الوَقَائِعِ أَعْجَبَهَا وَ أَغْرَبَهَا وَ أَطْرَفَهَا ،وَ تَنْسَىٰ أَنَّنَا نُدَوِّنُ بِأَمْرِ مَوْلانَا السُّلْطَانِ مَا يَنْفَعُ مِنْ عُلُومِ الأَرَضِينَ وَ البُلْدَانِ ، وَتَارِيخِ الأُمَمِ وَ الشُّعُوبِ لِيَكُونَ ذُخْراً لِلأَجْيَالِ القَادِمَةِ مِنْ بَعْدِنَا ،لا مُجَرَّدَ حِكَايَاتٍ لِلتَّسَالِي وَالمُسَامَرَةِ . .

هُنَا تَدَخَّلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ فِي رَأْيِ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ قَائِلاً :

ـ الحَقُّ أَنَّنِي أَنَا مَنْ وَجَّهْتُ ابْنَ بَطُّوطَةَ لِرِوَايَةِ العَجَائِبِ وَ الغَرَائِبِ وَ الطَّرَائِفِ وَأَنْ يَخْتَارَهَا لإِعْمَارِ مَجَالِسِنَا أَحْسَنَ اخْتِيارٍ ، وَقَدْ فَعَلَ وَلَمْ يُقَصِّرْ أَيَّ تَقْصِيرٍ . .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ كَاتِبُ السُّلْطَانِ :

ـ عَفْوَ مَوْلايَ ! هَلْ لِمُحَدِّثِنَا الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مَقْصِدَيْ العِلْمِ وَالتَّسْلِيَةِ ، وَأَنْ يَسْتَدْرِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مَافَاتَهُ مِنْ خَبَرِ البُلْدَانِ وَالأَقْوَامِ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ العِرَاقِ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ؟ فَقَدْ وَصَلَ بِنَا إِلَىٰ الهِنْدِ بِخَبَرِ أَبِي غُرَّةَ المَغْرُورِ ، قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَنَا بِمَا رَآهُ فِي نَجْدٍ وَالكُوفَةِ وَوَاسِطٍ وَالنَّجَفِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ فَلْيَتَحَدَّثْ بِمَا يَتَحَدَّثُ ، وَلَكِنْ دَعْهُ لا يَحْرِمْنَا مِنْ رِوَايَةِ العَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ ، فَبِهَا نَتَسَلَّىٰ وَتَطِيبُ المُنَادَمَةُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةُ :

ـ سَأَجْمَعُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَلَكِنَّ غَايَتِي وَ أَقْصَىٰ مُنَايَ أَنْ يَرْضَىٰ عَنِّي مَوْلايَ السُّلْطَانُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَدِّثْنَا يَا أَبَا عَبْدِ الله ، فَأَنَا عَنْكَ رَاضٍ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي شُكْراً يَلِيقُ بِخَاطِرِكَ ، وَهَأَنَذَا أَعُودُ بِأَدْرَاجِي إِلَىٰ مَشَارِفِ مَكَّةَ مُنْذُ انْفَصَلْتُ عَنْهَا حَتَّىٰ بَلَغْتُ الحَلَّةَ وَالنَّجَفَ وَرَأَيْتُ فِي وَاسِطٍ مِنْ مُدُنِ العِرَاقِ أُعْجُوبَةَ الرَّقْصِ فِي النَّارِ . . وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ أَعْجَبُ .

خَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ بَعْدَ طَوَافِ الوَدَاعِ لِلكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وَكُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ العِرَاقِيِّ ، وَفِي هَذَا الرَّكْبِ نَوَاضِحُ كَثِيرَةٌ لأَبْنَاءِ السَّبِيلِ ، وَجِمَالٌ تَحْمِلُ الصَّدَقَاتِ وَالأَدْوِيَةَ وَالأَشْرِبَةَ لِمَنْ يُصِيبُهُ مَرَضٌ . . وَإِذَا نَزَلَ الرَّكْبُ طُبِخَ الطَّعَامُ فِي قُدُورِ نُحَاسٍ عَظِيمَةٍ تُسَمَّىٰ الدُّسُوتَ ، وَأُطْعِمَ مِنْهَا أَبْنَاءُ السَّبِيلِ وَمَنْ لا زَادَ مَعَهُ . .

بَلَغْنَا بَطْنَ مَرٍّ ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهُ إِلَىٰ عُسْفَانَ ثُمَّ إِلَىٰ خُلَيْصٍ وَنَزَلْنَا بَعْدَهَا وَادِيَ السَّمَكِ ، ثُمَّ نَزَلْنَا فِي بَدْرٍ مَوْضِعِ المَعْرَكَةِ الظَّافِرَةِ الأُولَىٰ مِنْ مَعَارِكِ الإِسْلامِ ضِدَّ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ ، وَمِنْ بَدْرٍ إِلَىٰ الصَّفْرَاءِ وَمِنَ الصَّفْرَاءِ ، إِلَىٰ طَيْبَةَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَتَشَرَّفْتُ بِزِيَارَةِ رَسُولِ اللهِ مَرَّةً

ثَانِيةً بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَىٰ التِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ القُدُومِ .

وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الإِقَامَةِ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ تَزَوَّدْنَا مِنْهَا بِالمَاءِ ، وَرَحَلْنَا عَنْهَا فَنَزَلْنَا بِوَادِي العَرُوسِ مُجْتَازِينَ إِلَىٰ هَضْبَةِ نَجْدٍ ، فَإِذَا بَسِيطٌ مِنَ الأَرْضِ عَلَىٰ مَدِّ البَصَرِ ذُو نَسِيمٍ طَيِّبٍ وَأَرِيجٍ ، وَنَزَلْنَا بَعْدَ أَرْبَعِ مَرَاحِلَ عَلَىٰ مَاءٍ يُعْرَفُ بِالعُسَيْلَةِ وَمِنْهُ إِلَىٰ النَّقْرَةِ ، فَالقَارُورَةِ ، حَيْثُ سُبُلُ مَاءٍ صَنَعَتْهَا وَأَوْقَفَتْهَا زُبَيْدَةُ بِنْتُ جَعْفَرَ رَحِمَهَا الله .وَهَذَا المَوْضِعُ هُوَ وَسَطُ نَجْدٍ ، وَهُوَ فَسِيحٌ ، طَيِّبُ النَّسِيمِ ، صَحِيحُ الهَوَاءِ ، نَقِيُّ التُّرْبَةِ ، مُعْتَدِلٌ فِي كُلِّ الفُصُولِ ، وَمِنَ القَارُورَةِ إِلَىٰ الحَاجِرِ ، وَأَرْضٍ سَمِيرَةَ ، وَهِيَ أَرْضٌ غَائِرَةٌ ، مَاؤهَا لا يَصْلُحُ لِلشُّرْبِ ، يَأْتِيهَا عَرَبُ البَادِيَةِ يَبِيعُونَ اللبَنَ وَالسَّمْنَ لِلحُجَّاجِ بِالثِّيَابِ الخَامِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ وَقَدْ ضَاقَ ذَرْعاً بِذِكْرِ صِغَارِ البُلْدَانِ وَالمَوَاضِعِ .

ـ يَا أَبَا عَبْدِ الله ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، بِحَسْبِكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْ مَوَاضِعِ النُّزُولِ وَالارْتِحَالِ تَعْدَاداً كَمَا مَرَرْتُمْ بِهَا مُرُورَ الكِرَامِ . . وَلا تُفَصِّلْ إِلاَّ

لَدَىٰ بُلُوغِ عَاصِمَةٍ مِنَ العَوَاصِمِ أَوْ حُدُوثِ وَاقِعَةٍ عَجِيبَةٍ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَفْعَلُ مَا يَرْتَضِيهِ مَوْلايَ ، وَمَا يُرْضِي الحَقِيقَةَ وَالتَّارِيخَ بِإِذْنِ الله تَعَالَىٰ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ بُورِكَ فِيكَ . . عَجِّلْ عَلَيْنَا بِمَا حَصَلَ لَكَ مِنَ العَجَائِبِ أَوْ بِمَا شَاهَدْتَ عِيَاناً . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا فِي طَرِيقِي لإِطْرَافِ مَوْلايَ بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ مِمَّا شَاهَدْتُ عِيَاناً . .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ رَحَلْنَا عَنْ أَرْضِ سَمِيرَةَ إِلَىٰ الجَبَلِ المَخْرُوقِ فَإِلَىٰ وَادِي الكُرُوشِ ثُمَّ أَسْرَيْنَا لَيْلاً فَصَبَّحَنَا حِصْنُ فَيْدَ ، وَهُوَ حِصْنٌ كَبِيرٌ يُحِيطُ بِهِ سُورٌ وَحَوْلَهُ أَرْضٌ مَبْسُوطَةٌ يَسْكُنُهَا عَرَبٌ يَتَعَيَّشُونَ مَعَ الحَجِيجِ بِالبَيْعِ

وَالتِّجَارَةِ ، وَهُوَ نِصْفُ الطَّرِيقِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَغْدَادَ ، وَمِنْهُ إِلَىٰ الكُوفَةِ مَسِيرَةُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً فِي طَرِيقٍ سَهْلٍ ، بِهِ المِيَاهُ فِي المَصَانِعِ .

مِنْ حِصْنٍ فَيْدَ انْطَلَقَ فِي حِمَايَتِنَا أَمِيرَانِ مِنَ العَرَبِ هُمَا الأَمِيرُ فَيَّاضٌ ، وَالأَمِيرُ حَيَّارٌ خَشْيَةَ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْنَا الطَّامِعُونَ مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، وَبَلَغَا بِنَا الأَجْفَرَ ، وَهُوَ مَغْنَىٰ العَاشِقَيْنِ المَشْهُورَيْنِ جَمِيل وَبُثَيْنَةَ ، وَمِنَ الأَجْفَرِ أَسْرَيْنَا إِلَىٰ زَرُودٍ فَالثَّعْلَبِيَّةِ وَنَزَلْنَا بِبِرْكَةِ المَرْجُومِ ، وَهُوَ مَشْهَدٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ كَوْمٌ عَظِيمٌ مِنَ الحِجَارَةِ ، وَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ رَجَمَهُ كَمَا يَفْعَلُونَ بِجِمَارِ النَّاسِكِ أَثْنَاءَ الحَجِّ .

تَعَجَّبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مِنْ هَذَا الأَمْرِ ، وَسَأَلَ مُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ وَفِيمَ هَذَا الرَّجْمُ لِغَيْرِ جَمَرَاتِ الشَّيْطَانِ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ قَدْ اسْتَطْلَعْتُ خَبَرَهُ يَامَوْلايَ فَقِيلَ لِي : إِنَّ هَذَا المَرْجُومَ كَانَ رَافِضِيّاً مُسَافِراً مَعَ رَكْبٍ يُرِيدُ الحَجَّ فَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مُشَادَّةٌ وَمُشَاجَرَةٌ فَسَبَّ عَلَىٰ إِثْرِهِمَا صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ ، فَقَتَلُوهُ رَجْماً بِالحِجَارَةِ ، وَتَرَكُوا خَبَرَهُ وَهُوَ دَفِينٌ بِالمَكَانِ يَرْجُمُ قَبْرَهُ الرَّاجِمُونَ حَتَّىٰ عُرِفَ المَكَانُ ، وَفِيهِ بِرْكَةُ مَاءٍ ، بِبِرْكَةِ المَرْجُومِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ لا فُضَّ فُوكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، فَهَذِهِ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ حَقّاً . . بِمِثْلِهَا أَطْرِفْنَا . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ : (سَمْعاً وَطَاعةً) وَاسْتَمَرَّ فِي حِكَايَةِ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ العِرَاقِ مُغَادِراً الحِجَازَ فِي رَكْبٍ مِنْ أَهَالِيهَا وَبَيْنَهُم أَعْدَادٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَبِلادِ العَجَمِ :

مِنْ بِرْكَةِ المَرْجُومِ سِرْنَا إِلَىٰ المَشْقُوقِ ، فَالتَّنَانِيرِ ، فَالهَيْثَمَيْنِ ، فَالعَقَبَةِ ، فَوَاقِصَةَ ، فَمَنَارَةِ القُرُونِ ، فَالعُذَيْبِ وَالعُذَيْبُ وَادٍ مُخْصِبٌ فِيهِ عِمَارَةٌ ، وَحُوْلَهُ فَلاةٌ خِصْبَةٌ ، فِيهَا مَسْرَحٌ لِلبَصَرِ . ثُمَّ نَزَلْنَا القَادِسِيَّةَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاّ مِقْدَارُ قَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ ، ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهَا فَنَزَلْنَا مَدِينَةَ مشْهَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ بِالنَّجَفِ ، وَكَانَ لَنَا عَنْهَا سَابِقُ حَدِيثٍ فِي الحِكَايَةِ السَّابِقَةِ ، وَمَقْبَرَةُ عَلِيٍّ رَوْضَةٌ يُقَدِّسُهَا الشِّيعَةُ وَيَنْذُرُونَ لَهَا

النُّذورَ ، وَعَلَيْهَا نَقيبٌ لِلأشْرَافِ كَانَ أَبُو غُرَّةَ المَغْرُورُ أَحَدَهُم ،وَلَهُ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ وَقَفْنَا عَلَيْهَا ، وَكَانَ وَلَعُهُ بِالتَّسَلُّطِ وَالجَاهِ وَضَرْبِ الطُّبُولِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ أَمْرُهُ قَابِعاً فَوْقَ أَكْدَاسِ المَالِ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ : مُخَاطِباً ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا بِأُعْجُوبَةِ الرَّقْصِ فِي النَّارِ ، أَوْ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ كَمَا زَعَمْتَ ؟ ! . .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ آنَ الأَوَانُ لِهَذَا المَسَاقِ العَجِيبِ يَا مَوْلايَ ، وَكَانَ ذِكْرِي لِلبُلْدَانِ التِي عَبَرْتُ بِهَا قَادِماً مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِغَايَةِ اسْتِرْضَاءِ ابْنِ جُزَيٍّ الذِي لا تُعْجِبُهُ العَجَائِبُ وَالغَرَائِبُ وَالطَّرَائِفُ قَدْرَ مَا يُعْجِبُهُ عِلْمُ الأَرَضِينَ وَتَوَارِيخُ الأُمَمِ وَالأَقْوَامِ ، وَلَعَلَّنِي قَدْ سُقْتُ مِنْهَا مَا كَفَاهُ . .

قَالَ كَاتِبُ السُّلْطَانِ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ :

ـ أَنْتَ لَمْ تَقْفِزِ الأَرَاضِيَ وَالأَنْهَارَ وَالبِحَارَ قَفْزاً ، وَلَمْ تَتَعَامَلْ مَعَ أَشْبَاحِ البَشَرِ بَلْ مَعَ البَشَرِ ، وَلَمْ أُطَالِبْكَ بِإِذْنِ مَوْلايَ السُّلْطَانِ إِلاّ أَنْ

تكُونَ مُعْتَدِلَ المَنْهَجِ فِي رِوَايَتِكَ بَيْنَ الإِطْرَافِ وَالاسْتِخْفَافِ بِالوَقَائِعِ المَلْمُوسَةِ الثَّابِتَةِ . . وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ يُسَامِحُكَ اللهُ . . قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُتَطَلِّعاً إِلَىٰ وَجْهِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَأَنَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ بِأَنْ يُوَاصِلَ الحَدِيثَ ، حَدِيثَ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَ ، الحَافِلَ بِالعَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ :

ـ لَمَّا تَحَصَّلَتْ لَنَا زِيَارَةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بِمَثْوَاهُ بِالنَّجَفِ ، سَافَرَ الرَّكْبُ الذِي كُنْتُ فِيهِ إِلَىٰ بَغْدَادَ ، وَأَخَذْتُ طَرِيقِي إِلَىٰ البَصْرَةِ بِصُحْبَةِ رِفْقَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ عَرَبِ خَفَّاجَةَ ، وَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ البِلادِ ، وَلَهُمْ شَوْكَةٌ عَظِيمَةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ ، وَلا سَبِيلَ لِلسَّفَرِ فِي تِلْكَ الأَقْطَارِ إِلاّ فِي صُحْبَتِهِمْ ، وَكَانَ أَنْ اكْتَرَيْتُ جَمَلاً عَلَىٰ يَدِ أَمِيرِ تِلْكَ القَافِلَةِ ، وَاسْمُهُ شَامِرُ بْنُ دَرَّاجٍ الخَفَّاجِيُّ .

خَرَجْنَا مِنَ النَّجَفِ مَشْهَدِ عَلِيٍّ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ فَنَزَلْنَا الخَوَرْنَقَ مَوْضِعَ سُكْنَىٰ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ ، وَبِهِ عِمَارَةٌ وَبَقَايَا قِبَابٍ ضَخْمَةٍ فِي فَضَاءٍ فَسِيحٍ عَلَىٰ نَهْرٍ يَخْرُجُ مِنَ الفُرَاتِ ، ثُمَّ رَحَلْنَا عَنْهُ فَنَزَلْنَا مَوْضِعاً يُعْرَفُ بِقَائِمِ الوَاثِقِ ، وَبِهِ أَثَرُ قَرْيَةٍ خَرِبَةٍ وَمَسْجِدٍ خَرِبٍ لَم يَبْقَ مِنْهُ إِلاّ

صَومَعَتُهُ . وَحَاذَيْنَا الفُرَاتَ حَتَّىٰ بَلَغْنَا المَوْضِعَ المَعْرُوفَ بِالعِذَارِ ، وَهُوَ غَابَةٌ مِنَ القَصَبِ يَسْكُنُهَا أَعْرَابٌ يُعْرَفُونَ بِالمَعَادِي ، لايَتَوَانَوْنَ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ ، وَبَعْدَ ثَلاثِ مَرَاحِلَ وَصَلْنَا مَدِينَةَ وَاسِطِ التِي يُقَالُ إِنَّهَا مُبْتَنَىٰ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ، وَكَانَتْ وَاسِطٌ عَلَىٰ مَا شَاهَدْتُهَا حَسَنَةَ الأَقْطَارِ ، كَثِيرَةَ البَسَاتِينِ وَالأَشْجَارِ . وَأَهْلُهَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِ العِرَاقِ ، بَلْ هُمْ خَيْرُهُمْ عَلَىٰ الإِطْلاقِ ، إِذْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَحْفَظُونَ القُرْآنَ الكَرِيمَ ، وَيُجِيدُونَ تَجْوِيدَهُ بِالقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ . وَإِلَيْهِم يَتَوَافَدُ أَهْلُ البِلادِ لِتَعَلُّمِ القُرْآنِ حِفْظاً وَتِلاوَةً وَتَجْوِيداً .

زُرْتُ المَدْرَسَةَ الوَاسِطِيَّةَ وَهِيَ مَدْرَسَةٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا نَحْوُ ثَلاثِمِائَةِ خَلْوَةٍ يَنْزِلُهَا الغُرَبَاءُ القَادِمُونَ لِتَعَلُّمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَتَجْوِيدِهِ . وَالْتَقَيْتُ فِيهَا بِشَيْخِهَا تَقِيِّ الدِّينِ وَهُو مِنْ كِبَارِ أَهْلِ وَاسِطِ وَفُقَهَائِهَا ، وَهُوَ صَاحِبُ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ يُعْطِي كُلَّ مُتَعَلِّمٍ كِسْوَةً فِي السَّنَةِ ، وَيُجْرِي لَهُ نَفَقَتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَيَقْعُدُ هُوَ وَإِخْوَانُهُ وَأَصْحَابُهُ لِتَعْلِيمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ .

شُغِلَ مُعْظَمُ مَنْ فِي قَافِلَتِي بِالتِّجَارَةِ خَارِجَ المَدِينَةِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَ الوَلِيِّ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ أَبِي العَبَّاسِ بِقَرْيَةِ أُمِّ عُبَيْدَةَ . فَطَلَبْتُ مِنَ

الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ وَقَدْ تَوَثَّقَتْ بَيْنَنَا الصِّلَةُ أَنْ يَبْعَثَ مَعِي مَنْ يُوصِلُنِي إِلَىٰ القَرْيَةِ مَوْضِعِ القَبْرِ وَكَانَتْ القَرْيَةُ عَلَىٰ مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ وَاسِطٍ فَبَعَثَ مَعِي ثَلاثَةً مِنَ الحَرَسِ وَالأَدِلَّاءِ ، هُمْ مِنْ قُطَّانِ تِلْكَ الجِهَةِ ، وَحَمَلَنِي عَلَىٰ فَرَسٍ لَهُ .

خَرَجْنَا ظُهْراً وَوَصَلْنَا فِي ظُهْرِ اليَوْمِ الثَّانِي إِلَىٰ الرِّوَاقِ ، وَهُوَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ فِيهِ آلافٌ مِنَ الفُقَرَاءِ ، وَصَادَفْنَا بِهِ قُدُومُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ كُوجَكْ حَفِيدُ أَبِي العَبَّاسِ الرِّفَاعِيِّ صَاحِبِ الضَّرِيحِ . وَقَدْ قَدِمَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مِنْ مَوْضِعِ سُكْنَاهُ بِبِلادِ الرُّومِ بِقَصْدِ زِيَارَةِ قَبْرِ جَدِّهِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلاهُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الفَاسِيِّ :

ـ لَمْ أَلْزَمْ ضَرِيحَ الوَلِيِّ أَبِي العَبَّاسِ الرِّفَاعِيِّ لأَكْثَرَ مِنْ قِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ ، وَبَعْضٍ مِنْ قِصَارِ السُّوَرِ عَلَىٰ رُوحِهِ الطَّاهِرَةِ ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ العَجَبَ يَا مَوْلايَ أَنَّهُ لَمَّا انْقَضَتْ صَلاةُ العَصْرِ ضُرِبَتْ الطُّبُولُ وَالدُّفُوفُ ، وَأَخَذَ الفُقَرَاءُ فِي الرَّقْصِ ، فَلَمَّا أُذِّنَ لِصَلاةِ المَغْرِبِ اقْتَدَيْنَا جَمِيعاً بِالشَّيْخِ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ ، وَفَرَغْنَا مِنَ الصَّلاةِ فَبُسِطَ أَمَامَنَا سِمَاطٌ طَعَامُهُ مِنْ خُبْزِ

الأَرُزِّ وَالسَّمَكِ وَاللبَنِ وَالتَّمْرِ ، فَأكَلَ النَّاسُ وَاجْتَمَعُوا حَوْلَ شَيْخِهِم وَأَخَذُوا بِالذِّكْرِ ، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ قَاعِدٌ عَلَىٰ سَجَّادَةٍ جُلِبَتْ لَهُ مِنَ الحَضْرَةِ ، وَهِيَ سَجَّادَةُ جَدِّهِ المَذْكُورِ الوَلِيِّ المَشْهُورِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله .

وَبَعْدَ الذِّكْرِ الحَمِيدِ لِلمَوْلَىٰ تَعَالَىٰ تَشَنَّفَتِ الآذَانُ بِسَمَاعِ القُرْآنِ ، وَنَفَرَ مِنْهُم جَمْعٌ غَفِيرٌ إِلَىٰ ظَاهِرِ المَزَارِ وَنَفَرْتُ مَعَهُم لِغَايَةِ الاطِّلاعِ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ، فَإِذَا بِهِم يُنْزِلُونَ أَحْمالاً مِنَ الحَطَبِ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ الجِمَالِ لَمْ أَدْرِ مَا يَصْنَعُونَ بِهَا .

وَبَعْدَ أَنْ صَلَّيْنَا العِشَاءَ خَلْفَ إِمَامِنَا الشَّيْخِ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ حَفِيدِ أَبِي العَبَّاسِ قَعَدْنَا لِلذِّكْرِ وَالسَّمَاعِ وَكَانَتْ نَفْرَةٌ ثَانِيَةٌ إِلَىٰ ظَاهِرِ المَزَارِ فَقَامَ الفُقَرَاءُ الرِّفَاعِيَّةُ بِتَأْجِيجِ الحَطَبِ نَاراً مُشْتَعِلَةً وَدَخَلُوا فِي وَسَطِهَا يَرْقُصُونَ ، وَمِنْهُم مَنْ يَتَمَرَّغُ فِيهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يأكُلُهَا بِفَمِهِ ، وَمَازَالُوا كَذَلِكَ حَتَّىٰ انْطَفَأَتْ النَّارُ وَآلَتْ إِلَىٰ رَمَادٍ بَارِدٍ . وَطَافَتْ مِنْ حَوْلِنَا طَائِفَةٌ مِنْهُم وَقَدْ أَمْسَكَ كُلٌّ بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا فِي الأَفَاعِي . فَإِذَا بِهِ يَعَضُّ عَلَىٰ رَأْسِهَا بِأَسْنَانِهِ حَتَّىٰ يَقْطَعَهُ بِلا خَوْفٍ وَلا تَرَدُّدٍ وَلا وَجَلٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ الله . . الله . . لَقَدْ بَرَرْتَ بِوَعْدِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله فَحَدَّثْتَنَا بِالعَجِيبِ وَهُوَ الرَّقْصُ فِي النَّارِ ، وَبِمَا هُوَ أَعْجَبُ وَهُوَ قَضْمُ رُؤُوسِ الأَفَاعِي . . ذَلِكَ مِمَّا لا يُنْسَىٰ مِنْ كَرَامَاتِ الطَّائِفَةِ الأَحْمَدِيَّةِ الرِّفَاعِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ . . قَدَّسَ الله سِرَّ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ . . آمين .

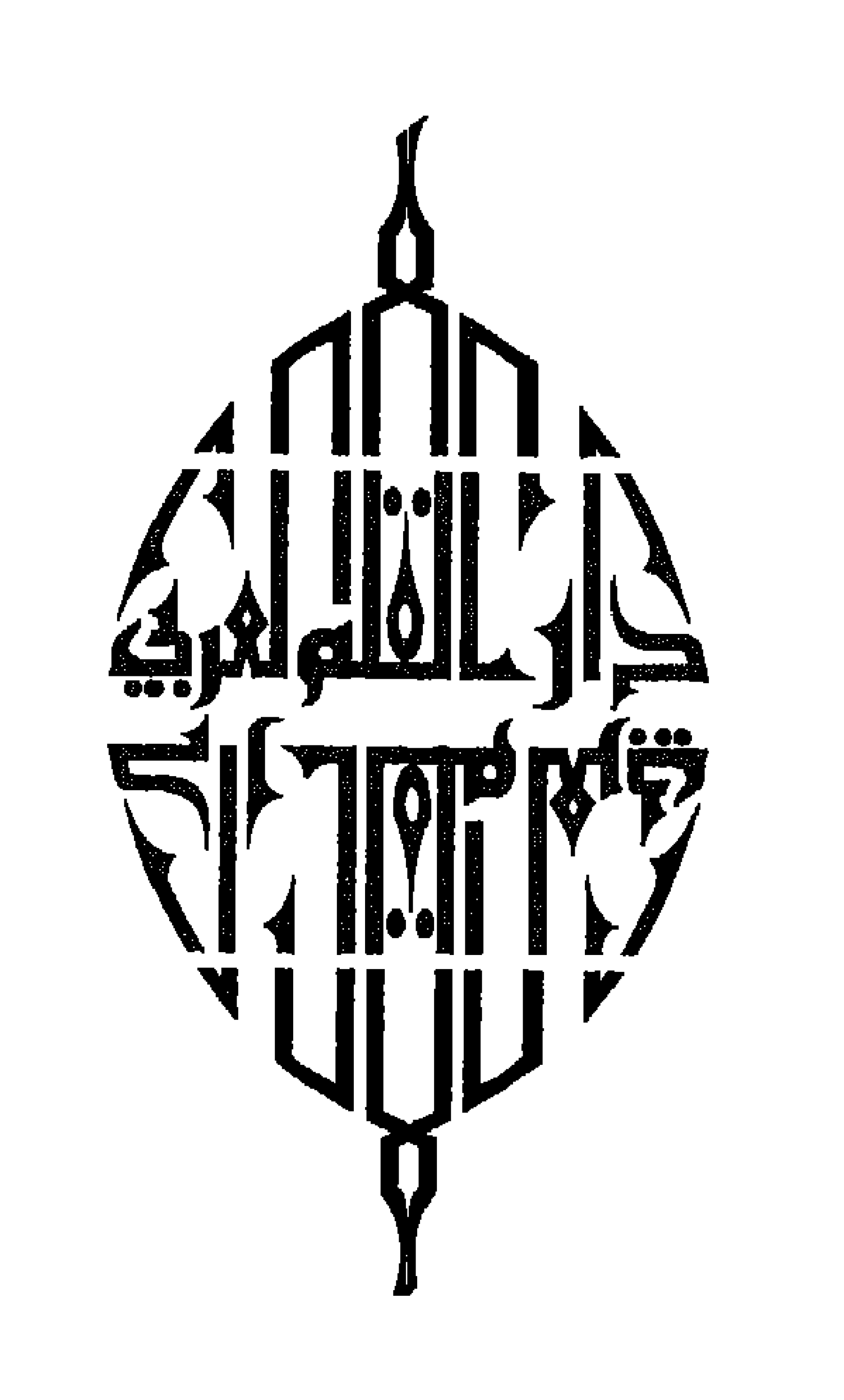
قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُؤَيِّداً مَوْلاهُ السُّلْطَانِ بِغَمْزَةٍ خَفِيَّةٍ :

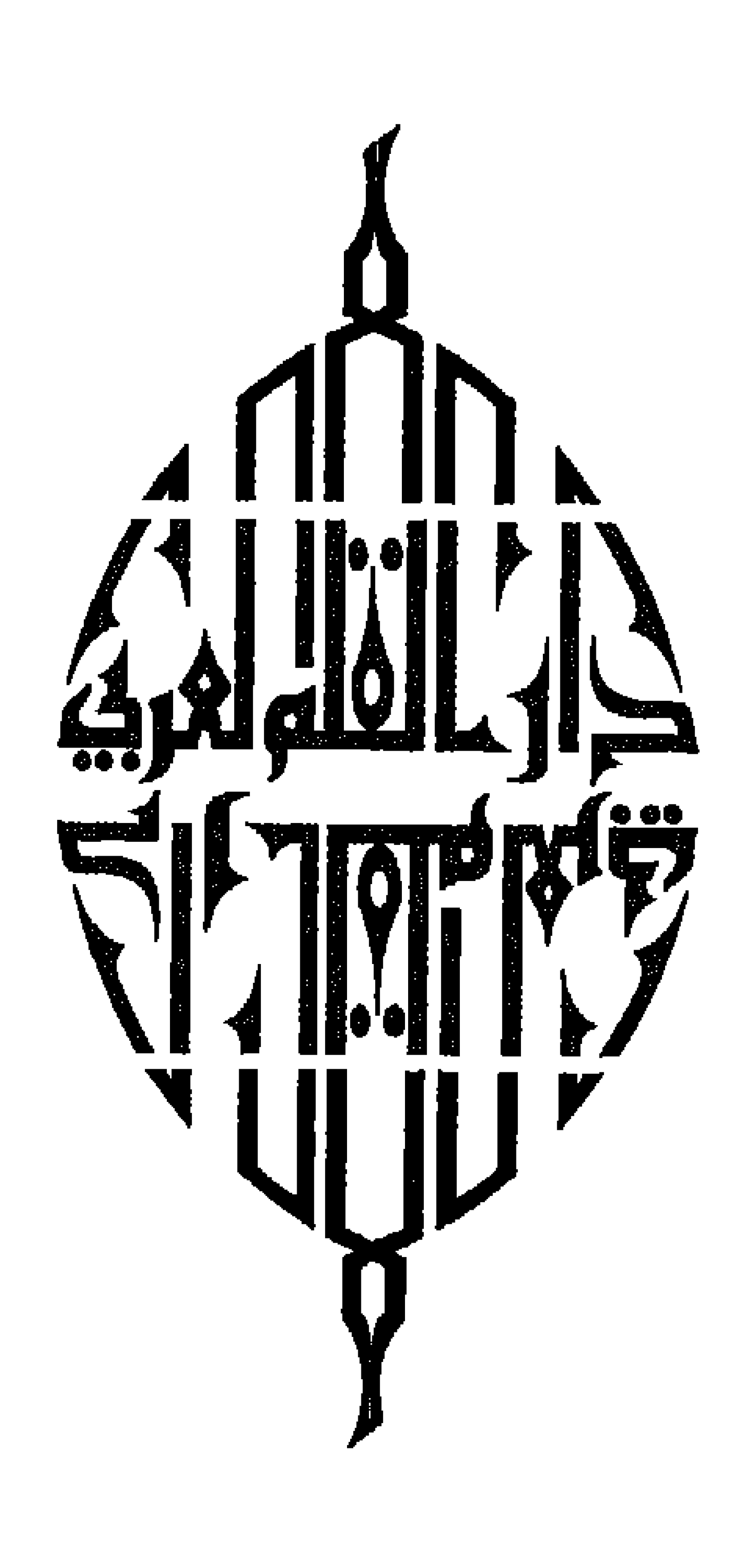
ـ النَّارُ وَالأَفَاعِي ، مِنْ أَعْجَبِ الأَعَاجِيبِ فِي حِكَايَتِهَا مَعَ الصُّوفِيَّةِ الأَجِلاَّءِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆




دار القلم العربي

المجموعة التاريخية للصغار

للصغار واليافعين

عجائب رحلات ابن بطوطة

كانتْ رحلةُ ابنِ بطوطة و مازالت محطّ اهتمامِ الدارسين، يقرؤونها و يُشيدون بهمّة هذا الرجل الذي شرّق و غرّب ، وهو لا يملكُ من وسائلِ السّفر إلا قدميه أو دابّة لا تستطيع أن تصمُد أمام همّته العالية.

لقد كان الحجّ نقطة الانطلاقِ في رحلته ، يحدوه إلى ذلك قوله تعالى (و أذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً و على كلّ ضامرٍ يأتين من كل فجّ عميق)

لقد حجّ ثم طوّف في الآفاق يسجّل كل ما يجدُه من عجائب و غرائب و طرائف ، ولقد كان لدار القلم العربي فضل السبق الى تجزئة رحلته إلى أجزاء عرضت بأسلوب سهل رشيق ، مع المحافظة على الأصل.

الناشر

دار القلم العربي
للأطفال

I.S.B.N:2-8080-5